## الفصل الحادي والسبعون

# شعائر الدين

ولكل دين شعائر تكون له سمة وعلامة تميزه عن غيره من الأديان . ولمّا كنا قد ذكرنا ان الجاهليين كانوا شعوباً وقبائل ، لم تجمع بينهم وحدة فكر ولم تضمهم دولة واحدة ، أو عقيدة مشتركة ، فنحن لا نستطيع أن نتحدث عن شعائر واحدة لجميع عرب الجاهلية .

وما سأذكره عن ديانات أهل الجاهلية ، مستمد إما من نصوص جاهلية ، وذلك فيما يخص العربية الغربية والعربية الجنوبية في الغالب، وإما من موارد اسلامية، وهو ما يتناول أهل الحجاز ، قبيل ظهور الاسلام ، وبعض أنحاء نجد . وهو مما جاء عنهم في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي وفي كتب التفسير والسير والأخبار مما له صلة بأيام الجاهلية المتصلة بالاسلام ، وبظهور الاسلام .

وفي مقدمة شعائر الدين عند أهل الجاهلية : الأصنام وبيوتها والتقرب اليها بالصلاة وبالسجود وبالطواف حولها ، وبالنذور ، وبالحبوس وبالقسم بها ، وذلك لتمنّ على عبدها الانسان فتمنحه ما يرجوه في هذه الحياة من صحة وعافية ومال ونسل وذكور . وتكاد تنحصر الكتابات الجاهلية[1] التي عثر عليها حتى الآن بهذه الأمور ، اذ لا نكاد نجد فيها شيئاً له علاقة بالآلهة يخرج عن حدود ما ذكرت . ويكاد يقتصر ما جاء في روايات أهل الأخبار عن ديانة أهل الجاهلية بهذه الأمور

---

١ Grohmann, S. 89, Jaussen - Savignac, Mission, II, 397, 401, 452.

أيضاً ، فلا تتجاوز ما ذكرته من تقرب الى صنم أو توسل اليه وطواف بـــه ، لنيل شيء منه يتمناه ويرجوه في هذه الحياة الدنيا .

أما الصلاة الى الآلهة على نحو ما يفهم من الصلاة في الإسلام فلا نجد لهـــا ذكراً في النصوص الجاهلية ، ولا نكاد نجد لها صورة واضحة صحيحة في روايات أهل الأخبار ، اللهم إلا فيما يخص صلوات اليهود والنصارى والعرب فقـــد كان هؤلاء يصلون في كنائسهم في أوقات معينة ، وقف بعض أهل الجاهلية عليهـــا ، فأشاروا اليها في أشعارهم وفي حديثهم عن أهل الكتاب .

وقد ذُكر ان عبدة ( الشمس ) كانوا قد ( اتخذوا لها صنماً بيده جوهر على لون النار ، وله بيت خاص قد بنوه باسمه وجعلوا له الوقوف الكثيرة من القرى والضياع وله سدنة وقوام وحجبة يأتون البيت ويصلّون فيـه لها ثلاث كرات في اليوم ، ويأتيه أصحاب العاهات فيصومون لذلك الصنم ويصلون ويدعونه ويستشفعون به . وهم اذا طلعت الشمس سجدوا كلهم لها ، واذا غربت واذا توسطت الفلك . ولهذا يقارنها الشيطان في هذه الأوقات الثلاثة ، لتقع عبادتهم وسجودهم له . ولهذا نهى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، عن تحري الصلاة في هذه الأوقات قطعاً لمشابهة الكفار ظاهراً ، وسداً لذريعة الشرك وعبادة الأصنام )[1] . وذكر ( اليعقوبي ) ان العرب كانت « اذا أرادت حج البيت الحرام ، وقفت كل قبيلة عند صنمها وصلّوا عنـــده ثم تلبوا »[2] . وفي هذين الخبرين دلالة عـــلى وجود الصلاة عند الجاهليين ، ولا سيما في خبر عبدة الشمس ، حيث كانوا يصلّون ثلاث كرات لها في اليوم .

وذكر ان ( التسبيح ) بمعنى الصلاة والذكر ، روي ان ( عمر ) جلد رجلين سبّحا بعد العصر ، أي صلّيا . وان قول الأعشى :

وسبّح على حين العشيّات والضحى ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا

يعني الصلاة بالصباح والمساء وعليه فسر قوله : فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، يأمرهم بالصلاة في هذين الوقتين[3] .

---

١ بلوغ الارب ( ٢/٢١٥ وما بعدها ) .
٢ اليعقوبي ( ١/٢٢٥ ) .
٣ اللسان ( ٢/٤٧٣ ) ، ( سبح ) .

وذكر انهم كانوا يصلّون على موتاهم ، وكانت صلاتهم ان يحمل الميت على سرير ، ثم يقوم وليّه ، فيذكر محاسنه كلها ويثني عليه . ثم يقول : عليك رحمة الله . ثم يدفن[1] .

وقد أشير الى سجود الناس للشمس والقمر في القرآن الكريم : « ومن آياته الليل والنهار ، والشمس والقمر . لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون . فإن استكبروا ، فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون »[2] . « يقول تعالى ذكره : فإن استكبر يا محمد هؤلاء الذين أنت بين أظهرهم من مشركي قريش وتعظموا عن أن يسجدوا لله الذي خلقهم وخلق الشمس والقمر ، فإن الملائكة الذين عند ربك لا يستكبرون عن ذلك ولا يتعظمون عنه »[3] . كما أشير الى سجود أهل (سبأ) الى (الشمس) في الآية : « وجئتك من سبأ بنبأ يقين . إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ، ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل ، فهم لا يهتدون »[4] . وفي هذه الآية وصف لتعبد أهل سبأ للشمس وسجودهم لها . وقد ذكر المفسرون أن ملكة سبأ « كانت لها كوة مستقبلة الشمس ، ساعة تطلع الشمس تطلع فيها ، فتسجد لها »[5] . فسجودهم للشمس ، هو عبادة لها وتعظيماً لشأنها .

## الصوم :

وأما (الصوم) ، فنحن لا نجد له ذكراً في الكتابات الجاهلية بالمعنى المفهوم منه عند أهل الكتاب أو المسلمين . وهو في اللغة الإمساك عن الشيء والترك له . وقيل للصائم صائم لامساكه عن المطعم والمشرب والمنكح ، وقيل للصامت صائم لامساكه عن الكلام . « وقوله عزّ وجل : إني نذرت للرحمان صوماً . قيل :

---

١ المحبر ( ٣٢٠ وما بعدها ) .
٢ سورة فصلت ، الرقم ٤١ ، الآية ٣٧ وما بعدها .
٣ تفسير الطبري ( ٢٤/٧٧ ) .
٤ النمل ، الرقم ٢٧ ، الآية ٢٤ .
٥ تفسير الطبري ( ١٩/٩٤ وما بعدها ) ، تفسير القرطبي ( ١٣/١٩٠ وما بعدها ) .

معناه صمتاً ، ويقويه قوله تعالى : فلن أكلّم اليوم إنسياً »[1] . والصوم : الصبر كذلك .

وقد ذكر ( الصوم ) في السور المدنية ، أما في السور المكية ، فقد ذكر مرة واحدة ، في ( سورة مريم ) : « فقولي : إني نذرت للرحمن صوماً . فلن أكلم اليوم إنسياً »[2] . وقد حددت السور المدنية أصول الصيام في الإسلام .

والصوم المعروف عند اليهود والنصارى معروف عند أهل الجاهلية الذين كان لهم اتصال واحتكاك بأهل الكتاب . فقد كان أهل يثرب مثلاً على علم بصوم اليهود ، بسبب وجودهم بينهم . وكان عرب العراق وبلاد الشأم على علم بصوم النصارى ، بسبب وجود قبائل عربية متنصرة بينهم . وكان أهل مكة ، ولا سيما الأحناف منهم والتجار على معرفة بصيام أهل الكتاب . وبصيام الرهبان ، المتمثل في السكوت والتأمل والجلوس في خلوة ، للتفكير في ملكوت السماوات والأرض . ويظهر من أخبار أهل الأخبار أن من الجاهليين من اقتدى بهم ، وسلك مسلكهم. فكان يصوم ، صوم السكوت والتأمل والامتناع عن الكلام والانزواء في غار حراء وفي شعاب جبال مكة .

ويذكر أهل الأخبار ان قريشاً كانت تصوم يوم عاشوراء . وفي هذا اليوم كانوا يحتفلون ، ويعيّدون ، ويكسون الكعبة ، وعللوا ذلك بأن قريشاً أذنبت ذنباً في الجاهلية ، فعظم في صدورهم ، وأرادوا التكفير عن ذنبهم ، فقرروا صيام يوم عاشوراء ، فصاموه شكراً لله على رفعه الذنب عنهم[3]. وذكر ان رسول الله كان يصوم عاشوراء في الجاهلية ، ولما قدم المدينة واظب عليه وأمر الناس بصيامه حتى نزل الأمر بصيام رمضان . وقد ذكر العلماء انه يحتمل ان قريشاً اقتدت بصيامه في الجاهلية ، بشرع سالف ، ولذا كانوا يعظمونه بكسوة البيت الحرام فيه[4] . وذكر بعضهم: كان يوم عاشوراء ، يوماً تصومه قريش في الجاهلية، اقتداءً بشرع سابق ، وكان النبي يصومه في الجاهلية ، فلما قدم المدينة صامه على عادته وأمر أصحابه بصيامه في أول السنة الثانية ، فلما نزل رمضان ، كان من

---

١ اللسان ( /٣٥٠ ) ، ( صوم ) .
٢ سورة مريم ، رقم ١٩ ، الآية ٢٦ .
٣ بلوغ الارب ( ٢/٢٨٨ ) .
٤ ارشاد الساري ( ٣/٤٢١ ) ، ( باب حكم صيام عاشوراء ) .

شاء صام يوم عاشوراء ومن شاء لا يصومه . وعللوا سبب صيام ( قريش ) هذا اليوم ، انه كان أصابهم قحط ثم رفع عنهم ، فصاموه شكراً[1] . وورد « ان قريشاً كانت تعظم هذا اليوم ، وكانوا يكسون الكعبة فيه ، وصومه من تمام تعظيمه » . وذكر ان رسول الله ، كان يتحرى صوم يوم عاشوراء على سائر الأيام ، وكان يصومه قبل فرض رمضان . فلما فرض رمضان ، قال : من شاء صامه ، ومن شاء تركه . وبقي هو يصومه تطوعاً ، فقيل له : « يا رسول الله انه يوم تعظمه اليهود والنصارى ، فقال ، صلى الله عليه وسلم : اذا كان العام المقبل ان شاء الله صمنا اليوم التاسع،فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله »[2] .

وذكر أيضاً ان قريشاً كانوا اذا أصابهم قحط ثم رفع عنهم صاموا شكراً لله وحمداً له على اجابة دعوتهم[3] .

وقد أشار أهل الحديث الى صيام ( يوم عاشوراء ) ، فجعله بعضهم الصيام الذي كان في الإسلام قبل فرض صيام شهر رمضان ، وذكر بعضهم أنه كان مفروضاً الى السنة الثانية من الهجرة ، ثم نسخ بصوم رمضان[4] .

وقد أشير الى الصيام في السور المكية من القرآن الكريم كما أشير اليه في السور المدنية ، ويدل نزول الوحي به في مكة وفي المدينة أنه كان من الشعائر الدينية القديمة ، وأن قريشاً كان لها علم به . ويظهر من بعض الآيات أن المراد من الصوم لم يكن الامتناع من الأكل والشرب حَسْبُ ، بل كان يعني في أول عهد النبوة الامتناع عن الكلام كذلك[5] .

ورواية أن قريشاً كانت تصوم في يوم ( عاشوراء ) ، لا تتفق مع الروايات الأخرى في كيفية فرض صيام شهر رمضان . ففي هذه الدوايات أن النبي «حين قدم المدينة رأى يهود تصوم يوم عاشوراء ، فسألهم : فأخبروه أنه اليوم الذي غرّق الله فيه آل فرعون ، ونجّى موسى ومن معه منهم . فقال : نحن أحق بموسى منهم ، فصام ، وأمر الناس بصومه . فلما فرض صوم شهر رمضان ،

---

١ ارشاد الساري ( ٦/١٧٤ ) ، « باب أيام الجاهلية » .
٢ زاد المعاد ( ١/١٦٤ وما بعدها ) .
٣ ارشاد الساري ( ٦/١٧٤ ) .
٤ راجع كتب الحديث : باب الصوم .
٥ سورة مريم ، الآية ٢٦ . وهي سورة مكية ، رقمها ٥٨ حسب نزول السور بمكة .

لم يأمرهم بصوم يوم عاشوراء ، ولم ينههم عنه »[1] . وورد أن يهود خيبر والمدينة كانوا يعظمون صيام عاشوراء ويتخذونه عيداً[2] .

ويقصدون بصوم اليهود يوم عاشوراء ، ما يقال له ( يوم الكفارة ) ، وهو يوم صوم وانقطاع ، ويقع قبل عيد المظال بخمسة أيام ، أي في يوم ( ١٠ تشرى ) وهو يوم ( الكبور ) Kipur . ويكون الصوم فيه من غروب الشمس الى غروبها في اليوم التالي ، وله حرمة كحرمة السبت ، وفيه يدخل الكاهن الأعظم قدس الأقداس لأداء الفروض الدينية المفروضة في ذلك اليوم[3] .

ومما يلاحظ ان علماء التفسير والحديث ، قد اختلفوا اختلافاً كبيراً في موضوع الصيام قبل نزول الأمر به وفرضه . فقال بعضهم كان المسلمون يصنعون كما تصنع من صيامهم خمسين يوماً ( حتى كان من أمر أبي قيس بن صرمة وعمر بن الخطاب ما كان ، فأحل لهم الأكل والشرب والجماع الى طلوع الفجر )[4] . وقال بعض آخر ، كان صيام الناس قبل فرض رمضان صوم ثلاثة أيام من كل شهر ، وذكر ان ذلك كان تطوعاً لا فرضاً ، ولم يأت خبر تقوم به حجة بأن صوماً فرض على أهل الاسلام غير صوم شهر رمضان[5] . ولم أتمكن من العثور على خبر قاطع يفيد بأن المسلمين كانوا يصومون بمكة قبل الهجرة الى المدينة .

ولا صلة لقصة ( أبي قيس بن صرمة الأنصاري ) ( أبو صرمة الأنصاري ) و ( عمر بن الخطاب ) بصيام عاشوراء ولا بعدد أيام الصوم . وكل ما ورد فيها ان المسلمين كانوا في أول ما افترض عليهم في رمضان اذ أفطروا وكان الطعام والشراب وغشيان النساء لهم حلالاً ما لم يرقدوا ، فإذا رقدوا حرم عليهم ذلك الى مثلها من القابلة ، فلم يزل المسلمون على ذلك ، حتى نام ( أبو قيس بن صرمة ) بعد افطاره وكان يعمل في حيطان المدينة بالأجر ، فلما أفاق أبى ان يأكل شيئاً وأصبح صائماً ؛ وكان (عمر ) قد وقع على جارية له ، فنزل الوحي

---

١ الطبري ( ٢/٢٦٥ ) ، « ذكر بقية ما كان في السنة الثانية من الهجرة » ، ارشاد الساري ( ٣/٤٢١ ) .
٢ ارشاد الساري ( ٣/٤٢٣ ) .
٣ قاموس الكتاب المقدس ( ٢/٢٦٠ ) .
٤ تفسير الطبري ( ٢/٧٥ وما بعدها ) .
٥ تفسير الطبري ( ٣/٧٦ وما بعدها ) .

بنسخ ذلك عنهم في آية : « أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهن . علم الله انكم كنتم تختانون أنفسكم »[1] . فلا صلة لقصتيها بموضوع الصوم .

ويظهر أنه خبر صيام قريش يوم ( عاشوراء ) ، هو خبر متأخر ، ولا يوجد له سند يؤيده . ولا يعقل صيام قريش فيه ، وهم قوم مشركون . وصوم ( عاشوراء ) ، هو من صيام يهود . وهو صيام كفارة واستغفار عندهم ، فلِمَ يستغفر قريش ويصومون هذا اليوم ؟ وماذا فعلوا من ذنب ، ليطلبوا من آلهتهم العفو والغفران ؟ وإذا كان هناك صوم عند الجاهليين ، فقد كان بالأحرى أن يصومه الأحناف ، ولم يرد في أخبار أهل الأخبار ما يفيد صيامهم في (عاشوراء) ولا في غير عاشوراء . ثم إن علماء التفسير والحديث والأخبار ، يذكرون أن الرسول صام ( عاشوراء ) مقدمه المدينة على نحو ما ذكرت قبل قليل . وأنه بقي عليه حتى نزل الأمر بفرض رمضان . ويظهر أن الرواة أقحموا اسم قريش في صيام ( عاشوراء ) ، لإثبات أنه كان من السنن العربية القديمة ، التي ترجع الى ما قبل الأسلام . وأن قريشاً ، كانت تصوم قبل الإسلام[2] .

ويظهر من روايات أهل الأخبار ، أن صوم أهل الجاهلية : صوم امتناع عن الأكل والشرب وإتيان النساء . وهو صوم الاسلام ، وصوم امتناع عن الكلام وحبس للسان ، إما لأمد معين قصير ، مثل يوم أو اسبوع ، وإما لأمد طويل. وقد أشير في القرآن الكريم ان هذا الصوم في قوله تعالى : « فقولي إني نذرت للرحمن صوماً ، فلن أكلّم اليوم أنسياً »[3] . وروي أن رجالاً من زهاد أهل الجاهلية كانوا يصومون هذا الصوم .

وقد اتخذ الصوم نذراً ، روي أن ( أبا بكر ) دخل على امرأة من (أحمس) يقال لها ( زينب ) ، فرآها لا تتكلم ، فقال : ما لها لا تكلم ؟ قالوا : حجت مُصمتة ، قال لها : تكلمي . فإن هذا لا يحل . هذا من عمل الجاهلية ، فتكلمت.

---

١ البقرة ، الآية ١٨٧ ، تفسير الطبري ( ٢/٩٤ وما بعدها ) .

٢ Sprenger; Leben, III, S. 54.

٣ سورة مريم ، الرقم ١٩ ، الآية ٢٦ ، تفسير الطبري ( ١٦/٥٦ ) ، روح المعاني ( ١٦/٧٩ ) .

فقالت له : من أنت : قال امرؤ من المهاجرين . قالت : أي المهاجرين ؟ قال لها : من قريش . قالت له : من أي قريش أنت ؟ قال : إنك لسؤول . أنا أبو بكر . قالت : ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح الذي جاء الله به بعد الجاهلية؟ قال : بقاؤكم عليه ما استقامت بكم أئمتكم . قالت : وما الأئمة ؟ قال لها: كان لقومك رؤوس وأشراف يأمرونهم فيطيعونهم ؟ قالت : بلى . قال : فهم أولئك على الناس[1] .

فالتصميت ، وهو الصوم عن الكلام ، من فعل أهل الجاهلية . وهو معروف عندهم ، ولعله وقع لهم بتأثرهم بأهل الكتاب .

**التحنث :**

ومن طرق عبادة أهل الجاهلية : التحنث ، أي التعبد والتقرب الى الآلهة ، ومن ذلك حديث ( حكيم بن حزام ) : « أرأيت أموراً كنت اتحنث بها في الجاهلية من صلة رحم وصدقة ، أي أتقرب الى الله تعالى بأفعال في الجاهلية »[2] . وكان رسول الله « يجاور في حراء من كل سنة شهراً ، وكان مما تحنّث به قريش في الجاهلية . والتحنث : التبرر » . « فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاور ذلك الشهر من كل سنة ، يطعم من جاءه من المساكين ، فإذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره من شهره ذلك ، كان أول ما يبدأ به ـ اذا انصرف من جواره ـ الكعبة قبل ان يدخل بيته ، فيطوف بها سبعاً » ، ثم يرجع الى بيته . وذكر ان ذلك الشهر هو شهر رمضان[3] .

**الاختتان :**

ومن شعائر الدين عند الجاهليين الاختتان . وهو من الشعائر الفاشية بينهم ،

---

١ ارشاد الساري ( ٦/١٧٥ وما بعدها ) ، ( انها مصمتة ، انها نذرت أن لا تتكلم . فقال : تكلمي انما هذا من فعل الجاهلية ) ، الاصابة ( ٤/٣١٥ وما بعدها ) ، ( رقم ٥١٣ ، ٥١٥ ) ، اللسان ( ٢/٥٥ ) .

٢ تاج العروس ( ١/٦١٦ ) ، ( حنث ) .

٣ الطبري ( ٢/٣٠٠ ) .

حتى انهم كانوا يعيرون ( الأغرل ) ، وهو الشخص الذي لم يختتن . وكان منهم ولا سيما أهل مكة من يختتن البنات أيضاً ، بقطع ( بظورهن ) . وتقوم بذلك ( الختانة ) ( الخاتنة ) . وقد كانوا يعيرون من تكون أمه ( ختانة ) نساء ، فإذا أرادوا ذم أحد قالوا له : يا ابن مقطعة البظور ، وإن لم تكن أم من يقال له : خاتنة [1] .

وأما الاغتسال من الجنابة وتغسيل الموتى ، فمن السنن التي أقرت في الاسلام ، وقد أشير الى غسل الميت في شعر للأفوه الأوديّ . وأشير الى تكفين الموتى والصلاة عليهم في أشعار منسوبة الى الأعشى وإلى بعض الجاهليين [2] . وورد أن قريشاً كانت تغسل موتاها وتحنطهم ، ولكننا لا نستطيع تعميم هذه الأمور على كل العرب ، ولا الإدعاء بأنها كانت من شعائر الدين عندهم ، لما ذكرته مراراً من اختلاف العرب بأمور دينهم ، وعدم خضوعهم لدين واحد . بل ورد أن المشركين لم يكونوا يغتسلون من الجنابة ، وقد ذهب المفسرون الى أن لفظة (نجس) الواردة في الآية : « يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس ، فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا . وان خفتم عيلة ، فسوف يغنيكم الله من فضله » [3] . فانما قصد بها أجناب ، « سمّاهم بذلك لأنهم يجنبون فلا يغتسلون . فقال : هم نجس ولا يقربوا المسجد الحرام ، لأن الجنب لا ينبغي له أن يدخل المسجد » [4] . ولما نزل الأمر بمنع المشركين من دخول مكة ، « شق ذلك على أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : من يأتينا بطعامنا ومن يأتينا بالمتاع ؟ فنزلت وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء » . و « كان المشركون يجيئون الى البيت ويجيئون معهم بالطعام ويتجرون فيه . فلما نهوا أن يأتوا البيت قال المسلمون من أين لنا طعام ؟ فأنزل الله وان خفتم عيلة ، فسوف يغنيكم الله من فضله » [5] .

والقرابين والنذور وزيارات المعابد والحج ، هي من أبرز الشعائر الدينية عند

---

١ تاج العروس ( ٣/٥٢ ) ، ( بظر ) ، نهاية الارب ( ١٧/١٠٠ ) .
٢ المحبر ( ٣١٩ وما بعدها ) .
٣ سورة التوبة ، الآية ٢٨ .
٤ تفسير الطبري ( ١٠/٧٤ ) .
٥ تفسير الطبري ( ١٠/٧٥ ) .

سواد الناس . وتكاد تكوّن مفهوم الدين عندهم ، وذلك لما فيها من تماس مباشر بأمور حياتهم ومصالحهم . فهم يفعلون ذلك لغايات استرضاء الآلهة والتوسل اليها بأن تعطيها غلة وافرة ومالاً ، فكانوا اذا تقربوا الى صنم أو دعوا ربهم أو أدوا مناسك حجهم ( فلا يسألون ربهم ) إلا متـــاع الدنيا ( فمن الناس من يقول : ربنا آتنا في الدنيا . هب لنا غنماً ، هب لنا إبلاً ) . ( وكانوا يعني في الجاهلية يقفون يعني بعد قضاء مناسكهم ، فيقولون : اللهـم ارزقنا إبلاً ، اللهم ارزقنا غنماً ) ، وفي هؤلاء نزلت الآية : « فمن الناس من يقول : ربنا آتنا في الدنيا، وما له في الآخرة من خلاق »[1] .

والفقر هو الذي حمل هؤلاء على ان يتقربوا الى آلهتهم بالنذور والقرابين وبالحج على فقرهم وجوعهم ، على أمل ان تعطف الآلهة عليهم ، فتمن عليهم بالمـــال واليسر والبركة والصحة ، تماماً كما يفعل شرّاء أوراق ( النصيب ) أو أوراق سباق الخيل من الفقراء والمحتاجين على أمل الربح والكسب .

وهذه النظرة المادية الساذجة،هي التي حملت عوامهم على تهديد آلهتهم وإخبارها انهم سيمتنعون عن تقديم أي نذر أو أداء أيـــة زيارة لها ، إن لم تمنّ عليهـــم وتستجيب لأدعيتهم ، فتنفذ طلباتهم وما طلبوه منها . وهي التي تحملهم بعد ذلك على التراجع عن تهديداتهم هذه ، وعلى الاستغفار واظهار الندم لها ، لما بدر منهم من سوء أدب ، على أمل استرضاؤها من جديد ، بعد أن فشلت وسائل التهديد من تخويف تلك الآلهة .

## الحلال والحرام :

يقول ( ابن عساكر ) في رواية تنسب الى رجل من خثعم : « كانت العرب لا تحرم حلالاً ولا تحل حراماً . وكانوا يعبدون الأوثان ويتحاكمون اليهـا »[2] . ومعنى هذا انهم كانوا يحللون ويحرمون . وأن أمر الحلال والحرام الى رجال الدين منهم ، وهم سدنة الأوثان .

وقـــد تعرض (اليعقوبـي) لموضوع ( أديان العرب ) وشعائرها ، فقال :

---

١ البقرة ، الآية ٢٠٠ ، تفسير الطبري ( ٢/١٧٤ وما بعدها ) .
٢ التاريخ الكبير ، لابن عساكر ( ١/٣١٧ ) .

« وكانت أديان العرب مختلفة بالمجاورات لأهل المال ، والانتقال الى البلدان ، والانتجاعات . فكانت قريش وعامة ولد ( معد ) بن عدنان على بعض دين ابراهيم ، يحجون البيت ويقيمون المناسك ، ويقرون الضيف ويعظمون الأشهر الحرم ، وينكرون الفواحش والتقاطع والتظالم ، ويعاقبون على الجرائم »[1] . فأدخل في الدين أموراً نعدها اليوم من الأعراف وقواعد الأخلاق والسلوك ، وجعلها من سنة ابراهيم ، أي دين العرب القديم قبل افساده بالتعبد للأصنام .

وذكر ( السكري ) ، أن العرب كانت « دون من سواها من الأمم . تصنع عشرة أشياء منها : في الرأس خمسة . وهي المضمضة والاستنشاق والسواك والفرق وقص الشارب . وفي الجسد خمسة . هي : الختانة وحلق العانة ونتف الأبطين ، وتقليم الأظفار والاستنجاء . خصت بهذا العرب ، دون الأمم »[2] . فهذه الأمور العشرة هي من شعائر العرب في نظر ( السكري ) . وهي شعائر ، لا يمكن أن نجاريه في رأيه ، فنقول إنها كانت في جميع العرب ، وإنها كانت فيهم خاصة ، دون غيرهم من الأمم وفي كلام ( السكري ) أمور كثيرة لا يمكن التسليم بصحتها بل نجده هو يناقض نفسه في مواضع أخرى من كتابه . من ذلك قوله : «وكانوا يؤمنون بالحساب »[3] « ولا يأكلون الميتة »[4] ، فعمم رأيه ، وجعله شاملاً كل العرب ، بينما هو رأي طائفة من الجاهليين ، وليس جميع أهل الجاهلية . وللقرآن الكريم دليل ذلك ، فقد حمل عليهم لنكرانهم البعث والحساب، وحرم على المسلمين أكل لحم الميتة . « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير »[5] . وكانوا يأكلونها في الجاهلية .

وورد أن ممن حرم أكل الميتة على نفسه ( حارثة بن أوس ) الكلابي ، وهو جاهلي ، يقول :

لا آكل الميتة ما عمرت نفسي وإن أبرح املاقي
والعقد لا أنقض منه القوى حتى يواري القبر أطباقي[6]

---

١ اليعقوبي ( ١/٢٢٤ ) ، ( أديان العرب ) .
٢ المحبر ( ٣٢٩ ) .
٣ المحبر ( ٣٢٢ ) .
٤ المحبر ( ٣٢٩ ) .
٥ المائدة ، الآية رقم ٣ ، تفسير الطبري ( ٦/٤٤ ) ، روح المعاني ( ٦/٥١ ) .
٦ المحبر ( ٣٢٩ ) .

## الفصل الثاني والسبعون

# الحـج والعمرة

والحج الذهاب الى الأماكن المقدسة في أزمنة موقوتة ، للتقرب الى الآلهة،والى صاحب ذلك الموضع المقدس . وتقابل هذه الكلمة Pilgrinage في الانكليزية [1] . والحج بهذا المعنى معروف في جميع الأديان تقريباً، وهو من الشعائر الدينية القديمة عند الساميين .

وكلمة (حجّ) من الكلمات السامية الأصيلة العتيقـة ، وقد وردت في كتابات مختلف الشعوب المنسوبة الى بني سام[2] . كما وردت في مواضع من أسفار التوراة[3] . وهي تعني قصد مكان مقدس وزيارته .

وفي روع الشعوب السامية القديمة وغيرها أن الأرباب لها بيوت تستقر فيها ، قيل لها في الأزمنة القديمة ( بيوت الآلهة ) . ولذلك يرى المتعبدون والمتقون شدّ الرحال اليها ، للتبرك بها وللتقرب اليها ، وذلك في أوقات تحـدد وتثبت ، وفي أيام تعين تكون أياماً حرمـاً لكونها أياماً دينية ينصرف فيها الانسان إلى آلهته ، ولذلك تعدّ أعياداً ، يعمد فيها الناس ، بعد اقامتهم الشعائر الدينيـة المفروضة

---

١ تفسير الطبري ( ٢/٤٤ ) ، ( البابي ) ، اللسان ( ٢/٢٢٦ ) ، الاقناع (١/٣٣٤)، الكشاف ، للزمخشري ( ١/٣٨٩ وما بعدها ) ،
Ency. Brita., Vol., 17, p. 925, Ency. Religl., Vol., 10, p. 10.

٢ تاج العروس ( ٢/١٦ وما بعدها ) ، اللسان ( ٣/٤٨ وما بعدها ) ،
Ency. Religl., 10, p. 23.

٣ Shorter Ency. of Islam, p. 123.

وبعد أدائهم القواعد المرسومة ، الى الفرح والسرور والرقص ، ليدخلوا السرور الى قلوب الأرباب . ففي الحج إذن مناسك وشعائر دينية وعبادة تؤدى ، واجتماع وسرور وحبور .

ويكون الحج بأدعية وبمخاطبة الى الآلهة وبتوسلات لتتقبل حج ذلك الشخص الذي قصدها تقرباً اليهـا . وهذا هو الشائع والمعروف عن الحج ، غير أن من الجاهليين من كان يحج حجاً مصمتاً ، أي دون كلام ، فلا يتكلم الحاج طيلة أيام حجه . وقد كان ذلك من عمل الجاهلية [1] .

وقد ميّز الشهر الذي يقع فيه الحج عن الأشهر الأخرى بتسميته بـ ( شهر ذي الحجة ) وبـ ( شهر الحج ) . وذلك لوقوع الحج فيه . وهذه التسمية المعروفة حتى الآن في التقويم الهجري ، هي تسمية قديمة ، كانت معروفة في الجاهلية ، وردت في نصوص الجاهلية . فبين أسماء الأشهر الواردة في نصوص المسند اسم شهر يعرف بـ ( ذ حجتن ) أي ( ذي الحجة ) ، ويدل ذلك على أنه الشهر الذي يحج فيه . وقد وردت كلمة ( حج ) في نصوص المسند كذلك [2] .

وقد ذكر ( أفيفانيوس ) Epiphanius ان من أسماء الأشهر عند العرب شهراً اسمه Aggathalbaeith ( حج البيت ) [3] ، أراد به شهر ( ذي الحجة ) . والعرب الذين قصدهم هذا الكاتب هم عرب ( الكورة العربية ) ، ومعنى هذا ان العرب الشماليين كان لهم شهر يسمى بـ ( ذي الحجة ) كذلك [4] .

ولفظة Aggathalbaeith ، هي لفظة عربية النجار حرفت على لسان (أفيفانيوس) وقومه ، لتناسب منطقهم ، فصارت على هذا النحو ، وهي من كلمتين عربيتين في الأصل ، هما ( حجة البيت ) ، أو ( حج البيت ) . ويكون نص (أفيفانوس) هذا من النصوص المهمة بالنسبة لنا ، التي تساعدنا في الرجوع بتأريخ استعمال هذا المصطلح الى ايامه ، ولا بد وان يكون ذلك المصطلح قد استعمل قبل أيام ذلك الكاتب ولا شك .

ويقع شهر الحج ( ذي الحجة ) — على رواية ( افيفانيوس ) — في ( تشرين

---

١ ارشاد الساري ( ٦/١٧٥ ) .
٢ D. Nielsen, Mondreligion, S. 86, Glaser 1054, Wiener Mus., No. 7.
٣ Shorter Ency. of Islam, p. 124.
٤ Reste, S. 85, Ency. Religi., 10, p. 10.

الثاني )[1] ، وأشار ( بروكوبيوس ) الى ان العـــرب كانوا قد جعلوا شهرين من السنة حرماً لآلهتهم لا يغزون فيها ولا يهاجم بعضهم بعضاً[2] ، كما أشار (فوتيوس) الى الأشهر الحرم عند العرب[3] . والشهران اللذان أشار اليهما ( بروكوبيوس ) ، هما شهرا ذو القعدة وذو الحجة في نظر ( ونكلر ) ، وهما يمثلان – في رأيه – ( جولاي ) و ( أغسطس ) أي تموز وآب[4] .

إننا لا نستطيع في الوقت الحاضر أن نقول إن شهر ( ذ حجتن ) المذكور في المسند ، أو Aggathalbaeith الذي ذكره (افيفانيوس) ، هو شهر ( ذو الحجة) الشهر المعروف الذي كان من شهور أهل مكة . فمن الجائز أن يكون حج العرب الشماليين أو حج العرب الجنوبيين في وقت آخر يختلف عن وقت حج أهل مكة، فيكون شهرهم المذكور شهر آخر يقع في موسم آخر من السنة ، ولا ينطبق مع شهر ( ذي الحجة ) .

ويرى ( ونكلر ) أن ما ذكره ( فوتيوس ) من احتفال العرب مرتـــين في السنة بالحج الى معبدهم المقدس : مرة في وسط الربيع عند اقتران الشمس ببرج الثور ، وذلك لمدة شهر واحد ، ومرة أخرى في الصيف وذلك لمـــدة شهرين ، إنما يراد بذلك شهر رمضان لاقتران الشمس فيه ببرج الثور . وأما الشهران الآخران فهما ذو القعدة وذو الحجة[5] .

ويظهر من غربلـــة ما أورده أهـــل الأخبار من روايات عن موسم الحج في الجاهلية ، أن الحج الى مكة كان في موسم ثابت ، هو الربيع على رأي كثـــير من المستشرقين ، أو الخريف على رأي ( ولهوزن )[6] . وذلك بسبب مـــا ذكر عن النسيء ومن رغبة قريش وغيرها من أن يكون في وقت واحد ، كما تحدثت عن ذلك في باب النسيء . وقـــد ذهب ( ولهوزن ) الى أن ( الشهر الحرام ) المذكور في القرآن الكريم ، هو ( شهر الحج ) ، وهو الشهر الأول من السنة،

---

١ Reste, S. 100, Epiphanius, Haer., 51, 24.

٢ Procopius, II, 16.

٣ Reste, 101.

٤ Winekler, ALF. II, Reihe, Ibd., S. 336.

٥ Winckler, ALF., II, Reihe, Ibd., S. 336.

٦ Shorter, p. 124.

أي شهر محرم ، بينما يرى المفسرون أنه رجب ، أو ذو القعدة أو ذو الحجة[1] . والأصح أنه أي شهر من الأشهر الحرم .

وقد ورد في القرآن الكريم : « الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج »[2] . وقد قال (الطبري) : « اختلف أهل التأويل في قوله : الحج أشهر معلومات . فقال بعضهم : يعني بالأشهر المعلومات : شوالاً وذو القعدة ، وعشراً من ذي الحجة »، « جعلهن الله سبحانه للحج ، وسائر الشهور للعمرة ، فلا يصلح ان يحرم أحد بالحج إلا في أشهر الحج . والعمرة يحرم بها في كل شهر »[3] ، وذكر ان الله لم يسمّ أشهر الحج في كتابه ، لأنها كانت معلومة عندهم[4] ، وان المراد بذلك انه لا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج ، فإن من سنّة الحج أن يحرم بالحج في أشهر الحج[5] . وبناءً على ذلك ، فلا يكون المراد من الآية ان الحج يقع في كل وقت من أوقات هذه الأشهر . وانما هو في وقت معين ، ولكن الإحرام للحج ، أي العزم عليه يكون في أي وقت من هذه الأشهر المذكورة ، وليس في الأشهر الأخرى . وذكر ( المسعودي ) ان أشهر الحج : شوال ، وذو القعدة ، وعشر من ذي الحجة[6] .

ومعنى ما تقدم ان الجاهليين كانوا يتهيأون للحج من دخول شهر شوال ، فيصلحون أمورهم ، ويحضرون ما يحتاجون اليه من لوازم السفر، فإذا أراد أحدهم تجارة وكسباً ذهب الى الأسواق ، حتى يهل شهر ذو الحجة ، وإن لم يرد تجارة، ذهب في أي وقت يراه مناسباً له . فبدء موسم الحج اذن والتهيؤ له يكون من شهر شوال .

ويظهر من شعر نسب الى ( عوف بن الأحوص ) أنه سمى شهر ( ذي الحجة) ( شهر بني أميّة ) . إذ يقول :

وإني والذي حجت قريش محارمه ومـا جمعت حراء
وشهر بني أميّة والهدايـا إذا حبست مضرجها الدماء[7]

---

١ Shorter, p. 409.
٢ البقرة ، الآية ١٩٧ .
٣ تفسير الطبرى ( ٢/١٠٥ ) .
٤ القرطبى ، الجامع ( ٢/٤٠٥ ) .
٥ تفسير الطبرسى ( الجزء الثـاني ) ( ص ٢٩٢ وما بعدها ) ، تفسير ابن كثـير ( ١/٢٣٥ ) .
٦ مروج ( ٢/١٨٩ ) ، الكشاف ( ١/٢٥٤ ) .
٧ شرح ديوان لبيد ( ٢١ ) .

وقد ذهب (ولهوزن) وجماعة آخرون من المستشرقين الى تعدد بيوت الأرباب التي كان يحج اليها الجاهليون في شهر (ذي الحجة) والى عدم حصر الحج عند الجاهليين بموضع واحد[1]. ومعنى هذا أن حج أهل الجاهلية لم يكن الى (مكة) وحدها، بل كان الى محجات عديدة أخرى. بحيث حج كل قوم الى (البيت) الذي قدسوه وكانوا يتقربون اليه ووضعوا أصنامهم فيه. ويتفق هذا الرأي مع ما يراه أهل الأخبار من وجود بيوت للأصنام، وكان الناس يزورونها ويتقربون اليها ويذبحون عند أصنامها ويطوفون حولها ويلبّون تلبية الصنم الذي يطوفون حوله.

والحج الى مكة والى البيوت المقدسة الأخرى، مثل بيت اللات في الطائف وبيت العُزى على مقربة من عرفات وبيت مناة وبيت ذي الخلصة وبيت نجران وبقية البيوت الجاهلية المعظمة، إنما هو أعياد يجتمع الناس فيها للاحتفال معاً بتلك الأيام وهم بذلك يدخلون السرور على أنفسهم وعلى أنفس آلهتهم بحسب اعتقادهم وتقترن هذه الاحتفالات بذبح الحيوانات، كل يذبح على قدر طاقته ومكانته، فيأكل منها في ذلك اليوم من لم يتمكن من الحصول على اللحم في أثناء السنة لفقره، فهي أيام يجد فيها الفقراء لذة ومتعة وعبادة.

ويذكر أهل الأخبار أن الحج الى مكة كان في الجاهلية كذلك، وأن الجاهليين كانوا يحجون الى البيت منذ يوم تأسيسه، وأنهم كانوا يقصدون مكة أفواجاً من كل مكان. وأن ملوكهم كانوا يتقربون الى (بيت الله) بالهدايا والنذور، وأن منهم من حج اليه. وأن الناس كانوا يقسمون بالبيت الحرام لما له من مكانة في نفوس جميع الجاهليين.

غير اننا نجد في روايات بعض أهل الأخبار ما ينافي تعظيم كل العرب للبيت وحجهم اليه واحترامهم للحرم وللأشهر الحرم. فقد ورد ان من العرب من (كان لا يرعى للحرم ولا للأشهر الحرام حرمة)، ومنهم (خثعم) و (طيء)[2]، وأحياء من قضاعة ويشكر والحارث بن كعب[3]. وورد ان ذؤبان العرب وصعاليكها

---

١ Reste, S. 84.

٢ تاج العروس (٨/٢٤١)، (حرم).

٣ الجاحظ. الحيوان (٧/٢١٦ وما بعدها)، النجيرمي، أيمان العرب (١٢)، المحبر (٣١٩).

وأصحاب التطاول ، كانوا لا يؤمنون على الحرم ، ولا يرون للحرم حرمة ، ولا للشهر الحرام قدراً . وقد كانوا خطراً يهدد البيت وأهله لذلك، ألف (هاشم) بين قريش وسادات القبائل ألفة ليحمي بهم البيت . قال ( الجاحظ ) في تفسيره للإيلاف : « وقد فسره قوم بغير ذلك . قالوا : إن هاشماً جعل على رؤوس القبائل ضرائب يؤدونها اليه ليحمي بها أهل مكة . فإن ذؤبان العرب وصعاليك الأحياء وأصحاب التطاول ، كانوا لا يؤمنون على الحرم ، لا سيما وناس من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة ولا للشهر الحرام قدراً ، مثل طيء وخثعم وقضاعة وبعض بلحارث بن كعب »[1] . ورؤوس القبائل الذين جعل هاشم عليهم ضرائب يؤدونها اليه ليحمي بها أهل مكة ، هم رؤساء مكة ولا شك ، ومن كانت له مصلحة تجارية مباشرة بمكة ، فكان يأخذ من هؤلاء ما يأخذه ثم يجمعه ويعطيه الى ( المؤلفة قلوبهم ) من سادات القبائل النازلين حول مكة وعلى مقربة منها ، كما ألف بين مكة وبين سادات القبائل الذين تمر قوافل مكة بأرضهم في طريقها الى الشأم أو العراق أو اليمن ، بروابط ( الإيلاف ) ، أي العقود التي عقدها معهم ، باعطائهم جعلاً معيناً ، أو حقوقاً تبين وتكتب ، أو ربحاً يدفع مع رؤوس المال عن البضائع التي تدفع لقريش ، لتقوم قوافلها ببيعها في الأسواق. وبذلك أمنت مكة وسلمت تجارتها ، ودانت بعض القبائل بدين قريش في الأشهر الحرم ، لما فيها من فائدة ومنفعة مادية بينة ظاهرة ، فاحترمتها، وبهذا أمن الحج واستراح التجار من قريش ومن غيرهم في ذهابهم بحرية وبأمان في هذه الشهور الى الأسواق .

وليست لدينا ويا للأسف أخبار مدوّنة عن مناسك الحج وشعائره عند الجاهليين. لعدم ورود شيء من ذلك في النصوص الواردة الينا . ما خلا الحج الى ( بيت الله الحرام ) بمكة ، حيث حفظت الموارد الإسلامية لنا شيئاً من ذلك ، بسبب فرض الحج في الاسلام ، واقرار الاسلام لبعض شعائره التي لم تتعارض مع مبادئه ولولا ذلك لما عرفنا شيئاً عن الحج الى مكة عند الجاهليين . ولهذا فسأقتصر في كلامي هنا على الحج الى مكة فقط . إلا إذا وجدت خبراً أو نصاً عن حج غير

---

١ رسائل الجاحظ (٧٠) ، Kister, p .119, 143. ، طبقات الشعراء ، لابن سلام (٦١) ، الثعالبي ، المضاف والمنسوب (٨٩) ، النقائض ( ٢/٦٧١ ) ، ابن هشام ( ١/٦٠٣ ) ، الأزمنة والامكنة ، للمرزوقي ( ٢/١٦٦ ) ، الاغاني ( ٢١/٤٢ ) .

أهل مكة من الجاهليين الى مكة أو الى بيوت أخرى فسأتكلم عنه حينئذ .

ويظهر من غربلة ما جاء في روايات أهل الأخبار عن ( حج البيت ) ، أن مناسك الحج لم تكن واحدة بالنسبة للحجاج ، بل كانت تختلف باختلاف القبائل. فقد انفردت ( قريش ) بأمور من أمور الحج ، واعتبرتها من مناسك حجها ، وانفردت قبائل أخرى بمناسك لم تعتبرها ( قريش ) موجبة لها ، ولم تعمل بها ووقفت قريش في مواقف ، اعتبرتها مواقف خاصة بها . وأوجبت على من يفد الى مكة للحج ، مناسك معينة سنتحدث عنها . فلما ظهر الاسلام وحدد مناسك الحج وثبتها . وأوجب على كل مسلم اتباعها .

ويبدأ الحج في الاسلام بلبس (الاحرام) حين بلوغه ( الميقات ) المخصص للجهة التي جاء منها . و ( ميقات ) الحج موضع احرامهم[1] . وقد عين الرسول أكثر ( المواقيت ) وثبتها ، فجعل ( ذا الحليفة ) ميقاتاً لأهل ( يثرب ) ، و ( الجحفة ) ميقاتاً لأهل الشأم ، و ( يلملم ) ميقاتاً لأهل اليمن ، و ( قرن المنازل ) لأهل نجد ومن يأتي من الشرق نحو الحجاز . وأما ( ذات عرق ) ، فميقات أهل العراق ، قيل ان الرسول ثبته ، وقيل إنه ثبت بعد فتح العراق . أما أهل مكة ، فكانوا يحرمون من بيوتهم[2] . ويجوز أن تكون هذه المواقيت من مواقيت أهل الجاهلية كذلك ، وقد ثبتها الاسلام .

ويستعد الجاهليون للحج عند حضورهم موسم ( سوق عكاظ ) . فإذا انتهت ايام السوق ، وأراد منهم من أراد الحج ، ذهب الى ( مجنة ) ، فأقام بها الى هلال ذي الحجة ، ثم ارتحل عنها الى ( ذي المجاز ) ، ومنه الى ( عرفة ) ، فإذا كان يوم التروية ، تزودوا بالماء وارتفعوا الى عرفة. هذا بالنسبة الى التجار، الذين كانوا يأتون هذه المواضع للتجارة . أما بالنسبة الى غيرهم ، فقد كانوا يقصدون الحج في أي وقت شاءوا ، ثم يذهبون الى ( عرفة ) للوقوف موقف عرفة ، يقصدها ( الحلة ) ، أما ( الحمس ) فيقفون بـ ( نمرة ) ، ثم يلتقون جميعاً بمزدلفة للإفاضة[3] .

---

١ تاج العروس ( ١/٥٩٤ ) ، (وقت) .
٢ شرح النووي على صحيح مسلم ( ٥/١٩٠ وما بعدها ) ، ( حاشية على ارشاد الساري ) ، ارشاد الساري ( ٣/٩٧ وما بعدها ) .
٣ الازرقي ، أخبار مكة ( ١/١٢١ وما بعدها ) .

ويبدأ حج أهل الجاهلية بالإهلال . فكانوا يهلّون عند أصنامهم ، ويلبون اليها ، فإذا انتهوا من ذلك قدموا مكة ، فكان الأنصار مثلاً يهلون لمناة في معبده ، أي انهم كانوا يغادرون (يثرب) الى معبد الصنم ، فيكونون فيه لمراقبة هلال ذي الحجة ، فإذا أهلّوا لبّوا ، ثم يسير منهم يسير الى مكة ، لحج البيت[1] .

والطواف بالبيوت وبالأصنام ، ركن من أركان الحج ، ومنسك من مناسكه . وكانوا يفعلونه كلما دخلوا البيت الحرام ، فإذا دخل أحدهم الحرم ، واذا سافر أو عاد من سفر ، فأول ما كان يفعله الطواف بالبيت . وقد فعل غيرهم فعل قريش ببيوت أصنامهم ، إذ كانوا يطوفون حولها ، كالذي كان يفعله أهل يثرب من طوافهم بـ ( مناة )[2] .

وقد ذكر الأخباريون أن أهل الجاهلية كانوا يطوفون حول الرجمات ، وهي حجارة تجمع فتكون على شبه بيت مرتفع كالمنارة ، ويقال لها الرجمة[3] . وكان الجاهليون يطوفون حول الأصنام والأنصاب كذلك . وذكر ( نيلوس ) Nilus أن الأعراب كانوا يطوفون حول الذبيحة التي يقدمونها قرباناً للآلهة[4] . وكانوا يطوفون حول القبور أيضاً : قبور السادات والأشراف من الناس .

وطافوا حول ( الأنصاب ) ، ويسمون طوافهم بها ( الدوار ) . فكانوا يطوفون حول حجر ينصبونه طوافهم بالبيت ، وسمّوا تلك الأحجار الأنصاب[5] .

وللطواف كلمة أخرى هي ( الدوار ) من ( دار ) حول موضع من المواضع ، وطاف حوله الشيء ، واذا عاد الى الموضع الذي ابتدأ منه . ونجد هذا المعنى في شعر الشاعرين الجاهليين : امرىء القيس ، وعنترة بن شدّاد العَبْسي[6] . وقد ذكر علماء اللغة أن ( الدوار ) صنم كانت العرب تنصبه ، يجعلون موضعاً حوله يدورون به ، واسم ذلك الصنم والموضع الدوار . ومنه قول امرىء القيس :

فَعَنّ لنا سِربٌ كأن نِعاجه عذارى دوار ، في مُلاءٍ مذيل[7]

---

١ صحيح مسلم ( ٤/٦٨ وما بعدها ) .
٢ شرح صحيح مسلم ، للنووي ( ٨/٢١ وما بعدها ) .
٣ تاج العروس ( ٣/٤٢٢ وما بعدها ) ، « عمر » اللسان ( ٦/٢٨٣ ) .
٤ Reste, S. 108.
٥ الاصنام ( ٣٣ ، ٤٢ ) .
٦ اللسان ( ٤/٢٩٦ وما بعدها ) . Shorter Ency. of Islam, p. 585.
٧ اللسان ( ٤/٢٩٧ وما بعدها ) .

وقيل إنهم كانوا يدورون حوله أسابيع كما يطاف بالكعبة . وقيل حجارة كانوا يطوفون حولها تشبهاً بالكعبة[1] .

وتلعب عبادة الحجر دوراً بارزاً في ( الدوار ) . فقد كان قوم من أهل الجاهلية يقيمون الأحجار ، ثم يطوفون حولها ، يتخذون الدوار عبادة لهم . وقد تكون الأحجار أصناماً ، وقد تكون حجارة تنتقى فيطاف حولها . و « عن أبي رجاء العطاردي ، قال : لما بعث النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فسمعنا به لحقنا بمسيلمة الكذاب ، فلحقنا بالنار ، وكنا نعبد الحجر في الجاهلية، فإذا وجدنا حجراً هو أحسن منه ، ألقينا ذلك وأخذناه ، فإذا لم نجد حجراً جمعنا حثية من تراب ثم جئنا بغنم فحلبناها عليه ثم طفنا به . وكنا اذا دخل رجب قلنا جاء منصل الأسنة ، فلا ندع سهماً فيه حديدة ، ولا حديدة في رمح إلا نزعناها وألقيناها »[2] .

ويلاحظ ان الجاهليين كانوا يقيمون وزناً للحليب في أمور العبادة ، فقد كانوا يسكبونه على الأصنام ، كما رأينا في باب الأصنام، وفي القصة المتقدمة . ويلاحظ ان الرواية قد خصصت حليب الغنم ، ولم تشر الى حليب الإبل ، أو حليب أية ماشية أخرى، مما قد يدل على وجود رابطة بين هذا الحليب وبين ( الدوار ) وان له علاقة بالأساطير ، وذلك في حالة صدق الخبر بالطبع .

والطواف من أهم طرق التعبد والتقرب الى الآلهة . يؤدونه كما يؤدون الشعائر الدينية المهمة مثل الصلاة ، وليس له وقت معلوم . ولا يختص ذلك بمعبد معين ولا بموسم خاص مثل موسم الحج ، بل يؤدونه كلما دخلوا معبداً فيه صنم ، أو كعبة أو ضريح ، فهم يطوفون سبعة أشواط حول الأضرحة أيضاً : كما يطوفون حول الذبائح المقدمة الى الآلهة . فالطواف ، إذن من الشعائر الدينية التي كان لها شأن بارز عند الجاهليين .

وكانوا يطوفون بالبيت في نعالهم ، لا يطأون أرض المسجد تعظيماً له[3] . إلا أن يكون الحاج فقيراً حافياً ، فقد كان منهم من لا يملك نعالاً ولا خفاً ولا

---

١ تاج العروس ( ٣/٢١٦ ) ، ( دار ) .
٢ زاد المعاد ( ٣/٣٢ ) ، ( فصل في قدوم وفد بني حنيفة ) ، ارشاد الساري ( ٦/٤٣٥ ) ، ( باب وفد بني حنيفة ) .
٣ اليعقوبي ( ١/٢٢٦ ) ، ( أديان العرب ) .

سائر ما يلبس بالرجل لفقره . وذكر أن رسول الله قال : « من لم يجد نعلين، فليلبس خفين »[1] . وقد ذكر ( السكري ) ، أن ( الحمس ) كانوا « لا يطوفون بالبيت إلا في حـذائهم وثيابهم ، ولا يمسون المسد بأقدامهم تعظيماً لبقعته »[2] . وذكر أن ( الحلـة ) كانوا على العكس منهم . « فإذا دخلوا مكة بعد فراغهم تصدقوا بكل حذاء وكل ثوب لهم ، ثم استكروا من ثياب الحمس تنزيهاً للكعبة أن يطوفوا حولها إلا في ثياب جدد . ولا يجعلون بينهم وبين الكعبة حذاء يباشرونها بأقدامهم »[3] .

وكانوا يدخلون جوف الكعبة بنعالهم،لا يتأثمون من ذلك . وذكر أن ( الوليد ابن المغيرة » كان أول من خلع نعليه لدخول الكعبة ، تعظيماً لها ، فخلع الناس نعالهم[4] .

وعدّة الطواف حول الكعبة عند الجاهليين سبعة أشواط ، ولا أستبعد ان يكون هذا العدد ثابتاً بالنسبة الى الطواف حول البيوت الأخرى أوحول الرجمات والأنصاب والقبور أيضاً . فقد كان الطواف سبعة أشواط مقرراً عنـد غير العرب أيضاً ، وقد ذكر في ( التوراة ) ، اذ كان العبرانيون يمارسونه[5] . والعدد سبعة هو من الأعداد المقدسة المهمة عند الشعوب القديمة . ولهذا أرى ان غير قريش من العرب كانوا يطوفون هذا الطواف أيضاً حول محجّاتهم في ذاك الوقت .

وقد ورد أن من الجاهليين من كان يطوف ويده مربوطة بيـد انسان آخر ، بحبل أو بسير ، أو بزمـام أو منديل ، أو خيط أو أي شيء آخر ، يفعلونه نذراً،أو حتى لا يفترقا . وقد نهى عن ذلك في الإسلام . فقد روي أن الرسول رأى أحدهما وقد فعل ذلك ، فقطع بيده ذلك الرباط[6] .

---

١ صحيح مسلم ( ٢/٤ وما بعدها ) ، ( كتاب الحج ) ، ارشاد الساري ( ٣١٣/٣ وما بعدها ) ، ( باب لبس الخفين للمحرم اذا لم يجد النعلين ) .

٢ المحبر ( ١٨٠ ) .

٣ المحبر ( ١٨٠ وما بعدها ) .

٤ ابن رستة ، الاعلاق (١٩١) .

٥ Shorter Ency. of Islam, p. 585.

٦ صحيح البخاري ( ١٧٩/٢ ) ، ارشاد الساري ( ١٧٣/٣ وما بعدها ) ، ( باب الكلام في الطواف ) .

## الحمس والطلس والحلة :

والأخباريون يذكرون ان الطائفين بالبيت كانوا على صنفين : صنف يطوف عرياناً ، وصنف يطوف في ثيابه . ويعرف من يطوف بالبيت عرياناً بـ (الحِلة). أما الذين يطوف بثيابهم ، فيعرفون بـ (الحمس)[1] . وأضاف بعض أهل الأخبار الى هذين الصنفين ، صنفاً ثالثاً قالوا له : ( الطلس )[2] .

وقبائل الحلة من العرب : تميم بن مرّ كلّها غير يربوع ، ومازن ، وضبة، وحميس ، وظاعنة ، والغوث بن مر،وقيس عيلان بأسرها ما خلا ثقيفاً وعدوان ، وعامر بن صعصعة ، وربيعة بن نزار كلها. وقضاعة كلها ما خلا علافاً وجناباً . والأنصار وخثعم ، وبجيلة ، وبكر بن عبد مناة بن كنانة ، وهذيل بن مدركة ، وأسد وطيء ، وبارق . وقد ذكر هذه الأسماء ( محمد بن حبيب )[3] . وذكرها ( اليعقوبي ) على هذا النحو : تميم وضبة ومزينة والرباب وعكل وثور وقيس عيلان كلها ما خلا عدوان وثقيف وعامر بن صعصعة وربيعة بن نزار كلها ، وقضاعة وحضرموت وعك وقبائل من الأزد[4] .

وهم يذكرون ان (الحِلة) هم ما عدا الحمس وانهم كانوا يطوفون عراة إن لم يجدوا ثياب أحمس،وكانوا يقصدون من طرحهم ثيابهم طرحهم ذنوبهم معها[5] . ويذكرون انهم كانوا يقولون: «لا نطوف في الثياب التي قارفنا فيها الذنوب» ، « ولا نعبد الله في ثياب أذنبنا فيها » ، « ولا نطوف في ثياب عصينا الله فيها» ، وذكر انهم « كانوا اذا طافوا خلعوا ثيابهم وقالوا لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها ، فيلقونها عنهم ، ويسمون ذلك الثوب اللقي »[6] . وفي رواية ان من يطوف

---

١ تفسير الطبري ( ٢/١٧٠ ) ، البخاري ، ( كتاب الحج ، الباب ٩١ ) ، ( كتاب التفسير، الباب ٣٥ ) ، البلدان (٤/٦٢٠ وما بعدها ) ، الازرقي ( ١/١١٣ ) ، اليعقوبي ( ١/٢٢٦ ) ، ( النجف ١٩٦٤ م ) ، المحبر (١٧٨) ، ابن هشام ( ١/٢١٢ ) ، الكشاف ( ١/٢٥٦ ) ، شرح حماسة أبي تمام ، للتبريزي ( ١/٧ )، شرح المفضليات ، للانباري (٢٥٩) ، ابن رشيق ، العمدة ( ٢/١٨٨ ) ، ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان (١٨) .

٢ المحبر ( ١٧٨ وما بعدها ) .

٣ المحبر ( ١٧٩ ) .

٤ اليعقوبي ( ١/٢٢٦ ) ، ( النجف ١٩٦٤ م ) .

٥ الروض الانف ( ١/١٣٣ ) .

٦ الازرقي ( ١/١١٧ ) ، اللسان ( ٢٠/١٢٢ ) ، الكشاف ( ٢/٦٠ ) .

من ( الحلة ) بثيابه يضرب وتنتزع منه ثيابه[1] . فجعلت هذه الرواية خلع الثياب واجب على الحلة محتم عليهم ، لا يجوز مخالفته ، وإلا تعرض المخالف للعقاب .

وتخضع النساء لهذه القاعدة أيضاً اذا كنّ من الحلة ، فكانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة[2] . وقيل تضع احداهن ثيابها كلها إلا درعاً مفرجاً عليها ثم تطوف فيه[3] . وقيل كانت تقف على باب المسجد ، فتقول : من يعير مصوناً؟ من يعير ثوباً ؟ من يعيرني تطوافاً ؟ فإن أعارها أحد ثوباً أو كراه لها طافت به ، وإلا طافت عريانة كما يطوف الرجال على حد زعم الروايات . لا يستر عورتها لباس أو قماش ، بل كانت تضع احدى يديها على قبلها واليد الأخرى على دبرها وتطوف حول البيت على هذا النحو . وهم يروون في ذلك بيتاً ينسبونه لامرأة جميلة ، قيل هي : ضباعة بنت عامر بن صعصعة ، طافت بالبيت عريانة وهي تقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله  وما بدا منه فلا أحله[4]

وشاءت بعض الروايات أن تخفف من وقع طواف النساء على هذه الصورة في النفوس ، فذكرت ان بعض النساء كانت تتخذ سيوراً فتعلقها في حقوتها تستتر بها[5] ، وذكرت روايات أخرى انهن كن يطفن ليلاً ، وبذلك يتخلصن من وقوع سترهن في أعين الرجال ، لأن طواف الرجال في النهار[6] .

وقد وصفت بعض الروايات طواف العريان فقالت : « يبدأ بإساف فيستلمه، ثم يستلم الركن الأسود ، ثم يأخذ عن يمينه ويطوف ويجعل الكعبة عن يمينه، فإذا ختم طوافه سبعاً ، استلم الركن ثم استلم نائلة فيختم بها طوافه ، ثم يخرج فيجد ثيابه كما تركها لم تمس ، فيأخذها فيلبسها ولا يعود الى الطواف بعد ذلك

---

١ الكشاف ( ٢/٦٠ ) ، الازرقي ( ١/١١٢ وما بعدها ) .
٢ صحيح مسلم ( ١٨/١٦٢ ) .
٣ سيرة ابن هشام ( ١/١٣٣ ) « حاشية على الروض » .
٤ الازرقي ( ١/١١٥ ، ١١٧ ) ، اللسان ( ١١/١٢٩ ) ، « طوف » الروض ( ١/١٣٣)، صحيح مسلم ( ١٨/١٦٢ ) ، تفسير الطبري ( ٨/١١٨ ) ، تفسير القرطبي ، الجامع ( ٧/١٨٩ ) .
٥ الازرقي ( ١/١١٧ ) .
٦ الازرقي ( ١/١١٧ ) ، الطبرسي ( ٣/٤١٤ ) .

عرياناً »[1] . هذا هو طواف أهل الجاهلية قبل الاسلام على رواية أهل الأخبار .

وجاء في بعض الروايات : « كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلا الحمس، والحمس قريش وما ولدت ، كانوا يطوفون بالبيت عراة،إلا ان تعطيهم الحمس ثياباً ، فيعطي الرجال الرجال والنساء النساء » ، « فمن لم يكن له من العرب صديق بمكة يعيره ثوباً ولا يسار يستأجر به ، كان بين أحد أمرين : إما ان يطوف بالبيت عرياناً ، وإما ان يطوف في ثيابه ، فإذا فرغ من طوافه ألقى ثوبه عنه ، فلم يمسه أحد . وكان ذلك الثوب يسمى اللقى »[2] . وجاء أيضاً ان ( الحمس ) كانوا « يقولون نحن أهل الحرم ، فلا ينبغي لأحد من العرب ان يطوف إلا في ثيابنا ، ولا يأكل اذا دخل أرضنا إلا من طعامنا »[3] .

وورد انهم « كانوا يطوفون بالبيت عراة،وهم مشبكون بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون »[4] .

ويذكر بعض أهل الأخبار ان طواف الطائف عرياناً انما يكون للمرة الأولى ، فإذا عاد فطاف بعد ذلك ، لبس ملابسه ، وطاف بملابسه كالحمس لا يلقيها خارج حدود الحرم .

والتفسير الذي ذكره الأخباريون لطواف العري ، هو رغبة الطائف حول البيت ان يكون نقياً متحرراً عن ذنوبه وآثامه بعيداً عن الأدران . واعتقاده ان طوافه بملابسه طواف غير صحيح ، لأن ملابسه شاركته في آثامه ، فهي ملوثة نجسة ، ولذلك هاب من لبسها ، فإذا أتم طوافه تركها في موضعها،ولبس ملابس أخرى جديدة[5] .

ويذكر الأخباريون ان تلك الملابس التي يلقيها المحرم تبقى في مكانها،لا يمسها أحد ، ولا يحركها حتى تبلى من وطء الأقدام ومن الشمس والرياح . ويقال لهذه الثياب التي تطرح بعد الطواف ( اللقي ) . وقد أشير اليها في شعر

---

١ الازرقي ( ١/١١٤ ) .
٢ تفسير القرطبي ( ٧/١٨٩ ) .
٣ المصدر نفسه .
٤ تفسير النيسابوري ( ٩/١٥٧ ) ، « حاشية على تفسير الطبري » ، تفسير الطبري ( ٩/١٥٧ وما بعدها ) .
٥ الازرقي ( ١/١١٧ ) ، اللسان ( ٢٠/١٢٢ ) ، الكشاف ( ٢/٦٠ ) .

لـ ( ورقة بن نوفل )[1] . ولعل اعتقاد القوم بأن تلك الملابس ملوثة بالأدران ، هو الذي منع الناس الآخرين من لمس تلك الملابس والاستفادة منها، فتركوها لذلك للأرض وللشمس والرياح تعبث بها الى ان تتمزق وتهرى[2] .

ولكننا نجد الأخباريين يعودون فيروون روايات تناقض ما ذكروه عن (اللقي). إذ يقولون : كان الحلة اذا ختموا طوافهم وأتموه بنائلة ، خرجوا الى ثيابهم التي ألقوها خارج باب المسجد ، فلبسوها ، فإذا أرادوا الطواف مـــرة أخرى طافوا بملابسهم[3] . فهم يقرون في هذه الرواية طواف العري ، ولكنهـــم ينكرون ترك ( اللقى ) على الأرض لتدوس عليها الأقدام ولتلعب بها الرياح وتعبث بها الأهوية والأتربة ، ويجعلون أصحابها يعودون اليها فيلبسونها تارة أخرى .

ونقرأ في كتبهم رواية أخرى تذكر ان أحداً من الحلة اذا لم يجد ثياب أحمسي يطوف فيها ومعه فضل ثياب يلبسها ، غير ثيابه التي عليه فطاف في ثيابه ثم جعلها لقى يطرحها بين أساف ونائلة فلا يمسها أحد ولا ينتفع بها منتفع حتى تبلى من وطء الأقدام والشمس والرياح والأمطار[4] .

وقد ذكر ( محمد بن حبيب ) ان ( الحلة ) كانوا اذا دخلوا مكة « تصدقوا بكل حذاء وكل ثوب لهم ثم استكروا لهم من ثياب الحمس تنزيهـــاً للكعبة ان يطوفوا حولها إلا في ثياب جدد . ولا يجعلون بينهم وبين الكعبة حذاء يباشرونها بأقدامهم . فإن لم يجدوا ثياباً طافوا عراة . وكان لكل رجل من الحلة حرمي من الحمس يأخذ ثيابه . فمن لم يجد ثوباً طاف عرياناً . وانمـــا كانت الحلة تستكري الثياب للطواف في رجوعهم الى البيت لأنهم كانوا اذا خرجوا حجاجاً لم يستحلوا أن يشتروا شيئاً ولا يبيعوه حتى يأتوا منازلهم إلا اللحـــم . وكان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حرمي عياض بن حمار المجاشعي : كان اذا قدم مكة طاف في ثياب رسول الله »[5] .

---

١ كفـى حـــزنا كرّي عليـه ، كأنـــه لقى بـــين أيـــدي الطائفـــين حريم
الازرقي ( ١/١١٢ ، ١١٤ ) ، اللسان ( ٢٠/١٢٢ ) ، النهاية في غريب الحديث ( ٤/٢٩ ) ، تفسير القرطبي ، الجامع ( ٧/١٨٩ ) .

٢ Robertson Smith, p. 751.

٣ الازرقي ( ١/١١٤ ) .

٤ الازرقي ( ١/١١٤ ) .

٥ المحبر ( ص ١٨٠ وما بعدها ) .

فالذي يطوف بالبيت عرياناً ، هو ضعيف ( الحلة ) ، ممن لا قبل له على استكراء ثياب له من أحمسي ، وممن لا صاحب له من الحمس ، يعطيه ثيابـاً ليلبسها . أما المتمكن من ( الحلة ) ، ومن له صديق من الحمس ، فلا يطوف عرياناً ، وانما يطوف بثياب أحمسي .

ويرى ( روبرتسن سمث ) ان الذي أوحى الى الجاهليين وجوب طرح ملابس الحلة اذا أحرم فيها،اعتقادهم بتقدس تلك الملابس في أثناء الإحرام مما يجعلها في حكم الـ (تابو) Tabu عند الأقوام البدائية ، ولذلك لا يجوز استعمالها مرة أخرى، وهم أنفسهم قوم غير مقدسين[1] .

وقد منع الاسلام طواف ( العريّ ) في أي وقت كان ، وحتم على الجميع قريش وغيرهم لبس (الإحرام)[2] . وقد ذكر علماء التفسير في تفسير قوله تعالى : « واذا فعلوا فاحشة ، قالوا وجدنا عليها آباءنا ، والله أمرنا بها . قل : إن الله لا يأمر بالفحشاء . أتقولون على الله ما لا تعلمون »[3] . ان هذه الآية نزلت في حق المتعرين الذين كانوا يطوفون بالبيت عراة ، « فإذا قيل لهم : لِمَ تفعلون ذلك ؟ قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها » ، « فنحن نفعل مثل ما كانوا يفعلون ، ونقتدي بهديهم ونستن بسنتهم . والله أمرنا به فنحن نتبع أمره فيه »[4] . فنحن اذن أمام سنّة جاهلية قديمة ، ترجع طواف العري الى أمر سابق وشريعة سابقة .

وأما ( الحمس ) ، فهم الذين كانوا يطوفون بثيابهم ، ثم يحتفظون بها فلا يلقونها ، فلهم من هذه الناحية ميزة امتازوا بها على الحلة . ولهم على الحلة ميزة أخرى ، هي انهم كانوا يقفون الموقف في طرف الحرم من (غرة ) : يقفون به عشية عرفـة ، ويظلون به يوم عرفة في الأراك من نمـرة ، ويفيضون منه الى المزدلفة[5] . ولا يقفون موقف غيرهم بعرفة ، فقصروا عن مناسك الحج والموقف من عرفة وهو من الحل . وحجتهم انهم أهل الحرم فلا يخرجون منه مثل سائر

---

١ R. Smith, p. 751.
٢ الازرقي ، أخبار مكة ( ١/١١١ ) .
٣ الاعراف ، الرقم ٢٧ الآية ٢٨ .
٤ تفسير الطبري ( ٨/١١٤ ) ، تفسير القرطبي ، الجامع ( ٧/١٨٧ ) .
٥ الازرقي ( ١/١١٦ وما بعدها ) ( ٢/١٥٨ وما بعدها ، النهاية ( ١/٢٣٣ ) ، شرح النووي، ( ٨/١٨٠ ) وما بعدها ) ، Ency., II, p. 335.

الناس . ويقولون : « نحن أهل الحرمة وولاة البيت وقطّان مكة وساكنها، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا ولا تعرف له العرب مثل ما نعرف»[1].

وتفسير كلمة ( الحمس ) في رأي علماء اللغة التشدد في الدين ، سُمّوا حمساً لأنهم كانوا يتشددون في دينهم ، فكانوا اذا زوّجوا امرأة منهم لغريب عنهم ، أي لمن كان من الحلة اشترطوا عليه ان كل من ولدت له ، فهـو أحمسي على دينهم . وكانوا اذا أحرموا لا يأتقطون الاقط ، ولا يأكلون السمن ولا يسلؤونه ولا يمخضون اللبن ، ولا يأكلون الزبد، ولا يلبسون الوبر ولا الشعر ولا يستظلون به ما داموا حرماً ، ولا يغزلون الوبر ولا الشعر ولا ينسجونه ، وانما يستظلون بالأدم ، ولا يأكلون شيئاً من نبات الحرم . وكانوا يعظمون الأشهر الحرم ولا يخفرون فيها الذمة ولا يظلمون فيها ، ويطوفون بالبيت وعليهم ثيابهم . وكانوا اذا أحرم الرجل منهم في الجاهلية وأول الاسلام ، فإن كان من أهل المدر نقب نقباً في ظهر بيته فمنه يدخل ومنه يخرج ولا يدخل من بابه . وكانوا يقولون : لا تعظموا شيئاً من الحل ، ولا تجاوزوا الحرم في الحج فلا يهاب الناس حرمكم ، ويرون ما تعظمون من الحل كالحرم ، فقصروا عن مناسك الحـج .والموقف من عرفة وهو من الحل ، فلم يكونوا يقفون به ولا يفيضون منه ، وجعلوا موقفهم في طرف الحرم من نمرة : يقفون به عشية عرفة ، ويظلون بـه يوم عرفة في الأراك من نمرة ، ويفيضون منه الى المزدلفة . فإذا عممت الشمس رؤوس الجبال دفعوا . وكانوا يقولون : نحن أهل الحرم ، لا نخرج من الحرم، ونحن الحمس . وكانوا اذا أرادوا بعض أطعمتهم ومتاعهم ، تسوّروا من ظهر بيوتهم وأدبارها حتى يظهروا على السطوح ، ثم ينزلون في حجرتهم ، ويحرمون ان يمـروا تحت عتبة الباب[2] . فهم يحرمون اذن أشياء لم تكن العرب تحرمها[3] .

---

١ ابن هشام ( ١٣٢/١ ) « هامش على الروض » .

٢ الازرقي ( ١١٦/١ وما بعدها ) ، النهاية ( ٢٣٣/١ ، ٢٩٣ ) ، الاشتقاق ( ١٥٣ ) ، ابن هشام ( ٢١١/١ ) ، الكامل ، لابن الاثير ( ٣٩١/١ ) ، الطبرسي ( ٤١١/٢ ) .
Caetani, Annali, I, S. 121, Ency., II, p. 335, Snouck Hurgounje, Het Mekkaanische Feest, p. 21, 77, 111, 130.

٣ المعاني ( ٩٩٨/٢ ) .

والحمس : قريش ومن ولدت قريش وكنانة وجديلة قيس على رواية[1] . تضاف اليهم خزاعة والأوس والخزرج وجشم وبنو ربيعة بن عامر بن صعصعة وأزد شنوءة وجذم زبيد وبنو ذكوان من بني سُليم وعمرو اللات وثقيف وغطفان والغوث وعدوان وعلاف وقضاعة على رواية للأزرقي[2] . وهم : (قريش) وكنانة وجديلة قيس ، وفهم ، وعدوان ، وثقيف ، وعامر بن صعصعة على رواية أخرى[3] . وقد ذكر ( ابن سعد ) ، ان الحمس هم : قريش وكنانة وخزاعة ومن ولدته قريش من سائر العرب . أو حليف قريش . وذكر بعض الرواة انهم قريش وعامر بن صعصعة ، والحارث بن كعب[4] . وذكرهم بعض آخر على هذا النحو : قريش ، وكنانة ، وخزاعة ، وثقيف ، وخثعم ، وعامر بن صعصعة ، ونصر بن معاوية . وأضاف (القرطبي) جشماً اليهم[5] . وورد ان « الحمس لقب قريش ومن ولدت قريش ، وكنانة وجديلة قيس . وهم : فهم وعدوان ابنا عمرو بن قيس عيلان ، وبنو عامر بن صعصعة ، ومن تابعهم في الجاهلية . هؤلاء الحمس . وانما سمّوا لتحمسهم في دينهم أي تشددهم فيه ، وكذا في الشجاعة فلا يطاقون ، أو لالتجائهم بالحمساء وهي الكعبة »[6] .

وأورد ( ابن حبيب ) أسماء الحمس من العرب ، فقال : « قبائل الحمس من العرب : قريش كلها . وخزاعة لنزولها مكة ، ومجاورتها قريشاً . وكل من ولدت قريش من العرب وكل من نزل مكة من قبائل العرب .

فمن ولدت قريش : كلاب ، وكعب ، وعامر ، وكلب بنو ربيعة بن عامر ابن صعصعة . وأمهم مجد بنت تيم بن غالب بن فهر . واياها عنى لبيد بن ربيعة بقوله :

سقى قومي بني مجد وأسقى نميراً والقبائل من هلال

---

١ النهاية في غريب الحديث ( ١/٢٩٣ ) ، تاج العروس ( ٤/١٣٢ وما بعدها ) ، (حمس) ، اللسان ( ٧/٢٥٧ وما بعدها ) ، (حمس) ، ، ارشاد الساري (٣/٢٠٠)، البلخي ، البدء والتاريخ ( ٤/٣٢ وما بعدها ) .

٢ البلدان ، ( مكة ) ، Kister, p. 138.

٣ الطبقات ( ١/٧٢ ) ، ( صادر ) .

٤ ابن هشام ( ١/٢١٢ ) ، ابن قتيبة ، المعارف (٢٦٩) ، المعاني (٩٨٩) ، المرزوقي ، شرح الحماسة (٣١) ، Kister, p. 132.

٥ القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن ( ٢/٣٤٥ ) ، أبو حيان ، البحر المحيط (٢/٦٣) ، Kister, p. 132.

٦ تاج العروس (٤/١٣٢) ، (حمس) .

والحارث بن عبد مناة بن كنانة . ومدلج بن مرة بن عبد مناة بن كنانة ، بنزولهم حول مكة . وعامر بن عبد مناة بن كنانة . ومالك ، وملكان ، ابنا كنانة ، وثقيف ، وعدوان ، ويربوع بن حنظلة . ومازن بن مالك بن عمرو بن تميم . وأمها جندلة بنت فهر بن مالك بن النضر . ويقال : ان بني عامر كلهم خمس لتخمس اخوتهم من بني ربيعة بن عامر . وعلاف ، وهو ربّان بن حُلوان ابن عمران بن الحاف بن قضاعة . وجناب بن هبل بن عبدالله من كلب . وأمه آمنة بنت ربيعة بن عامر بن صعصعة . وأمها مجد بنت تيم الأدرم بن غالب ابن فهر »[1] .

ويتبين مما تقدم ان (الحمس) ، لم يكونوا قريشاً وحدهم وسكان الحرم ، وانهم لم يكونوا جماعة قامت وظهرت على رابطة الدم والنسب ، كما هو الحال بالنسبة الى القبيلة . بل هم قريش وكل من نزل الحرم وسكن مكة ، وطوائف من العرب شاركت قريشاً في مناسك حجها ، وسارت على نهجها في الحج ، وشاطرتها الرأي في دينها . وقد ذكر ( الجاحظ ) ان ( عامر بن صعصعة ) ، و ( خزاعة ) ، و ( ثقيفاً ) ، والحارث بن كعب ، كانوا ديّانين ، أي على رأي ودين[2] . وكانوا على دين قريش . وقال غيره : « وصارت بنو عامر من الحمس وليسوا من ساكني الحرم لأن أمهم قرشية . وهي مجد بنت تيم بن مرة . وخزاعة انما سميت خزاعة ، لأنهم كانوا من سكان الحرم فخزعوا عنه ، أي خرجوا . ويقال انهم من قريش انتقلوا ببنيهم الى اليمن . وهم من الحمس »[3].

وقد ميّز بعض العلماء بين ( الحمس ) وهم نزلاء الحرم ، وبين المتحمسين الذين دخلوا في الحمس ، لأن أمهاتهم من قريش ، بأن أطلقوا عليهم لفظة ( الأحامس ) . فقالوا : « والأحماس من العرب الذين أمهاتهم من قريش »[4] .

وجاء في بعض الأخبار ان ( غطفان ) ، لما اتخذت لها بيتاً أرادت به مضاهاة الكعبة ، وجعلت له حرماً كحرم مكة . أغار ( زهير بن جناب الكلبي ) عليه

---

١ المحبر (١٧٨ وما بعدها) ، ابن دريد ، الاشتقاق (٥٤٠) ، ابن عبد البر ، انباه (٨٧) ، المفضليات ، شرح الانباري (٢٥٩) .

٢ Kister, p. 136.

٣ تاج العروس (١٣٢/٤) ، (حمس) .

٤ تاج العروس (١٣٣/٤) ، (حمس) .

وهدمه[1] . وكان زهير من الحمس .

وقد وصف ( ابن سعد ) ( التحمس ) بقوله : « والتحمس أشياء أحدثوها في دينهم تحمسوا فيها ، أي شددوا على أنفسهم فيها ، فكانوا لا يخرجون من الحرم اذا حجّوا ، فقصروا عن بلوغ الحق ، والذي شرع الله ، تبارك وتعالى، لابراهيم وهو موقف عرفة ، وهو من الحل ، وكانوا لا يسلؤون السمن ولا ينسجون مظال الشعر ، وكانوا أهل القباب الحمر من الأدم ، وشرعوا لمن قدم من الحاج ان يطوف بالبيت وعليه ثيابه ما لم يذهبوا الى عرفة ، فإذا رجعوا من عرفة لم يطوفوا طواف الإفاضة بالبيت إلا عراة أو في ثوبي أحمسيّ ، وان طاف في ثوبيه لم يحلّ له ان يلبسها »[2] .

وللجاحظ ملاحظات قيمة عن قريش لها صلة بالتحمس ، وقد تفسر لنا معنى التحمس وسبب شموله أناساً هم من غير قريش .

ذكر ان الاسلام لما ظهر ، لم تكن هنالك أية امرأة قرشية ، كانت مسبية عند غير قريش . ولم تكن هنالك أية امرأة مسبية في أيدي القبائل وأمها من قريش . ويذكر أيضاً ان قريشاً لم تكن تزوج بناتها من أبناء أشراف القبائل حتى تشترط عليهم ان من تلد منهن ، فيكون من يلدن من الحمس . أما هم ، فكانوا اذا تزوجوا من بنات قبائل أخرى ، فإنهم لم يشترطوا على أنفسهم أي شرط، وكان من هذه القبائل عامر بن صعصعة وثقيف وخزاعة والحارث بن كعب ، (وكانوا ديّانين ) . وكانوا على دين قريش في أمورها . وكانت قريش كريمة ، ولم ترض بالغارات والغزو ولا بالظلم ولم تقبل بالوأد ولا بالدخول بمن يقع في أيديهم أسرى من النساء . وكان من فضائلهم ان منّ الله عليهم بالإيلاف . فأغناهم وجعلهم (لقاحاً) ، فلم يخضعوا لملك ، ولم يستعبدهم سلطان أجنبي[3] . ولم يدفعوا أي شيء عنهم لملك من الملوك . بل كانت الملوك تأتي الى مكة وتعظم البيت وتحترم سكانه . وهم قريش الحمس[4] .

---

١ الاغاني (١٢/١٢١) ، (٢١/٦٣) .

٢ ابن سعد ، الطبقات (١/٧٢) ، (صادر) .

٣ أخذت هذه الملاحظات من (كستر) (Kister) ، لعدم وجود مخطوطة الجاحظ التي نقل منها عندي . وهي : مختارات فصول الجاحظ ، الموجودة في المتحف البريطاني برقم ٣١٨٣ .

٤ ابن الفقيه ، كتاب البلدان (١٨) .

ويظهر من ملاحظات الجاحظ المذكورة ، ان من أهم مبادىء الحمس ، نبذ الغارات ، أي الغزو ، حتى جعلته قريش ركناً من أركان دينها . كما تمسكت بركن آخر ، هو عدم الدخول بمن يقـــع في أيديهم من النساء السبايا في حالة ما اذا أغارت قبيلة عليهم ، واعتدت عليهم ، فانتصرت قريش عليها ، وأخذت منها سبايا . أما الحمس الآخرون ، مثل عامر بن صعصعة وثقيف والحارث بن كعب ، وأمثالهم ممن تحمسوا ، فلم يتمسكوا بهذه الأصول . وذكر ( ابن الفقيه) ان القبائل المذكورة لم تكن في الأصل حمساً ، على دين قريش ، وانما تحمست وصارت من الحمس بتأثير قريش عليها [1] . وقريش تمسكوا وحدهم بالحمس ، ( وصاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء )[2] . وقد عرفت مكة بـ ( دار الحمس ) ، كما جاء ذلك في شعر ينسب الى ( الكاهـــن اللهبي )[3] . وعرفت قريش بـ ( أهل الله )[4] .

ونجد بين ( الحمس ) والحرم صلة متينة ، تشير الى الأصل الديني للحمس والى ارتباطهم بالكعبة . فذهب (الزمخشري) الى ان ( حمس ) من ( حرم )[5] : ومن دلائل هذه الصلة أيضاً ما ورد في كتب أهل الأخبار من ان الكعبة كانت قد عرفت بـ ( الحمساء ) . سميت بذلك ( لأن حجرها أبيض الى السواد )[6] . ومن ان ( الحمس ) هم نزلاء الحرم[7] . فبين الحمس والحرم ، صلة متينة اذن . حتى قيل ان المنسوب الى الحرم من الناس ( حرمـــي )[8] . و ( ان عياض بن حمار المجاشعي ، كان حرمي رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فكان اذا حج طاف في ثيابه . وكان أشراف العرب الذين يتحمسون على دينهم ، أي يتشددون اذا حج أحدهم لم يأكل إلا طعام رجل من الحـــرم : ولم يطف إلا في ثيابه .

---

١ Klster, p. 137.

٢ الثعالبي ، ثمار القلوب (٨) ، (أهل الله) . Klster, p. 137.

٣ الروض الانف (١/١١٨) ، ابن دريد ، الاشتقاق (٤٩١) ، Wellhausen, Reste, S. 134, Klster, 138.

٤ Klster, p. 139.

٥ الزمخشري ، الفائق ، (حمس) ، Klster, p. 138.

٦ تاج العروس (٤/١٣٢) ، (حمس) .

٧ تاج العروس (٤/١٣٢) ، (حمس) .

٨ بالكسر .

فكان لكل رجل من أشرافهم رجل من قريش . فيكون كل واحد منهما حِرمي صاحبه »[1] . ويفسر لنا هذا المعنى أيضاً قولهم : « رجل حرام : داخل في الحرم » ، و « الحرم بالكسر الرجل المحرم . يقال : أنت حل وانت حرم»[2]. وقد أنجب الزواج المشروط بين قريش وبين من يتزوج منها حمساً جدداً ، انتقل الحمس اليهم عن طريق ( شرط عقد الزواج ) من جهة الأمهات . أما نسل هؤلاء الحمس الجدد ، الذين هم في الواقع أنصاف أحماس ، فقد صار حمساً مثل قريش ، لأنهم ولدوا من والد حسب من الحمس ومن والدة أحمسية . وبذلك لم يعد الحمس أهل مكة وحدهم ، بل شمل أهل مكة ومن تزوج مكيات فأنجبن ولداً ، عدّوا حمساً بشرط العقد .

وتذكر بعض الروايات ان عقيدة ( الحمس ) لم تكن قديمة ، بل ظهرت قبيل الاسلام . « قال ابن اسحاق : كانت قريش لا أدري قبل الفيل أو بعده ، ابتدعت أمر الحمس رأياً . فتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها،وهم يعرفون ويقرون انها من المشاعر والحج ، إلا انهم قالوا : نحن أهل الحرم ، ونحن الحمس . والحمس أهل الحرم . قالوا : ولا ينبغي للحمس ان يتأقطوا الأقط ولا يسلؤوا السمن ، وهم حرم ، ولا يدخلوا بيتاً من شعر ، ولا يستظلوا إن استظلوا إلا في بيوت الأدم ما كانوا حرماً ، ثم قالوا : لا ينبغي لأهل الحل ان يأكلوا من طعام جاءوا به من الحل الى الحرم اذا جاءوا حجاجاً أو عمّاراً ، ولا يطوفوا بالبيت اذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الحمس »[3] . ولم تذكر هذه الرواية سبب ظهورها ، ولا من أوجدها من رجال قريش .

ويتبين من غربلة ما ذكره أهل الأخبار عن الحمس ؛ ان الحمس هم أهل مكة الأحرار في الأصل ؛ ثم من دان بدينهم . وجدوا أنفسهم في ضنك شديد، في واد غير ذي زرع ، لا شيء عندهم غير ( البيت ) ، فتحمسوا في دينهم وتشددوا وتعاونوا فيما بينهم على العمل معاً ، وعلى الدعوة الى عبادة رب البيت واقراء الضيف والامتناع عن غزو غيرهم ، وعن التحرش بأحد ، إلا اذا تحرش بهم ، وعلى إغاثة الملهوف ومساعدة من يأت البيت حاجاً أو معتمراً أو قاصداً

---

١ تاج العروس (٨/٢٤٣) ، (حرم) .
٢ تاج العروس (٨/٢٤٣) ، (حرم) .
٣ ارشاد الساري (٣/٢٠٠) .

تجارة ، وتقديم الرفادة له . ونصرة الغريب . وحافظوا على الحرمات : حرمة البيت وحرمة الحج وحرمة الأشهر الحرم ، ووضعوا لأنفسهم قواعد صارمة في آداب السلوك في موسم الحج وفي غيره ، تشعر انهم كانوا ينظرون الى أنفسهم كأنهم ( جنس ) ، فضله الله على بقية أجناس العرب ، لهم مناسكهم ، ولبقية العرب مناسكهم ، ولهم قباب خاصة يضربونها لأنفسهم في سوق عكاظ وفي المواضع الأخرى تميزهم عن سائر من يفد الى هذه المواضع ،وترفّعوا عن مصاهرة سائر الناس إلا اذا وجدوا انهم أكفاء لهم ، والكفاءة : القوة والمال . وأقاموا مجتمعهم الخاص هذا على قواعد دينية تعاونية اقتصادية ( صاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء )[1] . شعارهم انهم ( أهل الله )[2] ، دينهم « التحمس والتشدد في الدين، فتركوا الغزو كراهة للسبي واستحلال الأموال ، فلما زهدوا في الغصوب لم يبق مكسبة سوى التجارة : فضربوا في البلاد الى قيصر بالروم ، والنجاشي بالحبشة ، والمقوقس بمصر ، وصاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء »[3]. وكان ان تفردوا بالإيلاف، وللايلاف ارتباط بالحمس ، وتوجهوا الى التجارة والاتجار ، وجمعوا بين الدين والمال ، وأفسحوا المجال لمن به نشاط وهمة ان يجمع مالاً وأن يكون غنياً على ان يساهم بنصيبه في تحمّل أعباء مجتمعهم ، للدفاع عن ( بيت الله ) ولكسب المتحالفين معهم وتوزيع العدل فيما بينهم ، توزيعاً يخفف من حدة التفاوت فيما بين الغني والفقير ، حتى لا يقع اختلال في التوازن بين طبقات المجتمع ، يحمل الفقراء على انتزاع المال من الأغنياء كرهاً وقسراً . وجعلوا ذلك واجباً من واجباتهم ، فحثوا على رفع الظلم ، واتخذوا السقاية والرفادة ، وعقدوا ( حلف الفضول ) للدفاع عن المحتاج ، وجعلوا ( الإيلاف ) الذي سأتكلم عنه في الجزء الخاص بالحياة الاقتصادية ، سبباً من أسباب اشاعة الرحمة ومساعدة الفقراء وتخفيف وطأة الفقر في هذه القرية : ( أم القرى ) ، وفي ذلك يقول (مطرود بن كعب الخزاعي) في رثائه عبد المطلب :

---

١ الثعالبي ، ثمار القلوب (١٨) ، (أهل الله) ، (ص١١) ، (تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم) .

٢ ثمار (ص ١٠) .

٣ ثمار (ص ١١ وما بعدها) ، سيرة ابن دحلان (١/١٤٠) ، (حاشية على السيرة الحلبية) .

يا أيهـا الرجل المحول رحله ألا نزلت بآل عبـد مناف
هبلتك أمك لو نزلت عليهـم ضمنوك من جوع ومن إقراف
الآخذون العهـدَ من آفاقهـا والراحلون لرحلـة الإيـلاف
والمطعمون اذا الرياح تناوحت ورجال مكة مسنتون عجاف
والمفضلون اذا المحول تَرادَفت والقائلـون هلُمّ للأضيـاف
والخالطون غنيهـم بفقيرهـم حتى يكون فقيرهم كالكافي
كانت قريش بيضة فتفلقت فالمحّ خالصة لعبد مناف[1]

قام رجال من رجال مكة بالانفاق على المحتاجين، فعدّوا ذلك ديناً ومروءة وشهامة. فكان ( نعيم بن عبدالله ) العدوي ، ينفق على أرامل بني عدي وأيتامهم[2] . وكان ( حكيم بن حزام ) ينفق من أرباحه على المحتاجين من آلـه وذويه[3] . وكان صديق النبي قبل المبعث[4]، وتذكر كتب السير والتراجم أسماء رجال آخرين عرفوا بتصدقهم على الفقراء والمحتاجين ، اعتبروها منقبة وقربة لهم في الجاهلية ، وقد أقرهم الرسول عليها .

فالحمس ( أهل الله ) ، وأمته ، تجمعهم عبـادة الله والأصنام ، والمناسك والشعائر التي وضعوها لهم ، والتجارة التي جعلوها مثل شعائر دينهم ، ينفقون من أرباحهم منها في سبيل (الله) . أي بيت الله وأهله المستضعفون ، حتى جعلوا الصدقة وإطعام المحتاج من أمور الدين. فمجتمعهم مجتمع جمع بين الدين والتجارة، وبين الدين والمال . حثهم على التعاون بخلط رؤوس أموالهم والاتجار معاً بقوافل ، وفيه ربح كبير مضمون ، وحثهم على إنصاف من ليس لـه شيء حتى يصير

---

١ أخذت هذه الابيات من أمالي المرتضى (٢/٢٦٨) ، وتختلف بعض الاختلاف عن أمالي القالي (١/٢٤١ وما بعدها) ، التي فيها :
منهـم علـي والنبـي محمـد القائـلان هلـم للاضيـاف
وعن سيرة ابن هشام (١/١١٧) ، (حاشية على الروض الانف) ، وعن معجم الشعراء (٣٧٥) ، وشرح ابن أبي الحديد (٣/٤٥٣) ، والعيني (٤/١٤٠) ، والبكري ، سمط (٥٤٧ وما بعدها) ، وعن تفسير الطبرسي (ج ٣٠ ص ٥٤٥) ، (طبعة طهران) ، تفسير سورة لايلاف قريش ، وعن ابن العربي ، محاضرات الابرار (٢/١١٩) ، والبلاذري ، أنساب (١/٥٨) ، والدياربكري ، تأريخ الخميس (١/١٥٦) .
٢ الاصابة (٣/٥٢٧) ، (رقم ٨٧٧٨) .
٣ نسب قريش (١/٣٦٧) ، (رقم ٦٤٤) ، Kister, p. 125.
٤ الاصابة (١/٣٤٨ وما بعدها) ، (رقم ١٨٠٠) .

مكتفياً غير محتاج ، لا يوجه عينه نحو غيره حسداً وحقداً . شعار هـذا المجتمع الله والأصنام والحج والتجارة ، مجتمع لم يكن يخلو بالطبع من أحامس بخـلاء ، شذوا عن الطريق ، واغتصبوا أموال الفقراء ، كما هو الحال في كل مجتمع بشري .

وقد اقتصرت (قريش) ، وهم من الحمس ، على استعمال القباب المصنوعة من الأدم لا يضربها غيرها بـ (منى)[1] . لأنهم ( كانوا لا ينسجون مظال الشعر ، وكانوا أهل القباب الحمر من الأدم )[2] . وقد استعمل الرسول في حجه هذا النوع من القباب[3] . ولا بد أن يكون لاقتصار قريش على استعمال هذا النوع من القباب دون غيرها في هذا الموضع ، سبب ما ، الأرجح انه عامـل ديني واجتماعي[4] . ويلاحظ انه كان للقباب الحمر ذكر خطير ، وجاه عظيم في نظر الجاهليين ، فكان أصحابها يفتخرون على غيرهم بأنهم ( أهل القباب الحمر )[5] ، وقد كان الملوك والسادة يضربون لأنفسهم القباب الحمـر . فهي من امارات الجاه والمكانة والنفوذ .

ويظهر من بعض الأسماء أو الجمل التي وردت فيها كلمة (أحمس) و (حمس) ان هذه الكلمة هي نعت أو اسم من أسماء الآلهة عند الجاهليين في الأصل ، ثم تغير معناها بعد ذلك فصارت على النحو الذي ذكره علماء اللغة نقلاً عن الروايات التي ترجع ذلك المعنى الى الجاهلية المتصلة بالاسلام . ففي الأسماء الواردة الينا : ( أحمس الله ) ، و ( بنو أحمس ) ، و ( أبو أحمس ) ، و ( الأحامس)[6] ؛ ما يفيد ان الأصل بعيد جداً عن المعنى الذي فهمه وذهب اليه أهـل الأخبار ، وان للكلمة معنى دينياً خاصاً قديماً ، هو التشدد في الدين والتمسك به ، وبعبادة الصنم ، والمحافظة على سنّة الآباء والأجداد مع تصلب وتقشف .

---

١ ( كانت قباب قريش من الأدم ، لا يضربها غيرهم بمنى ) ، المشرق ، السنة السابعة والثلاثون ، كانون الثاني ــ آذار ، ١٩٣٩ (ص ٩٥) .

٢ ابن سعد ، الطبقات (١/٤١) .

٣ ابن سعد ، الطبقات (٢/٨٨) ، أسد الغابة (١/٢٥١) .

٤ المشرق ، السنة السابعة والتلاتون ، كانون الثاني ــ آذار ، ١٩٣٩ (ص ٩٥) .

٥ أهـل القبـاب الحمـر والنعـم المـؤبل والمدامه
ديوان عبيد الابرص (٢٩) ، (طبعة لايل) .

٦ الاغاني (٢/٤٦) ، الاشتقاق (١٥٣) ، تاج العروس (٤/١٣٢ وما بعدها) ، (حمس) .

والأحماس من العرب الذين أمهاتهم من قريش[1] ، صاروا من الحمس بسبب أمهاتهم .

هذا وقد نزل الوحي بتنظيم الحج وفق مبـــادىء الاسلام ، فأباح للحجاج ما كانت الحمس حرمته على نفسها من طعام الحـج إلا طعام أحمسي ، عـــلى نحو ما ذكرت قبل قليل . وما ذكر من ان قوماً كانوا قـد حرّموا على أنفسهم ما يخرج من الشاة لبنها وسمنها ولحمها ، اذا حجوا أو اعتمروا[2] . كما نزل بوجوب ستر العورة ولبس الإحرام في الحج ، وذلك بالنسبة الى المحلّين ، وأغلبهم من الأعراب ومن الفقراء ، حيث كانوا يطوفون عراة ، وفي ضمنهم النساء[3] . فنزل الوحي بـ : « يا بني آدم خذوا زينتـــكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين »[4] . ونهوا عن ذلك[5] . وذكر عن أبـي هريرة انه قال : « بعثني أبو بكر الصديق في الحجة التي أمره عليها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قبل حجة الوداع في رهط يؤذنون في الناس يوم النحر ، لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان »[6] .

كما نزل الوحي بجواز دخول الحجـــاج بيوتهم وخيامهم ومـــا يأوون اليه من بيوتها ، من أبوابها ، لا كما كان يفعل بعضهم في الجاهلية وفي أول الاسلام ، من انه اذا أحرم الرجل منهم بالحج أو العمرة لم يدخل حائطاً ولا بيتاً ولا داراً من بابه ، فإن كان من أهل المدن نقب نقباً في ظهر بيته منه يدخل ويخرج أو يتخذ سلماً فيصعد فيه ، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخيمة والفسطاط ولا يدخل من الباب حتى يحل من احرامه ويرون ذلك ذماً ، إلا ان يكون من الحمس . وهم : قريش وكنانة وخزاعة وثقيف وخثعم وبنو عامر بن صعصعة ، وبنو النضر بن معاوية . نزل الوحي بذلك في الآية : «وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ، ولكن البر من اتقى ، وأتوا البيوت من أبوابها ، واتقوا الله لعلكم تفلحون»[7] .

---

١ تاج العروس (٤/١٣٣) ، (حمس) .
٢ تفسير الطبري (٨/١٢١) .
٣ تفسير الطبري (٨/١١٨) .
٤ الاعراف ، الآية ٣١ .
٥ تفسير الطبري (٨/١١٨ وما بعدها) ، أسباب النزول (١٦٨ وما بعدها) .
٦ صحيح مسلم (٤/١٠٧) ، (باب لا يحج البيت مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وبيان الحج الاكبر) .
٧ البقرة ، الآية ١٨٩ .

وقد ذهب بعض أهل الأخبار والسير الى ان الآية المذكورة ، نزلت في أمر الحمس ، « لأن الحمس لا يدخلون تحت سقف ولا يحول بينهم وبين السماء عتبة باب ولا غيرها ، فان احتاج أحدهم الى حاجة في داره تسنم البيت من ظهره ، ولم يدخل من الباب »[1] . وذهب المفسرون الى انها نزلت في الأنصار ، فقد كانوا اذا حجّوا فجاءوا لا يدخلون من أبواب بيوتهم ، ولكن من ظهورها ، فجاء رجل فدخل من قبل بابه ، فكأنه عير بذلك ، فنزلت هذه الآية . وورد: « كانت قريش تدعى الحمس ، وكانوا يدخلون من الأبواب في الاحرام ، وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب في الاحرام ، فبينما رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، في بستان ، إذ خرج من بابه وخرج معه قطبة بن عامر الأنصاري ، فقالوا : يا رسول الله : إن قطبة بن عامر رجل فاجر ، وانه خرج معك من الباب ! فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : فإنّ ديني دينك ! فأنزل الله : « وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها »[2] . وقد أغفلت بعض الروايات اسم من كان لا يدخل البيوت من أبوابها ، بأن قالت : « كان أهل الجاهلية يأتون البيوت من ظهورها ويرونه براً » ، أو « كانوا في الجاهلية اذا أحرموا أتوا البيوت من ظهورها ، ولم يأتوا من أبوابها » ، أو « إن ناساً كانوا اذا أحرموا لم يدخلوا حائطاً من بابه ولا داراً من بابها أو بيتاً » ، أو « كان ناس من أهل الحجاز ، اذا أحرموا لم يدخلوا من أبواب بيوتهم ودخلوها من ظهورها »[3] ، وذكر ان من كان يفعل ذلك ، فانما يفعله ، لأنهم كانوا يتحرجون من ان يكون بينهم وبين السماء حائل[4] .

وقد جعل ( اليعقوبي ) العرب في الجاهلية على دينين : دين الحمس ودين الحلة . وذلك بالنسبة للمشركين . وذكر ان منهم من دخل في دين اليهودية وفي النصرانية ، ومنهم من تزندق وقال بالثنوية ، وبهذه الفرق حصر ( اليعقوبي ) أديان أهل الجاهلية . إذ قال : « فهاتان الشريعتان اللتان كانت العرب عليهما . ثم دخل قوم من العرب في دين اليهود ، وفارقوا هذا الدين . ودخل آخرون

---

١ الروض الانف (١/١٣٤ وما بعدها) .
٢ أسباب النزول (ص ٣٥ وما بعدها) .
٣ تفسير الطبري (٢/١٠٨ وما بعدها) .
٤ المصدر نفسه .

في النصرانية ، وتزندق منهم قوم ، فقالوا بالثنوية »[1] .

والتعميم الذي يطلقه (اليعقوبي) وبقية المؤرخين والأخباريين في قولهم « وكانت العرب في أديانهم » ، لا يمكن التسليم به ، إلا بالنسبة لأهل مكة ولمن كان يقصدهم من العرب . أما بالنسبة لجميع العرب ، فهذا ما لا يمكن التسليم به .

وأما (الطلس) ، فقد وصفهم ( محمد بن حبيب ) بقوله انهم : « بين الحلة والحمس : يصنعون في احرامهم ما يصنع الحلة ، ويصنعون في ثيابهم ودخولهم البيت ما يصنع الحمس . وكانوا لا يتعرون حول الكعبة ، ولا يستعيرون ثياباً ، ويدخلون البيوت من أبوابها ، وكانوا لا يئدون بناتهم ، وكانوا يقفون مع الحلة ويصنعون ما يصنعون »[2] . وهم سائر أهل اليمن ، وأهل حضرموت ، وعك وعجيب ، وإياد بن نزار[3] .

وذكر ان من الحجاج من كان يحج بغير زاد ، وان منهم من كان اذا أحرم رمى بما معه من الزاد ، واستأنف غيره من الأزودة ، وان « قبائل من العرب يحرمون الزاد اذا خرجوا حجاجاً وعمّاراً » ، فنزل الوحي : « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى »[4] ، فأمر من لم يكن يتزود منهم بالتزود لسفره ، ومن كان منهم ذا زاد ان يتحفظ بزاده فلا يرمي به[5] . وقد عرف هؤلاء بـ (المتوكلة) ، لتوكلهم على ( رب البيت ) في اطعام أنفسهم ، واعتمادهم في ذلك على السؤال.

وقد ذكر علماء التفسير ان الآية : « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى » نزلت « في طائفة من العرب كانت تجيء الى الحج بلا زاد ، ويقول بعضهم : كيف نحج بيت الله ولا يطعمنا ، فكانوا يبقون عالة على الناس ، فنهوا عن ذلك ، وأمروا بالزاد . وكان للنبي صلى الله عليه وسلم في مسيره راحلة عليها زاد ، وقدم عليه ثلثمائة رجل من مزينة ، فلما أرادوا ان ينصرفوا قال : يا عمر زوّد

---

١ اليعقوبي (١/٢٢٦) .
٢ المحبر (ص١٨١) .
٣ المحبر (ص١٧٩) ، الروض (١/١٣٣) .
٤ البقرة ، الآية ١٩٧ .
٥ تفسير الطبري (٢/١٦٢) ، (ان قوما كانوا يرمون بأزوادهم ويتسمون بالمتوكلة ، فقيل لهم تزودوا من الطعام ، ولا تلقوا كلكم على الناس) ، تفسير الطبرسي (١/٢٩٤) .

القوم ..... كما روى البخاري عن ابن عباس قال : كان أهل اليمن يحجّون ولا يتزودون ويقولون : نحن المتوكلون ، فإذا قدموا مكة سألوا الناس »[1] .

ويظهر مما تقدم ان ( المتوكلة ) لم يكونوا جميعاً من الفقراء المحتاجين ، بل كان منهم قوم أغنيـــاء فضل الله عليهم ، بدليل انهـــم كانوا اذا حجّوا رموا زادهم ، أو أعطوه للمحتاج اليه ، يفعلون ذلك ديانة وتقرباً الى الله ، كما فعل ( المتوكلـــة ) من بعدهم في الاسلام . فهم اذن طائفة من الطوائف الجاهليـــة المتدينة ، ترى ان التقشف في الحج ، يزيد في ثوابه ، ويقرب أصحابه الى رب البيت .

ويريد أهل الأخبار بالثياب (الإحرام) على ما يظهر . وهو قديم وقد عرف عند غير العرب أيضاً . وهو محاكاة لملابس رجال الدين الذين يخدمون المعابد ، ويتقربون الى الآلهة . وهو يتكون من قطعتين من : إزار ومن وشاح . ويكون أبيض اللون . واللون الأبيض من الألوان التي تعبر عن معان دينية . فقـــد كان رجال الدين والكهنة يلبسون الثيـــاب البيض . كما انه شعار الحـــزن عند بعض الشعوب ، وفي جملتهم عرب الحجاز[2] . ويظهر ان أهـــل مكة وهم قريش ، كانوا يلبسون الإحرام ، أو يكرهونه لغيرهم من العرب أو يعيرونه لهم إن كانوا من حلفائهم ، فيحرمون كإحرام قريش . أما من لم يتمكن من الحصول عـــلى الإحرام ، فقد كان يضطر بحكم الضرورة إلى الطواف عرياناً على نحو ما يقصه علينا أهل الأخبار .

أما بالنسبة الى أهل العربية الجنوبية من معينيين وسبئيين وقتبانيين وحضرميين ، فإننا لا نستطيع ان نتحدث عن سنة الطواف حول المعابد عندهـــم ، لعدم ورود شيء عن ذلك في النصوص الواصلة الينا . ولكني لا أستبعد احتمال طوافهم حول بيوت أصنامهم على نحو ما كان يفعله أهل الحجـاز ، لأن الطواف حول بيوت الأصنام أو حول الصنم من السنن الشائعة بين العرب وعند جماعات من بني إرم والنبط .

---

١ تفسير القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن (٢/٤١١) ، تفسير ابن كثير (١/٢٣٩) .
٢ Shorter Ency. of Islam, p. 160.

التلبية :

وذكر ( محمد بن حبيب ) ان طواف أهل الجاهلية بالبيت اسبوعاً ، وذكر انهم كانوا يمسحون الحجر الأسود ، ويسعون بين الصفا والمروة . وكانوا يلبّون. وذكر ان نسك قريش كان لإساف ، وان تلبيتهم : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك ، لا شريك لك إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك »[1] . وان تلبيـــة من نسك للعزى : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك وسعديك ، ما أحبنا اليك » . وان تلبية من نسك للات : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك ، كفى ببيتنا بنيّة ، ليس بمهجور ولا بلية ، لكنه من تربة زكية أربابه من صالحي البريـــة » . وكانت تلبية من نسك لجهار : « لبيك ، اللهم لبيك . لبيك ، اجعل ذنوبنا جبار ، واهدنا لأوضح المنار ، ومتعنا وملنا بجهار » . وكانت تلبية من نسك لشمس : « لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك ، ما نهارنا نجره ، ادلاجه وحره وقره ، لا نتقي شيئاً ولا نضره ، حجاً لرب مستقيم بره » ، وكانت تلبية من نسك لمحرّق : « لبيك ، اللهـم لبيك ، لبيك حجاً حقاً ، تعبّداً ورقاً » ، وكانت تلبية من نسك لودّ : «لبيك اللهم لبيك ، لبيك ، معذرة اليك » . وكانت تلبيـــة من نسك ذا الخلصة : « لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك ، بما هو أحب اليك » . وكانت تلبية من نسك لمنطبق : « لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك » . وتلبية عك ، انهم كانوا اذا بلغوا مكة ، يبعثون غلامين أسودين أمامهم ، يسيران على جمل ، مملوكين ، قد جردا ، فهما عريانان ، فلا يزيدان على ان يقولا : « نحـــن غرابا عك » . واذا نادى الغلامان بذلك صاح من خلفهما من عك : « عك اليك عانية ، عبادك اليمانية ، كيما نحج الثانية ، على الشداد الناجية »[1] .

وكانت تلبية من نسك مناة : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك ، لولا ان بكراً دونك يبرك الناس ويهجرونك ، ما زال حج عشـــج يأتونك ، إنا على عدوائهم من دونك » . وتلبية من نسك لسعيدة : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لبيك ، لم نأتك للمياحة ، ولا طلباً للرقاحة ، ولكن جئناك للنصاحة » . وكانت تلبيـة من نسك ليعوق : « لبيك اللهـم لبيك ، لبيك ، بغض الينا الشر ، وحبب الينـــا الخير ، ولا تبطرنا فنأشر ، ولا تفدحنا بعثار » . وكانت تلبية من نسك ليغوث :

---

١ المحبر (٣١٣) .

« لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك ، أحبنا بما لديك : فنحـــن عبادك ، قد صرنا اليك » . وكانت تلبية من نسك لنسر : « اللهم لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك ، اننا عبيد ، وكلنا ميسرة عتيد ، وأنت ربنا الحميد ، اردد الينا مُلكنا والصيد». وكانت تلبية من نسك ذا اللبا : « لبيك اللهـــم لبيك ، لبيك ، رب فاصرفن عنّا مضر ، وسلّمن لنا هذا السفر ، إن عما فيهم لمزدجر ، واكفنا اللهم أرباب هجر » . وكانت تلبية من نسك لمرحب : « لبيك اللهـــم لبيك ، لبيك ، اننا لديك . لبيك ، حيبنا اليك » . وكانت تلبية من نسك لذريـــح : « لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك ، كلنا كنود ، وكلنا لنعمة جحود، فاكفنا كل حية رصود ». وكانت تلبية من نسك ذا الكفين : « لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك ، إن جرهماً عبادك ، الناس طُرف وهم تلادك ، ونحن أولى منهم بولائك » . وتلبيـة من نسك هبل : « لبيك اللهم لبيك ، اننا لقاح ، حرمتنا على أسنة الرماح ، يحسدنا الناس على النجاح »[1] .

وقد تعرّض ( اليعقوبـي ) لموضوع التلبية ، فقال : « فكانت العرب ، اذا أرادت حج البيت الحرام ، وقفت كل قبيلة عند صنمها وصلّوا عنده ، ثم تلبوا حتى يقدموا مكة . فكانت تلبياتهم مختلفة . وكانت تلبية قريش : لبيك اللهـــم لبيك لا شريك لك ، تملكه وما ملك . وكانت تلبية كنانة : لبيك اللهم لبيك، اليوم يوم التعريف ، يوم الدعاء والوقوف . وكانت تلبية بني أسد : لبيك اللهم لبيك ، يا رب أقبلت بنو أسد ، أهل التواني والوفاء والجلد اليك . وكانت تلبية بني تميم : لبيك اللهم لبيك ، لبيك عن تميم ، قـــد تراها قـــد أخلقت أثوابها وأثواب من وراءها ، وأخلصت لربها دعاءها . وكانت تلبية قيس عيلان: لبيك اللهم لبيك ، لبيك أنت الرحمان ، أتتك قيس عيلان ، راجلها والركبان . وكانت تلبية ثقيف : لبيك اللهم إن ثقيفاً قد أتوك ، وأخلفوا المال وقد رجوك . وكانت تلبية هذيل : لبيك عن هذيل قد أدلجوا بليل ، في إبل وخيل . وكانت تلبيـة ربيعة : لبيك ربنا لبيك ، لبيك إن قصدنا اليك . وبعضهم يقول : لبيك عن ربيعة ، سامعة لربها مطيعـة . وكانت حمير وهمـــدان يقولون : لبيك عن حمير وهمدان والحليفين من حاشد والهان . وكانت تلبية الأزد : لبيك رب الأرباب ،

---

١ المحبر (٣١١ ــ ٣١٥) .

تعلم فصل الخطاب ، لملك كل مثاب . وكانت تلبية مذحج : لبيك رب الشعرى ، ورب اللات والعزى . وكانت تلبية كندة وحضرموت : لبيك لا شريك لك ، تملكه ، أو تهلكه ، أنت حكيم فاتركه . وكانت تلبية غسان : لبيك رب غسان ، راجلها والفرسان . وكانت تلبية بجيلة : لبيك عن بجيلة في بارق ومخيلة ، وكانت تلبية قضاعة : لبيك عن قضاعة ، لربها دفاعة ، سمعاً له وطاعة . وكانت تلبية جذام : لبيك عن جذام ، ذوي النهي والأحلام ، وكانت تلبية عك والأشعريين :

نحج للرحمان بيتاً عجبا  مستتراً مضبباً محجبا [1]

و ( التلبية ) اجابة المنادي ، أي اجابة الملبي ربه . وقولهم : لبيك اللهم لبيك ، معناه اجابتي لك يا رب ، واخلاصي لك [2] . وقد كان الجاهليون يلبّون لأصنامهم تلبيات مختلفة . وقد ذكر ( أبو العلاء المعري ) ، ان تلبيات العرب جاءت على ثلاثة أنواع : مسجوع لا وزن له ، ومنهوك ، ومشطور . فالمسجوع كقولهم :

لبيك ربنا لبيك  والخير كله بيديك

والمنهوك على نوعين : أحدهما من الرجز ، والآخر من المنسرح ، فالذي من الرجز كقولهم :

لبيك إنّ الحمد لك  والملك لا شريك لك
إلا شريك هو لك  تملكه وما ملك
أبو بنات بفدك

وكقولهم :

لبيك يا معطي الأمر  لبيك عن بني النمر
جئناك في العام الزمر  نأمل غيثاً ينهمر
يطرقُ بالسيل الخَمر

---

١ اليعقوبي (١/ ٢٢٥ وما بعدها) .
٢ اللسان (١/ ٧٣٢) ، (لبيب) .

والذي من المنسرح جنسان : أحدهما في آخره ساكنان كقولهم :

لبيك رب همـــدان  من شاحط ومن دان
جئناك نبغي الإحسان  بكل حرف مذعان
نطوي اليك الغيطان  نأمل فضل الغفران

والآخر لا يجتمع فيه ساكنان كقولهم :

لبيك عن بجيلـــه  الفخمـــة الرجيله
ونعمـــت القبيلـــه  جاءتك بالوسيلـــه
تؤمـــل الفضيلـــه

وربما جاءوا على قوافٍ مختلفة ، من ذلك تلبية بكر بن وائل :

لبيك حقاً حقـــا  تعبـــداً ورقـــا
جئنـــاك للنصاحـــة  لم نـــأت للرقاحـــه

وروي في تلبية ( تميم ) قولها :

لبيك لولا أن بكراً دونكا  يشكرك النـــاس ويكفرونكا
ما زال منا عنج يأتونكا

ورووا أن من تلبيات همدان :

لبيك مع كـل قبيل لبيك  همدان أبناء الملوك تدعوك
قد تركوا أصنامهم وانتابوك  فاسمع دعاءً في جميع الأملوك

ومن تلبياتهم قولهم :

لبيك عن سعد وعن بنيهـا  وعن نساء خلفهـــا تعنيهـــا
سارت الى الرحمة تجتنيها

وختم ( أبو العلاء المعري ) رأيه عن التلبية بقوله : « والموزون من التلبية ، يجب أن يكون كله من الرجز عند العرب ، ولم تأت التلبية بالقصيد . ولعلهم قد لبّوا به ولم تنقله الرواة »[1] .

١ رسالة الغفران (ص ٥٣٥ ـ ٥٣٧) . (بنت الشاطىء) .

والتلبية هي من الشعائر الدينية التي أبقاها الإسلام ، غير أنه غير صيغتها القديمة بما يتفق مع عقيدة التوحيد . فصارت على هذا النحو : « لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك ، والملك لا شريك لك »[1] . كما جعلها جزءاً من حج مكة ، بعد أن كانت تتم خارج مكة ، إذ كانت كل قبيلة تقف عند صنمها ، وتصلي عنده ثم تلبي ، قبل أن تقدم مكة[2] . وذلك بالنسبة لمن كان يحج مكة . فأبطل ذلك الإسلام ، وألغى ما كان من ذلك من حج أهل الجاهلية . وقد رأينا صيغ التلبيات ، وكيف كانت تلبيات القبائل خاصة بها ، تلبي كل قبيلة لصنمها ، وتوجه نداءها اليه .

وتردد جمل التلبية بصوت مرتفع ، ولعل ذلك لاعتقاد الجاهليين أن في رفع الصوت إفهاماً للصنم الذي يطاف له بأن الطائف قد لبى داعيه ، وأنه استجاب أمره وحرص على طاعته . وقد أشار بعض الكتاب ( الكلاسيكيين ) الى الصخب والضجيج الذي كان يرتفع في مواضع الحج بسبب هذه التلبية .

وهناك مواضع أخرى غير متصلة بالبيت الحرام ، كانت مقدسة وداخلة في شعائر الحج ، منها عرفة ومنى والمزدلفة والصفا والمروة ، ومواضع أخرى كان يقصدها الجاهليون لقدسيتها أو لوجود صنم بها ، ثم حرمها الاسلام ، فنسيت وأهملت فذهبت معالمها مع ما ذهب من معالم الجاهليين .

وتقف الحمس في حجها على أنصاب الحرم من نمرة على نحو ما ذكرت أما الحلة والطلس ، أي غير الحمس من بقية العرب فيقفون على الموقف من عرفة ، عشية يوم (عرفة) . فإذا دفع الناس من عرفة وأفاضوا أفاضت الحمس من أنصاب الحرم حتى يلتقوا بمزدلفة جميعاً . وكانوا يدفعون من عرفة اذا طفلت الشمس للغروب وكانت على رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوههم . فيبيتون بمزدلفة حتى اذا كانت في الغلس وقفت الحلة والحمس على (قزح) ، فلا يزالون عليه حتى اذا طلعت الشمس وصارت على رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في

---

١ البخاري ، كتاب الحج ، الحديث ٣١ وما بعده ، عمدة القارىء (١٧٢/٩ وما بعدها)، بلوغ الارب (٢٨٨/٢) ، ارشاد الساري (١٩٧/٣) ، (باب التلبية والتكبير اذا غدا من منى الى عرفة) .

٢ اليعقوبي (٢٢٥/١) ، (أديان العرب) .

وجوههم دفعوا من مزدلفة ، وكانوا يقولون : أشرق ثبير كيما نغير[1] .

ومن مناسك الحج الطواف بالصفا والمروة ، وعليها صنمان : اساف ونائلة . وكان الجاهليون يمسحونهما[2] . وكان طوافهم بهما قدر طوافهم بالبيت، أي سبعة أشواط . تقوم بذلك قريش ، أما غيرهم فلا يطوفون بهما ، وذلك على أغلب الروايات . ويظهر ان الصفا والمروة من المواضع التي كان لها أثر خطير في عبادة أهل مكة . ففي حج أهل مكة طوافان : طواف بالبيت ، وطواف بالصفا والمروة .

وبين الصفا والمروة يكون ( السعي ) في الاسلام ، ولذلك يقال للمسافة بين المكانين ( المسعى ) . وكان إساف بالصفا ، وأما نائلة فكان بالمروة[3] . ولا بد ان يكون لاقتران الاسمين دائماً سبب ، و ( المسعى ) هو الرابط المقدس بين هذين الموضعين المقدسين عند الجاهليين .

وكان أهل مكة يتبركون بلمس الحجر الأسود ، ثم يسعون بين الصفا والمروة. ويطوفون بإساف أولاً ويلمسونه ، كل شوط من الطواف ثم ينتهون بنائلة . ويلبّون لها : وكانت تلبيتهم لها : « لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك »[4] . وذكر أن ( الأنصار ) ، لما قدموا مع النبي في الحج ، كرهوا الطواف بين الصفا والمروة لأنهما كانا من مشاعر قريش في الجاهلية ، وأرادوا تركه في الاسلام . وذكر أن قوماً من المسلمين قالوا : يا رسول الله لا نطوف بين الصفا والمروة ، فإنه شرك كنّا نصنعه في الجاهلية . فكان أهل الجاهلية إذا طافوا بين الصفا والمروة مسحوا الوثنين، فلما جاء الاسلام وكسرت الاصنام ، كره المسلمون الطواف بينهما لأجل الصنمين ، فأنزل الله : « إن الصفا والمروة من شعائر الله »[5] . ويتبين من غربلة الأخبار أن الذين كانوا يطوفون بالصنمين المذكورين ويسعون بينهما ، هم من عبّاد الصنمين وهم قريش

---

١ الازرقي (٢/٢٢٦) ، مسند ابن حنبل (١/٣٩ ، ٤٢ ، ٥٠ ، ٥٢) ، الأم للشافعي (٢/١٨٠) ،

٢ البلدان (٥/٣٦٥) ، (٨/٣٨) ، ارشاد الساري (٣/١٨٧) .

٣ Reste, S. 77.

٤ المحبر (٣١١) ، الازرقي (١/١١٢) .

٥ البقرة ، الآية ١٥٨ ، أسباب النزول (٣٠ وما بعدها) ، تفسير الطبري (٢/٤٣) ، (طبعة البابي ١٩٥٤م) .

خاصة ، وليس كل من كان يحج الى مكة من العرب ، ولذلك كرهوا الطواف في الإسلام بالصفا والمروة . وقد استبدل الإسلام بالطواف السعي ، لهدم الصنمين اللذين كان الناس يطوفون حولها واكتفى بالسعي بين الموضعين .

وذكر بعض العلماء أن العرب عامة كانوا لا يرون الصفا والمروة من الشعائر ولا يطوفون بينهما فأنزل الله : « إن الصفا والمروة من شعائر الله »[1] ، أي لا تستحلون ترك ذلك[2] . وذكر أن الأنصار كانوا يهلّون لمناة في الجاهلية ، فلما جاء الاسلام قالوا : يا نبي الله إنا كنا لا نطوف بين الصفا والمروة تعظيماً لمناة، فهل علينا من حرج أن نطوف بهما ، فأنزل الله الآية المذكورة . وكان أهل (تهامة) ممن لا يطوفون أيضاً بين الصفا والمروة ، فلما جاء الاسلام ونزل الأمر بالطواف بالبيت ، ولم ينزل بالطواف بين الصفا والمروة ، قيل للنبي : انا كنا نطوف في الجاهلية بين الصفا والمروة وان الله قد ذكر الطواف بالبيت ولم يذكر الطواف بين الصفا والمروة فهل علينا من جناح أن لا نطوف بهما . فنزل الوحي: « ان الصفا والمروة من شعائر الله » ، فصار الطواف بين الصفا والمروة لجميع الحجاج ، لا كما كان في عهد الجاهلية . من اقتصاره على قريش وبعض العرب المتأثرين بهم . فكانوا يطوفون بهما ويمسحون بالوثنين إساف ونائلة ، فلما جاء الاسلام تحرج بعض الناس وفيهم قوم من قريش من الطواف بينها لأنهما من شعائر الجاهلية ، فنزل الأمر به[3] .

وذكر أهل الأخبار ان السعي بين الصفا والمروة ، شعار قديم من عهد هاجر أم اسماعيل . وأما رمل الطواف ، فهو الذي أمر به النبي ، أصحابه في عمرة القضاء ليُري المشركين قوتهم ، حيث قالوا : وهنتهم حمى يثرب[4] .

---

١ البقرة ، الآية ١٥٨ .

٢ تاج العروس (٣/٣٠٤) ، (شعر) ، روح المعاني (٢/٤١ ، تفسير القرطبي ، الجامع (٢/١١٤) ، الازرقي (٧٤) ، تفسير ابن كثير (١/١٩٨) ، صحيح البخاري (١/٤١٤) ، الموطأ (١/٣٧٣) ، ارشاد الساري (٣/١٨٧) .

٣ تفسير الطبري (٢/٢٧ وما بعدها) ، الطبرسي (٢/٤٥) ، ابن كثير (١/١٨٨ ، ٢٠٠ ) ، البخاري (١/٤١٤ ) ، ( باب ٧٩) ، الموطأ (١/٦٥٣) ، (١/٣٧١) ، (باب ٤٠) .

٤ اللسان (١١/٢٩٥ وما بعدها) ، (رمل) .

وورد في خبر عن ( عائشة ) انها قالت : « إن الأنصار كانوا يهلّون في الجاهلية لصنمين على شط البحر ، يقال لهما : إساف ونائلة ، ثم يجيئون، فيطوفون بين الصفا والمروة ثم يحلقون ، فلما جاء الاسلام ، كرهوا ان يطوفوا بينهما للذي كانوا يصنعون في الجاهلية ، فأنزل الله عز وجل : إن الصفا والمروة من شعائر الله الى آخرها . قالت : فطافوا » . وهو خبر يناقض أخباراً أخرى يتصل سندها بـ ( عائشة ) ، تجمع على انهـا قالت : إن الأنصار أو الأنصار وغسان كانوا قبل ان يسلموا يصلّون لمناة ، فلا يحل لهم ان يطوّفوا بين الصفا والمروة، وكان ذلك سنّة في آبائهم من أحرم لمناة لم يطف بين الصفا والمروة[1] ، ولم أجـد في خبر آخر شيئاً يفيد ان إسافاً ونائلة كانا على ساحل البحر .

و ( السعي ) في الاسلام سبعة أشواط ، تبدأ بالصفا ، وتختتم بالمروة . وعندما يصل الحاج حد (السعي ) يسعى ويهرول ، فإذا جاز الحد مشى. وكان الجاهليون يبدأون بـ ( الصفا ) وينتهون بـ ( المروة ) كذلك[2] .

ومن مناسك حج أهل الجاهلية الوقوف بـ ( عرفة ) ، ويكون ذلك في التاسع من ذي الحجـة ويسمى ( يوم عرفة ) . ومن ( عرفة ) تكون ( الإجـازة ) للإفاضة الى ( المزدلفة ) ، ومن ( المزدلفة ) الى ( منى ) . وقد كان الجاهليون من غير قريش يفيضون في عرفة عند غروب الشمس ، وأما في المزدلفة فعنـد شروقهـا . وكان الذي يتولى الإجازة رجلاً من تميم يقال له (صوفـة ) ، ثم انتقلت الى ( صفوان ) من تميم كذلك[3] . ولم يكن ( الحمس ) يحضرون عرفة ، وإنما يقفون بالمزدلفة ، وكان سائر الناس يقف بعرفة . ولما رأى أحـد الصحابة رسول الله واقفاً بعرفة عجب من شأنه وأنكر منه ما رأى لأنه من الحمس ، وما كان يظن أنه يخالف قومه في ذلك ، فيساوي نفسه بسائر الناس[4] . فأنزل الله : « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ، واستغفروا الله إن الله غفور رحـيم »[5] ،

---

١ صحيح مسلم (٦٨/٤) ، (باب بيان أن السعي بين الصفـا والمـروة ركن لا يصح الحج الا به) .

٢ راجع باب الحج في كتب الحديث والفقه .

٣ ابن هشام (٧٧ ، ٨٢) ، اللسان (١٩١/٧) ، تاج العروس (١٩٣/٦) ، الروض الانف (٨٦/١) ، الصحاح (١٠٩٩/٣) ، البلدان (١٠٤/٤) .

٤ ارشاد الساري (٢٠٠/٣) ، تفسير الطبرسي (٢٩٦/٢) ، تفسير ابن كثير (٢٤٢/١ وما بعدها) ، أسباب النزول (٤٢) .

٥ البقرة ، الآية ١٩٩ .

فشمل ذلك الحمس وغيرهم . فأخذوا يقفون كلهم موقف عرفة ، ووضع عن قريش ما فعلوه من تمييز أنفسهم عن الناس[1] .

وورد في روايات أخرى ، أن قريشاً وكل حليف لهم وبني أخت لهم ، لا يفيضون من عرفات ، إنما يفيضون من المغمس ، وورد أن قريشاً وكل ابن أخت وحليف لهم ، لا يفيضون مع الناس من عرفات ، يقفون في الحرم ولا يخرجون منه . يقولون : إنما نحن أهل حرم الله ، فلا نخرج من حرمه ، وأنهم قالوا « نحن بنو ابراهيم وأهل الحرمة وولاة البيت ، وقاطنوا مكة وساكنوها ، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ، ولا مثل منزلنا ، ولا تعرف له العرب مثل ما نعرف لنا ، فلا تعظموا شيئاً من الحل ، كما تعظمون الحرم . فإنكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمكم ، وقالوا : قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم فتركوا الوقوف على عرفة والافاضة منها »[2] .

وذكر أن قريشاً ومن دان بدينها تفيض من ( جمع ) من المشعر الحرام[3] . و ( جمع ) المزدلفة[4] .

و ( عرفة ) أو ( عرفات ) موضع على مسافة غير بعيدة عن مكة[5] . لا بد وان يكون من المواضع التي كان يقدسها أهل الجاهلية ، وان يكون له ارتباط بصنم من الأصنام ، وإلا لما صار جزءاً من أجزاء مناسك الحج وشعائره عند الجاهليين . ويقف الحجاج موقف عرفة من الظهر الى وقت الغروب . وقد يكون لموقف الجاهليين في عرفة وقت الغروب علاقة بعبادة الشمس . فإذا غربت الشمس اتجه الحجاج الى ( المزدلفة ) .

---

١ تفسير الطبري (٢/١٦٦ وما بعدها) .

٢ تفسير الطبري (٢/١٧٠) .

٣ أسباب النزول (٤٢) .

٤ قال أبو ذؤيب :

فبات بجمع ثم تم الى منى فأصبح رادا يبتغي المزج بالسحل

تاج العروس (٥/٣٠٥) ، (جمع) .

٥ ( وعرفات ، موقف الحاج ذلك اليوم على اثني عشر ميلا من مكة ) ، تاج العروس (٦/١٩٣) ، تفسير الطبري (٤/١١٤ وما بعدها) ، أخبار مكة (١/١١٥ وما بعدها) .

**الإفاضة :**

ومن ( عرفة ) تكون الإفاضة الى ( المزدلفة ) . و ( المزدلفة ) ، موضع يكاد يكون على منتصف الطريق بين ( عرفة ) و ( منى ) . وفيه يمضي الحجاج ليلتهم ، ليلة العاشر من ( ذي الحجة ) . ومنه تكون الإفاضة عند الشروق الى ( منى ) . وقد نعت بـ ( المشعر الحرام ) في القرآن الكريم[1] . ويذكر أهل الأخبار ان ( قصي بن كلاب ) ، كان قد أوقد ناراً على (المزدلفة) حتى يراها من دفع من عرفة ، وان العرب سارت على سنته هذه ، وبقيت توقدها حتى في الاسلام[2] . ولا بد وان يكون من المواضع الجاهلية المقدسة كذلك ، التي كان لها صلة بالأصنام . وقد ذكر علماء اللغة اسم جبل بالمزدلفة دعوه ( قزحاً ) ، قالوا انه ( هو القرن الذي يقف عنده الإمام )[3] ، وذكروا ان (قزح) اسم شيطان[4] . ونحن نعرف اسم صنم يقال له ( قزاح ) ، قد تكون له صلة بهذا الموضع .

ويفيض الحجاج في الجاهلية عند طلوع شمس اليوم العاشر من ذي الحجة من ( المزدلفة ) الى ( منى ) ، لرمي الجمرات ولنحر الأضحية . و( منى ) موضع لا يبعد كثيراً عن مكة . ولعلماء اللغة آراء في سبب التسمية ، من جملتها انها عرفت بذلك لما يمنى بها من الدماء[5] . وذكر بعض أهل الأخبار ان (عمرو بن لحي) نصب بمنى سبعة أصنام ، نصب على (القرين) القرن الذي بين مسجد منى والجمرة الأولى صنماً ، ونصب على الجمرة الأولى صنماً ، وعلى الجمرة الوسطى صنماً ، وعلى شفير الوادي صنماً[6] . ولا بد أن يكون لهذا الموضع صلة بالأصنام ، نظراً لما له من علاقة متينة بمناسك الحج . وقد يكون لرمي الجمرات ولنحر الذبائح صلة بتلك الأصنام .

---

١ سورة البقرة ، الآية ١٩٨ ، تفسير الطبري (٢/١٦٤) ، روح المعاني (٢/٧٤) ، تفسير ابن كثير (١/٢٤٢) .

٢ نهاية الارب (١/١٠٩) ، (ذكر نيران العرب) ، صبح الاعشى (١/٤٠٩) ، الازرقي ( ٣٦ ، ١٣٠ ، ٤١١ ، ٤١٥ ) ، (وستنفلد) ، ابن هشام (٧٧) ، ابن سعد (١/٧٢)، (صادر) ، اللسان (٩/١٣٨) ، البلدان (٤/٥١٩) ، تاج العروس (٦/١٣١) .

٣ تاج العروس (٢/٢٠٧) ، (قزح) .

٤ تاج العروس (٢/٢٠٧) ، (قزح) .

٥ تاج العروس (١٠/٣٤٨) ، (منى) .

٦ الازرقي (٢/١٤٢) .

وقد ذكر العلماء «أن المشركين كانوا لا يفيضون حتى تطلع الشمس، ويقولون: أشرق ثبير »[1] . وأن النبي خالفهم ، فأفاض حين أسفر قبل طلوع الشمس »[2]. وفي فعل المشركين ذلك ، ووقوفهم انتظاراً للإفاضة عند طلوع الشمس ، دلالة على عبادة الشمس عندهم ، ولهذا غيّر الرسول هذا الوقت .

و ( رمي الجمرات ) بمنى من مناسك الحج وشعائره . وهو من شعائر الحج كذلك المعروفة في المحجات الأخرى من جزيرة العرب . كما كان معروفاً عند غير العرب أيضاً . وقد أشير اليه في التوراة[3] . وهو معروف عند ( بني إرم)[4]. وكلمة ( رجم ) من الكلمات السامية القديمة . وقد وردت في حديث ( عبدالله ابن ( مغفل ) : لا ترجموا قبري ، أي لا تجعلوا عليه الرجم ، وهي الحجارة، على طريقة أهل الجاهلية ، ولا تجعلوه مسنّماً مرتفعاً[5] . وقد فعله أهل الجاهلية على سبيل التقدير والتعظيم . فكان أحدهم إذا مرّ بقبر ، وأراد تقدير صاحبه وتعظيمه وضع رجمة أو رجاماً عليه .

( والجمرات ) ، أي مواضع ( رمي الجمرات ) عديدة عند الجاهليين ، يطاف حولها ، ويحج اليها[6] منها مواضع أصنام ، وأماكن مقدسة ، ومنها قبور أجداد . وقد ورد قسم بها في بيت ينسب الى شاعر جاهلي[7] . وترمى الجمرات على مكان عرف بـ ( جمرة العقبة ) وبـ ( الجمار ) وبـ ( موضع الجمار ) وهو بـ ( منى ) ، وتتجمع وتتكوم عنده الحصى . وهي جمرات ثلاث : الجمرة

---

١ ارشاد الساري (٣/ ٢١٠) .

٢ المصدر نفسه .

٣ التكوين ، الاصحاح الحادي والثلاثون ، ( وقال لابان ليعقوب : هوذا هذه الرجمة ، وهو ذا النصب الذي وضعت بيني وبينك ) ، الآية ٥١ .

٤ Shorter Ency., p. 464, Reste, S. 112.

٥ النهاية ( ٢/ ٧٤ ) ) اللسان ( ١٥/ ١١٧ وما بعدها ) ، تاج العروس ( ٨/ ٣٠٤ ومابعدها ) ، ( رجم ) .

٦ المشرق : السنة التاسعة والثلاثون ، تموز ـ أيلول ١٩٤١ م ، (٢٤٦) ، Reste, S. 111.

٧ فاقسم بالذي قد كان ربي وأنصاب لدى الجمرات مغر
ابن هشام (٥٣٤) ، المشرق ، الجزء المذكور . قال حذيفة بن أنس الهذلي :
لأدركهم شعث النوامي كانهم سواشق حجاج توافي المجمرا
اللسان ( ٥/ ٢١٧ ) .

الأولى ، والجمرة الوسطى ، وجمرة العقبة [1] .

ويرجع أهل الأخبار مبدأ رمي الجمرات الى ( عمرو بن لحي ) . يذكرون انه جاء بسبعة أصنام فنصبها بـ ( منى ) ، عند مواضع الحجرات ، وعلى شفير الوادي ، ومواضع أخرى ، وقسم عليها حصى الجمار ، احدى وعشرين حصاة ، يرمي كل منها بثلاث جمرات ، ويقال للوثن حين يرمى : أنت أكبر من فلان الصنم الذي يرمى قبله [2] .

وكانت إفاضة الجاهليين على هذا النحو : كان أمر الإفاضة بيد رجل من أسرة تناوبت هذا العمل أباً عن جد . وقد اشتهر منهم رجل عرف بـ ( عميلة ابن خالد العدواني ) ، واشتهر بين الناس بـ ( أبي سيّارة ) . كان يجيز الناس من المزدلفة الى منى أربعين سنة . يركب حماراً أسود ، وينظر الى أعالي جبل ( ثبير ) ، فإذا شاهد عليها أشعة الشمس الأولى نادى : أشرق ثبير ، كيما نغير ! ثم يجيز لهم بالإفاضة وفيه يقول الشاعر :

خلّوا الطريق عن أبي سيّاره وعن مواليه بني فزاره
حتى يجيز سالماً حماره مستقبل القبلة يدعو جاره
فقد أجار الله من أجاره [3]

وضرب به المثل ، فقيل : أصح من عير أبي سيّارة [4] .

وذكر ( الجاحظ ) أن اسم ( أبي سيّارة ) ( عميلة بن أعزل ) ، دفع بأهل الموسم أربعين عاماً ، ولم يكن عيره عيراً وإنما كان أتاناً ، ولا يعرفون حماراً وحشياً عاش وعمّر أطول من عير ( أبي سيارة ) [5] .

---

١ تاج العروس ( ٣/١٠٧ ) ، ( حجر ) ، ( ١٠/٣٤٨ ) ، ( منى ) .
٢ الازرقي ، أخبار ( ص ٤٠٢ ) ، ( لايبزك ) .
٣ اللسان ( ٧/١٩١ ) ، الروض الانف ( ١/٨٦ ) ، الميداني ( ١/٤٢١ وما بعدها ) ، البلدان ( ٣/٦ ) ، ( ثبير ) ، البكري ( ١/٣٣٥ ) ، ( طبعة السقا ) ، ( وأبو سيارة : عميلة بن أعزل ) ، الحيوان ( ٧/٢١٥ ) ، ( عبد السلام محمد هارون ) ، ارشاد الساري ( ٣/٢١٠ ) .
٤ تاج العروس ( ٣/٢٨٧ ) ، ( سير ) ، نهاية الارب ( ١٦/٣٦ وما بعدها ) .
٥ الحيوان ( ١/١٣٩ ) .

وورد أن الذين كان لهم أمر الإجازة بالحجاج،وهي الإفاضة ، هم (صوفة) . وهم حيّ من مضر من نسل ( الغوث بن مرّ بن اد بن طابخة بن الياس بن مضر ) ، وقد سمّوا ( صوفة ) و ( آل صوفة ) ، لأن ( الغوث ) أبوهم جعلت أمه في رأسه صوفة وجعلته ربيطاً للكعبة تخدمها . وكانوا يخدمون الكعبة ويجيزون الحاج ، أي يفيضون بهم ، فيكونون أول من يدفع . وكان أحدهم يقوم فيقول : أجيزي صوفة ، فإذا أجازت ، قال : أجيزي خندف ، فإذا أجازت أذن للناس كلهم في الإجازة . وكانت الاجازة بالحج اليهم في الجاهلية . وكانت العرب إذا حجت وحضرت عرفة لا تدفع منها حتى تدفع بها صوفة ، وكذلك لا ينفرون من ( منى ) حتى تنفر ( صوفة ) ، فإذا أبطأت بهم، قالوا: أجيزي صوفة . وورد أن ( صوفة ) قوم من ( بني سعد بن زيد مناة ) من تميم[1] .

ويفهم من رواية أن كلمة ( صوفة ) لم تكن اسم علم ، وإنما هي لفظة أطلقت على من كان يتولى البيت أو قام بشيء من خدمته ، أو بشيء من أمر المناسك[2] . فهم من رجال الدين ، تخصصوا بالإجازة بالناس في مواسم الحج . ولعلهم كانوا يضعون على رأسهم صوفة على هيأة عمامة أو عصابة ، أو عطر ، لتكون علامة على أنهم من أهل بيت دين وشرف . فعرفوا بـ ( صوفة ) وبـ ( آل صوفة ) وبـ ( صوفان ) . وفي ذلك قال ( مرة بن خليف الفهمي ) ، وهو شاعر جاهلي قديم :

إذا ما أجازت صوفة النقب من منى ولاح قتار فوقه سفع الدم[3]

و ( يظهر ) من الروايات الواردة عن ( ثبير ) ، أنه كان من المواضع المقدسة عند الجاهليين،أو أن على قمته صنماً أو بيتاً كانوا يصعدون اليه لزيارته وللتبرك به[4].

ومن الشعائر المتعلقة بمنى نحر الذبائح ، وهي الأضحية في الاسلام و (العتائر)

---

١ تاج العروس ( ٦/١٦٩ ) ، ( صوف ) ، معجم الشعراء (٣٨٢) ، ابن هشام ( ١/٧٧ ، ٨٢ ) .

٢ الروض الانف ( ١/٨٥ ) .

٣ معجم الشعراء ( ٣٨٢ ) .

٤ المشرق ، السنة التاسعة والثلاثون ( ١٩٤١ م ) ، ( ص ٢٥٩ ) .

في الجاهلية . ولذلك عرف هذا العيد : عيد الحج بـ ( عيد الأضحى ). وعرف اليوم الذي تضحى به الأضحية بـ ( يوم النحر ) وبـ ( الأضحى ) وبـ ( يوم الأضحى ) . وكانوا ينحرونها على الأنصاب وعلى مقربة من الأصنام ، فتوزع على الحاضرين ليأكلوها جماعة أو تعطى للأفراد . وقد تترك لكواسر الجو وضواري البر فلا ( يصد عنها انسان ولا سبع )[1] . وتبلغ ذروة الحج عند تقديم العتائر ، لأنها أسمى مظاهر العبادة في الأديان القديمة .

وكان الجاهليون يقلدون هديهم بقلادة ، أو بنعلين ، يعلقان على رقبتي الهدي ، اشعاراً للناس بأن الحيوان هو هدي ، فلا يجوز الاعتداء عليه ، كما كانوا يشعرونه . والإشعار الإعلام . وهو ان يشق جلد البدنة أو يطعن في اسنمها في أحد الجانبين بمبضع أو نحوه ، وقيل في سنامها الأيمن حتى يظهر الدم ويعرف انهـا هدي . والشعيرة البدنة المهداة[2] .

وكان بعض أهل الجاهلية ، يسلخون جلود الهدي ، ليأخذوها معهم . ويتفق هذا مع لفظة ( تشريق ) التي تعني تقديد اللحم . ومنه سميت ايام التشريق ، وهي ثلاثة أيام بعد يوم النحر ، لأن لحوم الأضاحي تشرق فيها ، أي تشرّر في الشمس[3] . وقيل سمي التشريق تشريقاً ، لأن الهدي لا ينحر حتى تشرق الشمس[4]. ويظهر ان الجاهليين كانوا ينحرون قبيل شروق الشمس وعند شروقها ، بدليـل ما ورد في الحديث من النهي عن ذلك . ومن حديث : من ذبح قبل التشريق فليعد . أي قبل أن يصلي صلاة العيد ، وهو من شروق الشمس واشراقها ، لأن ذلك من وقتها[5] .

ولا يحل للحجاج في الجاهلية حلق شعورهم أو تقصيرها طيلة حجهم ، وإلاّ بطل حجّهم . ويلاحظ أن غـير العرب من الساميين كانوا لا يسمحون بقص الشعر في مثل هذه المناسبات الدينية أيضاً ، لما للشعر من أهمية خاصة في الطقوس

---

١ ابن هشام (١٠٠) ، المشرق : السنة السابعة والثلاثون ، كانـون الثاني ـ اذار ١٩٣٩ م ، (٩٢) .

٢ نقتلهم جيلا فجيلا تراهم شعائر قربان بها يتقرب
تاج العروس ( ٣٠٣/٣ وما بعدها ) ، ( شعر ) .

٣ تاج العروس ( ٣٩٣/٦ ) ، ( شرق ) .

٤ المصدر نفسه .

٥ تاج العروس ( ٣٩٣/٦ ) ، ( شرق ) .

الدينية عندهم ، ولا سيما اللحية لما لها من علاقة بالدين . ولهذا نجد رجال الدين والزهاد والأتقياء الورعين يحافظون عليها ويعتبرونها مظهراً من مظاهر التدين[1] .

وقد كانت القبائل لا تحلق شعورها في مواسم حجّها إلا عند أصنامها ، فكان الأوس إذا حجوا وقفـوا مع الناس المواقف كلها ولا يحلقون رؤوسهم ، فإذا نفروا أتوا صنمهم مناة فحلقوا رؤوسهم عنده ، وأقاموا لا يرون لحجّهم تماماً إلا بذلك[2] . وكانت قضاعة ولخم وجذام تحج للأقيصر وتحلق عنده[3] .

وكان من عادة بعض القبائل ، مثل بعض قبائل اليمن ، القاء قرة من دقيق مع الشعر[4] . وذلك أن أهل اليمن كانوا إذا حلقوا رؤوسهم بمنى وضع كل رجل على رأسه قبضة دقيق ، فإذا حلقوا رؤوسهم سقط الشعر مع ذلك الدقيق،ويجعلون ذلك الدقيق صدقـة ، فكان ناس من أسد وقيس يأخذون ذلك الشعر بدقيقه ، فيرمون بالشعر وينتفعون بالدقيق . وفي ذلك يقول معاوية بن أبـي معاوية الجرمي :

ألم ترَ جرمـاً أنجدت وأبوكم  مع الشعر في قص الملبد شارع
إذا قرة جاءت تقول أصب بها  سوى القمل إني من هوازن ضارع[5]

وكان من يقصد العزى يذبح عند شجرة هناك ثم يدعون ، وكان من يقصد مناة يهدي لها كما كان غيرهم يهدي للكعبة ويطوفون بهـا ثم ينحرون عندها ، وكان عبدة ذي الخلصة في أسفل مكة يذبحون عنده كذلك[6] . وكذلك كانت بقية القبائل تطوف في أعيادها حول أصنامها ، وتهدى اليها ، ثم تنحر عندها عنـد اكمالها هذه الشعائر دلالة على اكمالها شعائر الحج الى هذه المواضع وانتهائها منها على أحسن وجه .

وتميز الحيوانات التي يهيئها أصحابها أو مشتروها للذبح في الحج بعلامات، بأن توضع عليها قلائد تجعلها معروفة ، أو ان يحدث لها جرح ليسيل منه الدم ليكون ذلك علامة انها هدي . ويقال لذلك إشعار ، ومنه إشعار البدن ، وهو ان يشق

---

١ Smith, p. 323.
٢ الاصنام ( ص ١٤ ) ، البلدان ( ٨/١٦٩ ) ، الازرقي ( ١/٧٣ ) .
٣ الاصنام ( ص ٤٨ ) ، البلدان ( ١/٣١٤ ) ، Reste, S. 62.
٤ الاصنام ( ص ٤٨ ) ، البلدان ( ١/٣١٤ وما بعدها ) ، Reste, S. 62. ff.
٥ تاج العروس ( ٣/٤٨٦ ) ، ( قرر ) .
٦ بلوغ الارب ( ١/٣٤٤ وما بعدها ) .

أحد جنبي سنام البدنة حتى يسيل منه الدم ليكون ذلك علامة الهدي[1] . وقد كان من أهل مكة من يتخذ من لحاء شجر الحرم قلادة يضعها في عنق البدن ، لتكون دلالة على انها هدي ، فلا يعترضها أحد[2] .

ويجوز للحجاج مغادرة ( منى ) في اليوم العاشر من ذي الحجة ، أي في اليوم الأول من العيد ، ففي هذا اليوم يكمل الحجاج حجهم ، ولكن منهم من يمكث في هذا الموضع حتى اليوم الثالث عشر ، وذلك ابتهاجاً بأيام العيد ، ومشاركة لاخوانه فيه . ويقال لذلك ( التشريق ) . وايام التشريق هي ثلاثة أيام بعد يوم النحر[3] .

وكان أهل الجاهلية اذا قضوا مناسكهم وفرغوا من الحج ، وذبحوا نسائكهم ، يجتمعون فيتفاخرون بمآثر آبائهم ، فيقول بعضهم لبعض : كان أبي يطعم الطعام ، ويقول بعضهم : كان أبي يضرب بالسيف ، ويقول بعضهم : كان أبي جزّ نواصي بني فلان . يقولون ذلك عند ( الجمرة ) ، أو عند البيت ، فيخطب خطيبهم ويحدث محدثهم . أو انهم كانوا اذا قضوا مناسكهم وأقاموا بمنى قعدوا حلقاً ، فذكروا صنيع آبائهم في الجاهلية وفعالهم به ، يقوم الرجل ، فيقول : اللهم ان أبي كان عظيم الجفنة عظيم القبّة كثير المال ، وما شاكل ذلك ، فنزل الوحي : « فإذا قضيتم مناسككم ، فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً »[4] .

وكانوا إذا خرج أحدهم من بيته يريد الحج ، تقلد قلادة من لحاء السمر ، دلالة على ذهابهم الى الحج ، فيأمن حتى يأتي أهله . وذكر انه كان يقلد نفسه وناقته ، فإذا أراد العودة عادوا مقلدين بلحاء السمر . وروي أنهم إذا أرادوا الحج مقبلين الى مكة يتقلدون من لحاء السمر ، وإذا خرجوا منها الى منازلهم منصرفين منها ، تقلدوا قلادة شعر فلا يعرض لهم أحد بسوء . بقي ذلك شأنهم حتى نزل الأمر بمنع دخول المشركين مكة وبوجوب قتلهم حيث وجدوا[5] .

---

١ النهاية ( ٢/٤٤٢ ) .
٢ اللسان ( ٤/٣٦٩ ) ، ( ٦/٨١ وما بعدها ) ، الموطأ ( ١/٢٤٩ ) ، مسند ابن حنبل ( ١/٢١٦ ، ٢٥٤ ، ٢٨٠ ، ٢٤٩ ، ٣٣٤ ، ٣٣٩ ) ، ( ٦/٣٥ ، ٨٢ ، ٨٧ ) .
٣ تاج العروس ( ٦/٣٩٣ ) . ( شرق ) .
٤ البقرة ، الآية ٢٠٠ ، تفسير الطبري ( ٢/١٧٢ وما بعدها ) ، تفسير الطبرسي ( ٢/٢٩٦ وما بعدها ) ،
٥ تفسير الطبري ( ٦/٣٧ وما بعدها ) ، اللسان ( ٣/٣٦٧ ) ، ( قلد ) .

## التجارة في الحج :

قـال علماء التفسير : كان متجر الناس في الجاهلية : عكاظ وذو المجاز ، فكانوا إذا أحرموا لم يتبايعوا حتى يقضوا حجهم . ويقولون أيام الحج أيام ذكر. وقالوا : « كان هذا الحي من العرب لا يعرجون على كسير ولا ضالة ليلة النفر. وكانوا يسمّونها ليلـة الصدر ، ولا يطلبون فيها تجارة ولا بيعاً » . وقالوا : « كان بعض الحاج يسمّون الداج . فكانوا ينزلون في الشق الأيسر من منى . وكان الحاج ينزلون عند مسجد منى ، فكانوا لا يتجرون حتى نزلت ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم . هي التجارة . قال : اتجروا في الموسم »[1] . والصدر الإفاضة . ومنه طواف الصدر . وهو طواف الإفاضة[2] .

والداج : الأجراء والمكارون والأعوان ونحوهم الذين مع الحاج[3] . وذكر ان قوماً جاءوا الى ( عبدالله بن عمر ) ، فقالوا : « انا قوم نكـرى ، فيزعمون انه ليس لنا حج . قال : ألستم تحرمون كما يحرمون ، وتطوفون كما يطوفون ، وترمون كما يرمون ؟ » قالوا بلى . قال فأنتم حاج[4] . ومن يكرى لخدمة الحاج ، فهو من الداج .

## العمرة :

و ( العمرة ) هي بمثابة ( الحج الأصغر ) في الاسلام ، وكان أهل الجاهلية يقومون بأدائها في شهر (رجب ) . وللعمرة في الاسلام شعائر ومناسك ، وتكون بالطواف بالبيت وبالسعي بين الصفا والمروة . ولا بد أن يكون لها عند الجاهليين شعائر ومناسك . وهي في الاسلام فردية اختيارية ، وهي تختلف بذلك عن الحج الذي هو فرض عين على كل مسلم مستطيع ، وجماعي ، أي ان المشتركين فيه يؤدونه جماعة[5] . أما بالنسبة الى الجاهليين ، فيظهر من ذكر العمرة في القـرآن

---

١ تفسير الطبري ( ٢/١٦٤ وما بعدها ) .
٢ تاج العروس ( ٣/٣٢٨ ) ، ( صدر ) .
٣ تاج العروس ( ٢/٣٩ ) ، ( دج ) .
٤ تفسير الطبري ( ٢/١٦٤ وما بعدها ) .
٥ Shorter Ency. of Islam, p. 604. ff.

الكريم انهم كانوا يؤدونها كما كانوا يؤدون الحج ، ولوقوعها في شهر رجب ، وهو شهر كان الجاهليون يذبحون العتائر فيه ، لعلنا لا نخطىء اذا قلنا إنهم كانوا يذبحون ذبائحهم في العمـــرة ، حينما يأتون أصنامهم فيطوفون حولهـــا ، أما في الاسلام ، فالعمرة دون الحج . وإذ كانت في شهر رجب في الجاهلية . كانت حجاً خاصاً مستقلاً عن الحج الآخر الذي يقع في شهر ذي الحجة. حرص الجاهليون على ألا يوافق موعدها موعد مواسم الحج ، لما كان لها من أهمية عظيمة عندهم قد تزيد على الطواف المألوف في شهر الحج[1] .

وورد ان أهل الجاهلية كانوا يرون ان العمـــرة من أشهر الحـــج : شوال وذي القعدة وتسع من الحجة وليلة النحر ، أو عشر أو ذي الحجة من الفجور في الأرض ، أي من الذنوب[2] ، ولكن بعضاً آخر كان يعتمر في كـل شهر ، ولا سيما في رجب ، حيث كانوا يحلقون رؤوسهم ويجيئون الى محجاتهم للعمرة . وورد ان أهل الجاهلية « كانوا يرون العمرة في أشهر الحج من أكبر الكبائر . ويقولون : اذا برأ الدبر ، وعفا الأثر ، وانسلخ صفر ، حلت العمرة لمن اعتمر »[3] .

وذكر ان الأشهر الحرم ثلاثة سرداً وواحداً فرداً ، وهو رجب . أما الثلاثة ، فليأمن من الحجاج واردين الى مكة وصادرين عنها ، شهراً قبل شهر الحـــج ، وشهراً بعده ، قدر ما يصل الراكب من أقصى بلاد العرب ، ثم يرجع . وأما رجب، فللعمّار يأمنون فيه مقبلين وراجعين نصف الشهر للإقبال ونصفه للاياب ، إذ لا تكون العمـرة من أقاصي بلاد العرب كما يكون الحـــج . وأقصى منازل المعتمرين بين مسيرة خمسة عشر يوماً[4] .

ويلبس المعتمر ( الاحرام ) أيضاً . وقـد كان الجاهليون يكتفون في عمرتهم بالطواف بالبيت ، أما ( السعي ) بين الصفا والمروة ، فأغلب الظن ان العرب لم يكونوا يقومون به . بدليل ما ورد في القرآن الكريم من قوله : « إن الصفا والمروة من شعائر الله، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه ان يطوّف بهما .

---

١ المشرق ، الجزء ٣٩ ( ١٩٤١ ) ، ( ص ٢٥٠ ) ، Reste, S. 84.
٢ ارشاد الساري ( ٦/١٧٤ ) .
٣ الروض الانف ( ١/٣٥١ ) .
٤ الروض الانف ( ٢/٦٠ ) .

ومـــن تطوّع خيراً فان الله شاكر عليم »[1] . ففي هـــذا النص دلالة على ان الجاهليين من غير قريش لم يكونوا يدخلون السعي بينهما في شعائر الحج أو العمرة، وان الله أمر بادخاله فيها . أما موقف الجاهليين بالنسبة لطواف العمرة،فهو نفس موقفهم بالنسبة للطواف بالبيت في أثناء الحج ، والفرق بين الحج والعمرة ، ان الحج هو الاحرام ثم الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمـــروة وقضاء مناسك عرفة والمزدلفة والوقوف بالمواضع التي أمر بالوقوف بها ، بينما العمـــرة الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة[2] ، فلا يكون موقف عرفة من العمرة . وكان الجاهليون يحلقون رؤوسهم للعمرة ، ويكون حلق الرأس علامة لها . فاذا وجدوا رجلاً وقد حلق رأسه علموا انه من (العمار) ، فلا يمسونه بسوء ، إلا اذا مس أحداً بسوء احتراماً للعمرة ولشعائر الدين[3] .

والفرق بين العمرة والحج في الاسلام ، ان العمـــرة تكون للانسان في السنة كلها ، والحج في وقت واحد في السنة . وتمام العمـــرة ان يُطاف بالبيت ، ويسعى بين الصفا والمروة ، والحـج لا يكون إلا مـــع الوقوف بعرفة يوم عرفة واجراء بقية المناسك[4] .

وتقبيل الأحجار والأصنام واستلامها في أثناء الطواف أو في غير الطواف من الشعائر الدينية عند الجاهليين. كان في روعهم ان هذا التقبيل مما يقربهم الى الآلهة، ويوصلهم اليها ، فتقربوا اليها ونصبوها في مواضع ظاهرة ، ومسحوا أجسامهم بها تبركاً . وكلمة (تمسّح) من الكلمات التي لها معاني عند الجاهليين ، وكذلك كلمة ( استلم ) و ( استلام ) عند أهل مكة خاصة حيث استعملت بالنسبة للحجـــر الأسود . وطريقتهم ان يمر الانسان يده على الحجر المقدس أو ان يمسه بها إن صعب استلامه كله . وقد يعوض عن ذلك بعصا يمدها الانسان الى الحجـــر حتى

---

١ البقرة ، الآية ١٥٨ .

٢ تفسير الطبري ( ٢/١٢٠ وما بعدها ) .

٣ « وقد كان حلق رأسه ، فلما رأوه أمنوا ، وقالوا : عمار فلا بأس علينا منهم » ، تفسير الطبري ( ٢/٢٠٢ ) .

٤ اللسان ( ٦/٢٨٢ ) ، تاج العروس ( ٣/٤٢٢ وما بعدها ) ، اللسان ( ٤/٦٠٤ ) ، ( صادر ) ، البلدان ( ٤/١٥٤ ) ، الاقناع ( ١/٣٣٤ ، ٣٩٧ وما بعدها ) .

تلمسه ، وإذا تعذر الوصول اليه بسبب ما ، فيجوز أن يفعل ذلك راكباً على جمل [1] .

ومن هذا القبيل أيضاً طرق مطارق أبواب البيوت المقدسة طرقات خفيفة ، وامرار بعض الأشياء مثل الملابس على الأصنام والصخور والمواضع المقدسة لاكتساب البركة ، والتمسح بجدران البيت أو استلام أركانه أو التعلق بأطراف الكسوة . وتلطيخ الأحجار بدماء الضحية التي تقدم للأوثان وذلك بصب الدماء عليها ، أو بتلطيخها وتلويثها كلها أو جزء منها بدم الضحية ، توكيداً بإراقة دم الضحية في نفس من ضحيت الضحية من أجله [2] .

وقيل إن من شعائر الجاهليين في الحج أن الرجل منهم كان إذا أحرم ، تقلد قلادة من شعر ، فلا يتعرض له أحد . فإذا حجّ وقضى حجّه ، تقلد قلادة من ( إذْخِر ) ، والإذخر نبات زكي الرائحة ، وأن الرجل منهم يقلد بعيره أو نفسه قلادة من لحاء شجر الحرم ، فلا يخاف من أحد ، ولا يتعرض له أحد بسوء [3] . وتذكرنا هذه العادة بما يلبسه بعض الحجاج عند اتمامهم حجّهم وعودتهم الى بلادهم من لباس ( كوفية ) خاصة بأهل مكة ومن عقال حجازي وذلك بالنسبة للرجال ، وخمار أبيض بالنسبة للنساء ، وذلك طيلة الأيام السبعة الأولى من احتفالهم بالعودة من الحج .

ولم يكن الجاهليون القريبون من مكة أو البعيدون عنها يقصدونها في حج (عرفة) وعمرة ( رجب ) حسب ، بل كانوا يقصدونها في أوقات مختلفة وفي المناسبات ، للطواف حول الأصنام ، واستلام الحجر الأسود ، والتقرب الى الآلهة المحلية . وقد ساعد ذكاء سادة قريش الذي تجلى في جمعهم أكثر ما أمكنهم جمعه من أصنام القبائل في ( البيت الحرام ) ، على اجتذاب القبائل اليها ، وبذلك نشطوا في استغلال مواسم الحج والعمرة بالاستفادة من القادمين بالاتجار معهم ، وبيع ما

---

١ وفي الحديث أن الرسول طاف وسعى بين الصفا والمروة ، وهو على ظهر جمل ، البخاري ( ١/٦٦ ، ٢١١ ) ، السنن ( ٢/٣٧ ، ٣٩ ) ، مسلم ( ١/٤٨٦ ، ٤٨٨ )، الاغاني ( ١٣/١٦٦ ) ، المشرق ، السنة السابعة والثلاثون ، كانون الثاني – اذار ١٩٣٩ م ( ص ٨٧ وما بعدها ) .

٢ Reste, S. 109.

٣ بلوغ الارب ( ٢/٢٨٩ ) .

يحتاجون اليه من طعام وزاد ، فحصلوا على مال ، حسدهم عليه الآخرون . فكان الفضل في ذلك للبيت . والى ذلك أشير في القرآن ، في سورة ( قريش ) : « فليعبدوا رب هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف »[1] .

هذا ما عرفناه عن شعائر الحج الى مكة وعن مناسكه في الجاهلية المتصلة بالاسلام . أما عن الحج الى البيوت الأخرى وعن شعائره ومناسكه ، فلا نكاد نعرف من أمرهما شيئاً يذكر . ولكننا نستطيع ان نقول إن من أهم أركان الحج عند جميع الجاهليين ، وجوب مراعاة النظافة ، نظافة الجسم ونظافة الثياب . ولذلك ، كانوا اذا حجّوا لبسوا ملابس خاصة بالحج هي ( الاحرام ) أو ملابس جديدة ، أو ملابس مستعملة نظيفة مغسولة،وذلك لحرمة هذه المواضع وقدسيتها ، فلا يجوز دخولها بملابس وسخة دنسة ، واذا كانوا يلبسون أحسن ما عندهم عند ذهابهم الى مقابلة عظيم أو سيد قبيلة أو رجل محترم ، احتراماً له واجلالاً لشأنه، أفلا يجب اذن لبس خير ما عند الانسان من ثياب لدخول بيوت الآلهة ، ولا سيما في مواسم الحج ؟. وكان منهم من يوجب على نفسه الغسل وتنظيف جسده حين دخوله المعبد أو اعتزامه الحج .

وتقبيل الأصنام والأحجار واستلامها في أثناء الطواف ، والتمسح لها،من الشعائر الدينية اللازمة في الحج وفي غير مواسم الحج عند الزيارات . كان في روعهم ان هذا التقبيل مما يقربهم الى الآلهة ، ويوصلهم اليها، فتجعلها ترضى عنهم وتشفيهم مما هم فيه من سقم وأمراض ، فتقربوا اليها ومسحوا أجسامهم بها تبركاً وتقرباً. و (التمسح) بالصنم أو الحجر المقدس ، التبرك به لفضله وعبادته ، كأنه يتقرب الى الآلهة بالدنو منه ولمسه[2] . وقد كان رجال الدين يمسحون بأيديهم أجسام المرضى وثيابهم ، لازالة السوء عنهم . وقد ذكر أهل الأخبار ان الجاهليين كانوا يتمسحون بأصنامهم ، ويمسحون ظهورهم بها ، لاعتقادهم انها تشفيهم من كل ألم وسوء .

واستلام الصنم أو الحجر المقدس،هو نوع من أنواع التقدير والتعظيم والتقرب. ويراد بذلك تقبيل الحجر ولمسه وتناوله باليد ومسحه بالكف . واذا صعب الوصول

---

١ سورة قريش ، الرقم ١٠٦ ، رقم الآية ٣ وما بعدها ، تفسير الطبري ( ١٩٧/٣٠ )، روح المعاني ( ٢٤١/٣٠ ) .

٢ تاج العروس ( ٢٢٦/٢ ) ، ( مسح ) .

اليه لشدة الازدحام ، فقد يمدّ أحدهم قصبة أو عوداً أو عصاً اليه لمسّه، فيكون لمس هذه الأشياء له ، كأنه لمس حقيقي ، يجلب لصاحبه ما تمناه وطلبه ورجاه من ذلك الصنم أو الحجر[1] .

وقد أشار بعض (الكلاسيكيين) الى وجود غابة من النخيل في ركن من البحر الأحمر ، كان يؤمّها النبط للتبرك بها ، إذ كانت في نظرهم أرضاً مقدسة، عليها معبد من الحجر عليه كتابة ، وصفوها بأنها كتابة لا يستطيع اليوناني قراءتها ، وبه كهّان وكاهنات يقضون عمرهم في خدمة ذلك المعبد. قالوا : وفي كل خمس سنين يحج الناس اليه ، ويتجمعون عنده ، ويحضر معهم من في جوار المعبد من ناس ، فيذبحون ، ويتقربون الى آلهتهم . فإذا عادوا أخذوا معهم ماءً من ذلك المكان ، للتبرك به ، لاعتقادهم أنه يمنحهم الصحة والعافية . وذكر بعض آخر أن الحج الى هذا البيت كان مرتين في السنة : الحج الأول في مطلع السنة ، ويستغرق شهراً واحداً . أما الحج الثاني فيكون في نهاية الصيف، ويستغرق شهرين. وتكون هذه الأشهر الثلاثة أشهراً حرماً لا يحل فيها قتال ، يعمّها سلم أوجبته الآلهة على الانسان والحيوان[2] .

ونرى في هذه الشعائر مشابهة كبيرة لشعائر الحج في مكة . ولولا تعيين هؤلاء الكتبة المكان ، ونصهم على أنه على البحر الأحمر ، وانه غابة نخيل ، لانصرف الذهن الى مكة ، إذ نجد أن شعائر الحج فيها تشبه هذه الشعائر ، واستقاؤهم من ماء ( زمزم ) للتبرك به ، يشبه استقاء هؤلاء من بئر معبدهم هذا ، وقد أهمل أولئك الكتبة أسماء الأشهر الحرم الثلاثة ، فأضاعوا علينا فرصة ثمينة كانت تساعدنا كثيراً في الوقوف على تثبيت الأشهر عند الجاهليين .

ويلاحظ أن النبط كانوا يعقدون في أثناء هذه الأشهر الحرم سوقاً ، تذكرنا بسوق عكاظ التي كان يعقدها أهل الحجاز . ولا شك أن موسم الحج في المعبد المذكور ، الذي يتحول الى سوق للبيع والشراء ، يشبه موسم الحج في مكة حيث ينقلب أيضاً الى سوق .

---

١ اللسان ( ١٢/٢٩٧ ) ، ( سلم ) .

٢ Die Araber in der Alten Welt, I, S. 32. f.

## الأعياد :

والأعياد من جملة مظاهر الأديان وشعائرها . والحج في حد ذاته عيد من أعياد الجاهليين . وقد كانت للجاهليين أعياد لها صلة بأديانهم ، غير اننا لا نستطيع ان نتحدث بالطبع عن وجود أعياد عامة يعيّد فيها جميع الجاهليين عبدة الأصنام ، لأن الأعياد العامة تستدعي وجود ديانة واحدة وعبادة إلـه أو آلهة مشتركة يعبدها جميع القوم ، واذ كانت العرب لا تعبد إلهاً واحداً أو آلهة مشتركة يقدسها أهل الوبر وأهل المدر منهم جميعاً ، فلا يمكن ان نتصور وجود أعياد عامة لجميع العرب ، في عهود ما قبل الاسلام .

ولفظة العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد على رأي علماء اللغة [1] . وهو بالمعنى المعروف الذي يخص الاحتفالات الدينية من الألفاظ المعربة المأخوذة عن لغة بني إرم على رأي المستشرقين . فـ (عيدا) في الإرمية هي (العيد) في العربية [2] .

---

١ تاج العروس ( ٢/٤٣٨ ) ، اللسان ( ٤/٣١٣ ) ، بلوغ الارب ( ١/٣٤٤ ) .
٢ Ency., II, p. 444.

## الفصل الثالث والسبعون

# بيوت العبادة

والمعبد هو الموضع المخصص للعبادة . وقد وردت في النصوص الجاهلية وفي عربية القرآن الكريم ألفاظ تؤدي هذا المعنى ، فقد كان الجاهليون قد اتخذوا معابد ثابتة ومعابد متنقلة مثل بيوت الوبر ، تعبدوا بها الى معبوداتهم قبل الاسلام وقبل الميلاد .

فقد كانت القبائل في حركة دائمة ، بحثاً عن الغزو والكلأ والماء . وكانت آلهتها في حركة دائمة أيضاً ، ترحل مع المتعبدين لها ، وتستقر عند استقرارهم بمكان ما . وعند نزول القبيلة في موضع ما توضع الأصنام في قبتها ، وهي خيمة تقوم مقام المعبد الثابت عند أهل المدر . وتكون للخيمة بسبب ذلك قدسية خاصة ، وللموضع الذي تثبت عليه حرمة ما دامت الخيمة فوقه . وقد كانت معابد القبائل المتنقلة كلها في الأصل على هذا الطراز[1] . ولم يكن من السهل على أهل الوبر تغيير طراز هذا المعبد ، واتخاذ معبد ثابت . لخروج ذلك على سنن الآباء والأجداد . ولذلك لم يرض العبرانيون عن المعبد الثابت الذي أقامه سليمان ، لما فيه من نبذ للخيمة المقدسة التي كانت المعبد القديم لهم وهم في حالة تنقل من مكان الى مكان . ثم ان أهل الوبر قوم رحل ، ولا يمكن لمن هذا حاله اتخاذ معبد ثابت له ، لما كان عليه من وجوب نقل أصنامه معه حيث يذهب .

---

١ Die Araber, III, S. 132.

ولبيوت الأصنام سدنة ، يحفظون الأصنام بها ويرعونها ، وينقلونها معهم حيث ترحل القبيلة ، فإذا نزلت نزلوا بها ، ليقيموا لها الواجبات الدينية المفروضة في الخيمة المقدسة . حيث فرضت طبيعة البداوة على أصحابها هـذا النوع من أنواع البيوت المقدسة ، وهذه الطقوس الدينية التي تلائم حياة الأعراب .

وبيوت العبادة عند الجاهليين ثلاثة أنواع : بيوت عبادة خاصة بالمشركين عبدة الأصنام ، وهم الكثرة الغالبة ، وبيوت عبـادة خاصة باليهود ، وبيوت عبـادة خاصة بالنصارى . أما بيوت عبادة المجوس ، فقد عرفت في العربية الشرقية وفي العربية الجنوبية ، ولكن عبّادها هم من المجوس ، أي العجم ، فالمجوسية لم تنتشر بين العرب ، ولم تدخل بينهم إلا بين عدد قليل من الناس .

وما ذكرته عن بيوت العبادة ، خاص بالمعابـد العامة ، وهناك مواضع عبادة خاصة ، جعلت في البيوت ، وضع أصحابها أصنامهم في ركـن من أركانها ، وتقربوا اليها . روي ان العباس ، كان قد أقام الصنمين أسافـاً ونائلة في ركن داره ، وكانا حجرين عظيمين[1] . واحتفظ غيره بأصنام في بيوتهم للتبرك بها ، ولحماية البيت ، وكانوا اذا سافروا حملوا أصنامهم الصغيرة معهـم للاحتماء بها ، وأخذ بعض شباب المدينة ما وجـده من أصنام في البيوت ، تعبّد لهـا آباؤهم فحطمها ، ومنهم من رماها في مواضع العذرة والقاذورات .

وقد استطعنا اليوم بفضل جهود السياح والمنقبين والباحثـين من الحصول على بعض المعلومات عن معابد جاهلية كانت عامرة يوماً ما . وذلك بعثور المذكورين على ألواح مكتوبة وجدت في خرائب تلك المعابد . ولكن ما عثر عليه ، لا صلة له بالدين في الغالب ، فليس فيه أدعية أو صلوات أو كتابات تفصح عن عقائد القوم وعن أمور دينهم . ولهذا فإن علمنا بديانات الجاهليين لا يزال ضحلاً ، لم يتقدم تقدماً مرضياً ، وأملنا الوحيد في زيادته هو في المستقبل ، فلعله يخرج من صناديق سره المكتومة ما يفصح عن عقائد القوم .

وقد اتخذ بعض العرب ، وهم المتمكنون ، بيوتاً وكعبات لعبادة أصنامهم ، وضعوا أصنامهم في أجوافها ، ومنهم من اتخذ صنماً ، فلم يبن عليه بناءً ، لعدم استطاعتـه ذلك . ومن لم يقدر عليه ، ولا على بناء بيت ، نصب حجراً أمام

---

١ الازرقي ( ١/١١٢ ) ، ( ٢/١٨٨ ) .

الحرم ، وأمام غيره ، مما استحسن ، ثم طاف به كطوافه بالبيت ، وسمّوهـا الأنصاب[1] .

وذكر أن ( وكيع بن سلمة بن زهير الإيادي ) ، كان قد اتخذ لـه صرحاً بالحزورة ، سوق كانت بمكة، يرتقيه بسلالم يتعبد فيه ، فعرف بصاحب الصرح[2] .

والبيت ، مأوى الانسان ومسكنه في الأصل ، ثم تجوز الناس فأطلقوا اللفظة على المعبد ، باعتبار أنه بيت الآلهة أو الإلـه ، لاعتقادهم أن الآلهة تحـل به[3] . وقد كانوا يضعون الصنم أو الأصنام فيه . ويقال للبيت عندئذ ( بيت الله ) أو ( بيت ريام ) وهو بيت يذكر ( ابن الكلبي ) أنه كان لحمـير بصنعاء ، وأن الناس كانوا يعظمونه ويتقربون عنده بالذبائح[4] ، أو ( بيت الربة ) ومـا شاكل ذلك ، بحسب اختصاص البيت بالصنم .

كذلك أطلقت كلمة ( بيت ) بمعنى معبد في نصوص المسند، فورد : ( وقدسو بيت مرب ) ، أي ( وقدسوا بيت مأرب ) أو ( وبيت مأرب المقـدس )[5] . فلفظة بيت هي اللفظة التي استعملت لمواضع العبادة ، أي المعبد ، أطلقت قبـل اسم الإلـه أو الموضع لتدل على التخصيص . وهي ترد في لغات سامية أخرى في هذا المعنى نفسه .

وأما ( الكعبة ) فالبيت المربع ، وكل بيت مربع كعبة عند العرب . وقـد خصصت في الإسلام بالبيت الحرام بمكة . والكعبة الغرفة أيضاً . وقد كان لربيعة بيت يطوفون به ، يسمونه الكعبات ، وقيل : ذو الكعبات ، وقد ذكره الأسود ابن يعفر في شعره ، فقال :

والبيتِ ذي الكعبات من سنداد[6]

والمسجد كل موضع يتعبد فيه[7] . وقد استعملها الجاهليون بهذا المعنى أيضاً .

---

١ الاصنام (٢١) « روزا » .
٢ تاج العروس ( ٢/١٣٩ ) ، ( صرح ) .
٣ المفردات (٦٤) .
٤ الاصنام (٧) « روزا » .
٥ CIH 541, Le Muséon, 1934, LXVII, p. 103.
٦ اللسان ( ١/٧١٨ ) ، المفردات (٤٤٦) .
٧ اللسان ( ٣/٢٠٤ وما بعدها ) ، تاج العروس ( ٢/٣٧١ ) ، ( سجد ) .

وقد وردت اللفظة في نصوص بني إرم وفي النصوص النبطية والصفوية . ورد على هذه الصورة ( مسجـدا ) في نصوص بني إرم ، وورد على هـــذه الصورة في النصوص الصفوية أيضاً ، وقد عنت به معبداً [١] .

وقد عبر عن المعبد بلفظة ( مكربن ) ، أي ( المكرب ) أو ( المكراب ) في بعض نصوص المسند ؛ إذ ورد ( مكربن يعق ) ، بمعنى ( معبد يعوق ) [٢] . ومن هذا الأصل أخذت كلمة ( مكراب ) في الحبشية ، ومعناها ( معبد ) [٣] . ولهذا ذهب (كلاسر) وغيره الى ان (مكربة ) Mocoraba ، المدينة المذكورة في ( جغرافيا ) ( بطلميوس ) هي (مكة ) ، لأنها ( مقربة ) الى الأصنام ، فهي بمعنى ( البيت ) و ( الكعبة ) في لهجتنا [٤] .

وتقابل كلمة (المعبد) كلمة Templum اللاتينية التي تعني موضعاً مربعاً ، فهي بمعنى ( الكعبة ) ، و ( كعبة ) في اللغة العربية . ويلاحظ توافق تام بين معنى الكلمتين في هاتين اللغتين [٥] . ولا بد ان يكون لاتخاذ هذا الشكل للمعبد سبب ، إذ لا يعقل ان يكون قد جاء ذلك عفواً ، ولا سيما اننا نلاحظ ان الكلمتين : اللاتينية والعربية ، قد جاءتا من شكل البناء ونوعه وطرازه .

وذكر علماء اللغة ان في جملة الألفاظ التي تطلق على بيوت الأصنـام والعبادة والتصاوير ، لفظة ( البد ) . وهي تؤدي معنى ( صنم ) كذلك . وذكروا انها من الألفاظ المعربة عن الفارسيـة . عربت من ( بت ) [٦] ، وانها تعني البيت اذا كان فيه أصنام وتصاوير [٧] .

وذكروا أن في جملة الألفاظ التي أطلقت على بيوت الأصنام لفظة (الطاغوت) والجمع (الطواغيت ) . ورد أن العرب « كانت قد اتخذت مع الكعبة طواغيت ، وهي بيوت تعظمهـــا كتعظيم الكعبة ، لها سدنة وحجاب ، وتهدي اليها ، كما

---

١ العرب في سورية قبل الاسلام (١١٩) .
Shorter Ency. of Islam, p. 330, Cooke, North Semitic Inscriptions, p. 238.

٢ Le Muséon, 1954, LXVII, p. 100.

٣ Ency., II, p. 586.

٤ Glaser, Skinzze, II, S. 235.

٥ Ency. Religi., Vol., 12, p. 236.

٦ تاج العروس ( ٢/٢٩٥ ) ، ( بدد ) .

٧ شمس العلوم ( حـ ١ ، ق ١ ، ص ١١٩ ) ، غرائب اللغة (٢١٨) .

تهدي الى الكعبة ، وتطوف بها كطوافها بها ، وتنحر ، عندها ، وهي تعرف فضل الكعبة عليها ، لأنها كانت قد عرفت أنها بيت ابراهيم الخليل ومسجده»[1]. وورد أن ( الطاغوت ) الصنم ، وكل معبود من دون الله ، ولما تقدم سُمي الساحر والكاهن والمارد من الجن والصارف عن طريق الخير طاغوتاً[2] . واللفظة تعني في لغة ( بني إرم ) : رئيس عقيدة ضلال ، وشيطان وصنم[3] .

و ( الهيكل ) من الألفاظ الدالة على موضع العبادة ، استعملت لبيوت الأصنام مجازاً ، ولمعابد النصارى[4] . والظاهر أن استعمالها كان عند العرب الشماليين في الغالب ، مثل عرب العراق وعرب بلاد الشأم ، ولا سيما عند النصارى منهم . أخذوها من الآراميين ، إذ هي بمعنى بيت الصنم ، أي معبد الوثنيين عندهم[5] . وقد وردت في لغة ( المسند ) كذلك ، وردت بمعنى ( قصر )[6] ، ومعبد في أيام دخول النصرانية الى اليمن .

وقد أطلق ( الديدانيون ) على بيت ( بعل سمن ) ، لفظة : ( احرم ) بمعنى ( الحرم ) تعظيماً وتمجيداً له . فهو ذلك الإلـه[7] . وترد لفظة ( محرم ) — التي لا زالت حية معروفة يطلقها أهل اليمن على محرم ( بلقيس ) — في لغة المسند ، بمعنى المعبد ، والمسجد الحرام . وقد وردت في عدد من النصوص[8] .

وبيوت العبادة أنواع . بيوت عبادة كبيرة ، يحج اليها في أوقات معينة ، ومواسم محددة ، من مواضع قريبة أو بعيدة ، هي محجات يحج اليها في وقت معين ثابت ، يتقرب بها المتعبدون الى رب المحجة أو أربابها بأداء واجب الخضوع والطاعة . وتكون محجة واحدة في الغالب ، اختارها الإلـه أو الآلهة من بين سائر أماكن الأرض لتكون موضعاً مقدساً وحرماً آمناً ، فهي أقدس بقعة وأعز مكان في نظر المتعبدين لها على وجه هذه الدنيا . فلا تدانيها المعابد الأخرى ولا تبلغ منزلتها في الحرمة والمكانة .

---

١ ابن هشام ( ١/٨٦ وما بعدها ) ، هامش على الروض الانف ( ١/٦٤ ) .
٢ المفردات ، للاصفهاني (٣٠٧) ، الاصنام (٦) ، تاج العروس ( ١٠/٢٢٥ ) ، (طغا) .
٣ غرائب اللغة (١٩٤) . Hughes, Dictionary of Islam, p. 625.
٤ تاج العروس ( ٨/١٧٠ ) ، ( هيكل ) .
٥ غرائب اللغة (٢٠٩) .
٦ Jamme, South Arab. Inscriptions, p. 433.
٧ Histoire, IV, p. 312, Preislamiques, p. 20.
٨ Jamme, South Arabi. Inscriptions, p. 440.

وهناك بيوت عبادة أخرى تكون دون المحجات في الأهمية والدرجة ، لأن الآلهة لم تختارها لنفسها ولم تنص على اسمها ، وانما هي دور عبادة أقامها الناس تقرباً الى تلك الآلهة . وهي متفاوتة في الدرجة أيضاً ، فيها المعابد الكبيرة التي صرف على اقامتها مال كثير ، وفيها معابد بسيطة ، يقيمها الناس تقرباً الى أربابهم .

والناس في ذلك العهد ، كالناس في ايامنا هذه ، لا يكتفون بتشييد معبد واحد في المدينة ، بل نجدهم يقيمون جملة بيوت للعبادة ، وقد خُصص بعضها بعبادة جملة آلهة ، وخصص بعضها بعبادة إلَه واحد معين، يذكر اسمه على باب المعبد . وقد تبنى في الموضع الواحد جملة معابد لإلَه واحد ، لأن المعابد من الأعمال الخيرية التي يقوم بها المؤمنون تقرباً الى الآلهة ، لذلك يصادف قيام جملة أسر ببناء معابد لذلك الإلَه ، تسميها باسمه وتنقش اسم الأسرة أو المتبرع بالبناء على موضع بارز من المعبد . وبفضل هذه الطريقة القديمة ، التي لا تزال البشرية تتبعها ، تمكنا من الحصول على معلومات عن تلك المعابد وعن الآلهة التي خصصت لها وعن أسماء المؤمنين الذين أقاموها .

وقد اتخذ الانسان من الكهوف بيوتاً للعبادة ، كما اتخذ من الجبال والمواضع المرتفعة أماكن بنى عليها معابده ، ليكون في رأيه ونظره أقرب الى السماء ، حيث تقيم الآلهة ، فتسمع دعاءه ، وتصل اليها كلمته ، وتستجيب له ، أكثر من استجابتها له لو كان على سطح الأرض . وبنى الحضري معبده في المواطن التي يقيم فيها ، وحاول جهده الإنفاق عليها ، والتفنن في بنائها وزخرفتها ، لتكون بيوتاً تليق بسكنى الأرباب . أما البدو ، فكانت معابدهم في الخيام ، تحفظ فيها أصنامها ، فتنتقل معها ، وتضرب في الموضع الذي تحل القبيلة فيه ، ينظرون اليها نظرة تقديس وإجلال ، لأنها حرم الآلهة وأماكنها وبيوتها المقدسة ، فلا يجوز تدنيسها ولا انتهاك حرمتها . لهذا لم يكن يسمح لأحد بالدخول اليها إلا اذا كان من رجال الدين .

ولهذه الخيام المقدسة سدنة ، يضعون الصنم أو الأصنام في جوفها ، ويسهرون على خدمتها ، وينقلونها معهم حيث تنتقل القبيلة . وهم يتوارثون خدمتها . واذا استقرت القبيلة وتحضرت ، تحضر معبد صنمها بتحضرها كذلك . ووجد الصنم

عندئذ له مستقراً دائماً ومقاماً ثابتـــاً ، ويصير عندئذ في عداد الأصنام الثابتة . ويكون للصنم عندئذ معبد تتناسب قيمته وأهميته ودرجة عمرانه ، مع مكانة القبيلة وعدد رجالها وغناها وما عندها من مال .

وللعين أهمية كبيرة في تقييم المعبد وفي نشر العبادة وفي تكـوين شخصية الإلـه رب المعبد فيما بين الناس . فكما أن قيمة الانسان بملبسه وبأناقته وبحسن مظهره ، كذلك تكون قيمة المعبد بضخامته وبما يزين به من نقوش وزخارف وبمـــا يعلق على الموضع المقدس منه من ذهب وفضة وأحجار كريمة . فالمعبد الضخم ، يدل على قوة الإلـه وقدرته في نظر من ينظر بعينه لا بعقله الى قيم الأمـور ، أي في نظر السواد ، وهم الكثرة الغالبة ، ولذلك يجلبهم اليه ، وتلقى ضخامته في نفوسهم تأثيراً كبيراً يجعلهم يشعرون أنهم أمام بيت إلـه حقاً ، لما فيه من روعة ولمـــا تفوح في داخله من روائح البخور والطيب ، لذا حرص رجال الدين على جعل معابدهم ضخمة فخمة ، لتجلب لها أكبر عدد ممكن من المتعبدين .

ومن أشهر المواضع المرتفعة التي حج اليها المتعبدون للتبتل والتعبد ، والتي ورد ذكرها في قصص أهل الأخبار : حِراء ، وأبو قبيس ، وثبير .

أما ( حراء ) فقد ورد في بيت منسوب الى شاعر جاهلي :

فإني والذي حجت قريش  بمحارمه ، وما جمعت حراء[1]

وجعل أحد الأجبل الخمسة التي بُني من حجارتها البيت[2] . واليه كان يلجـــأ كبار قريش لدعوة آلهتهم في الملمات ، واليه أيضاً كان يأتي بعض المتحنثين النسّاك الزاهدين في عبادة الأوثان للتفكير والتأمل . وفيه غار تحنث فيه النبي ، ويعرف بـ ( جبل النور )[3] . وورد ان أبا طالب أرسل عقيلاً ليأتـــي بالرسول اليه ، فذهب الى ( كبس ) ، وأخرجه منه . والكبس الغار[4] . ويظهر انه أراد بـــه غار حراء .

---

١ البكري ( ٢/٤٣٢ ) ، ( حراء ) ، هو « عوف بن الاعوص » العامري ، شرح ديوان لبيد (٢١) .
٢ الازرقي ، أخبار مكة ( ١/٢٦ ) ، ( ما ذكر من بناء ابراهيم عليه السلام الكعبة ) .
٣ تاج العروس ( ١٠/٨٧ ) ، ( حرو ) .
٤ تاج العروس ( ٤/٢٣٩ ) ، ( كبس ) .

وأما ( أبو قبيس ) ، فيظهر من غربلة أخبار الأخباريين انه كان من المواضع المقدسة الداخلة في شعائر الحج ، يرتقي الحجاج ظهـــره ، ليتموا بذلك مناسك حجهم ، وليدعوا آلهتهم بما يطلبون ويرغبون . وكان مقصوداً عند نزول الشدة والبلاء . فالمظلوم يجد محله فوق هذا الجبل للدعاء عند انحباس المطر ، لنزول الغيث[1] .

وقد زعم بعض أهل الأخبار ، انه سمّي ( أبا قبيس ) برجل من مذحـــج حدّاد ، لأنه أول من بنى فيه ، أو بقبيس بن شالخ ، رجل من جرهم ، كان قد وشى بين عمرو بن مضاض وبين ابنة عمه ( مية ) ، فنذرت ان لا تكلمه ، وكان شديد الكلف بها فحلف ليقتلن قبيساً ، فهرب منه في الجبل المعروف به ، وانقطع خبره . فإما مات وإما تردّى منه ، فسمي الجبل أبا قبيس . « وله خبر طويل ذكره ابن هشام في غير هذا الكتاب . وكان أبو قبيس الجبل هذا يسمى الأمين ، لأن الركن ، أي الحجر الأسود ، كان مستودعاً فيـه »[2] . « وكان الله عز وجل استودع للركن أبا قبيس حين غرق الله الأرض زمن نوح » ، فلما أقام ( ابراهيم ) قواعد البيت ، ( جاءه جبريل بالحجر الأسود )[3] . والظاهر ان بيتاً للعبادة كان عليه ، وانه كانت له صلة بالبيت ، فتجسمت هـــذه الصلة في الذي ذكروه عن الحجر الأسود ووجوده فيه .

وأما ( ثبير ) ، فقد كانوا يفيضون منه في الحـج على نحو يذكر في شعائر الحج .

ويلاحظ أن أهل العربية الجنوبية وأهل السراة قدسوا قمم الجبـــال ، فجعلوا فيها معابد لعبادة الآلهة ، مثل معبد ( اوم ) ( أوّام ) في ( الو ) . وقد أزيلت معالم تلك المعابد في الإسلام ، ولكن بعضها أخذ طابعاً اسلامياً فصير مثلاً قبراً من قبور الأنبياء مثل : ( حضور نبي شعيب ) ، الذي يقع على قمـة جبل تعد من أعلا قمم جبال العربية الجنوبية ، و ( نبي ايوب ) و ( مقلى ) عـــلى محر ( مبلقة )[4] .

---

١ المشرق : السنة التاسعة والثلاثون ، تموز – أيلول ١٩٤١ ، ( ص ٢٥٢ ومـــا بعدهـــا ) .

٢ تاج العروس ( ٤/٢١٢ ) ، ( فبس ) .

٣ الازرقي ( ١/٢٧ ) ، ( ما ذكر من بناء ابراهيم عليه السلام الكعبة ) .

٤ تاج العروس ( ٣/١٤٨ ) ، ( حضر ) ، Beiträge, S. 85, Ency., II, p. 222.

وترجع قدسيـــة المواضع المقدسة وحرمتها الى الاعتقاد بنزول الآلهة في هـــذه المواضع ، والى وجود قوى خارقة فيها ، أو الى وجود مقدسين فيهـا قبروا في باطنها ، فقدست تلك المواضع لهذه الأسباب . وتعرف هذه المواضع المقدسة بأسماء من تقدست بهم ، وبأسماء المواضع التي تقع فيها .

وإنا لنرى كثيراً من الأماكن المقدسة قد أقيمت في جزيرة العرب عند الينابيع والآبار المقدسة حيث تروى الأرض بالماء فتنمو به المزروعات ويستقي منها الناس. وقد صوّر هذا الخصب لسكان تلك المنـــاطق وجود قوى خارقة كامنة في تلك الأرضين كانت السبب في نظرهم في بعث الحياة للإنسان ولهذه الأرض[1] .

وقدست بعض المواضع وأقيمت المعابد بها ، بسبب وجود أشجار مقدسة بها، ونجد في أخبار أهل الأخبار أن بعض المعابد مثل معبـــد العزى ، كان المتعبدون يتقربون بها الى سمرات ، أي شجرات ثلاثة ، أو الى شجرة واحـدة ، فكانوا يعلقون عليها الحلي ويزينونها ، ومثل معبد ( ذات أنواط ) ، وهي شجرة كانت تعبد في الجاهلية ، وهي سمرة كان المتعبدون لها ينوطون بهـــا سلاحهم ويعكفون حولها[2] .

وقدست مواضع أخرى لوجود أحجار مقدسة بها ، كانوا يطوفون حولها من هذه المواضع : (عكاظ) . فكان الناس يأتون الموضع في الموسم ، فينصبون فيه خيامهم ، ويقيمون سوقهم ، ويطوفون بأحجار عكاظ ، يقيمون عـلى ذلك أيام الموسم . فهي أيام عبادة وتجارة وفرح .

ولهذه القدسية والحرمة ، لم يسمح للسواد الأعظم من النـــاس بدخول الغرف المقدسة المخصصة بالآلهة ، لأنها بيوت الآلهـــة ، وعوض لهم عن هـــذا التحريم بالطواف حولها أو بلمس جدرانها ، وللسبب نفسه ، حتم على القاصدين لها غسل أجسامهم وتنظيفها ولبس ملابس طاهرة نظيفة ، كان سدنة بعض تلك المعابد ، أو أهل المواضع التي تقع فيها المعابد يؤجرونها للناس بأجـــر معين مرسوم ، إن كانت تلك المعابد من المعابد الكبيرة وفي مواسم الحج. كذلك لم يكن يسمح لأحد بالدخول الى المعابد والأحذية في أرجلهم فلا بد من خلعها والدخول بغير أحذية

---

١ Ency. Religi., 6, p. 753, Robertson, p. 115.

٢ تاج العروس ( ٥/٢٣٦ ) ، ( نوط ) .

احتراماً لقدسية المكان وخشية التدنيس[1] . وقد حتم الجاهليون على من يريد دخول الكعبة من المتمكنين خلع نعليه ، احتراماً للبيت . ذكر أهل الأخبار ان أول من خلع نعليه لدخول الكعبة ( الوليد بن المغيرة ) ، فخلع الناس نعالهم في الاسلام[2] .

وقد عثر على كتابات جاهلية تبين منها ، ان الجاهليين كانوا يعدّون طهارة الملابس وطهارة الجسم من الأمور الملازمة لمن يريد دخول المعبد ، فإذا دخل انسان معبداً وهو نجس عدّ آثماً ، وقد ورد ان رجلاً اتصل بامرأة ، ثم دخل المعبد بملابسه التي كان يلبسها حين اتصل بها ، فعدّ آثماً ، ودفع فدية عن إثمه ارضاءً للآلهة[3] . وورد ان رجلاً دخل معبد الإله ( رب السماء ) ( ذسموى ) بمطلق نجس ، فدفع فدية عن ذلك ، جزاء ما ارتكبه من إثم[4] . فدخول المعابد بملابس نجسة ، نجاسة : مادية أو معنوية ، إثم ، تعاقب الآلهة عليه،لهذا اشترطت ديانتهم عليهم عدم دخول بيوت الآلهة ، إلا بملابس طاهرة نظيفة حرمة وتقديراً لهذه البيوت .

وللسبب المذكور اشترط سدنة الصنم ( الجلسد ) على من يريد من عبّاده تقديم قربان اليه ، أو تكليمه كراء ثياب مسدنة ، للبسها بدلاً من ملابسهم ، لأنها ملابس نظيفة طاهرة ، لم تمسها أدران مادية أو معنوية[5] . وهو شرط نجده عند غير العرب أيضاً كالعبرانيين[6] . وقد كانت المعابد تدخر ملابس تكريها لمن يريد أداء شعائر زيارة بيوت الأصنام .

وورد في كتب أهل الأخبار ، أن الجاهليين حتموا على المرأة الحائض ألا تمس الصنم ولا تمسح به،والا تدخل بيته لنجاسة الحيض[7] . وورد أن ( فاختة ) أم ( حكيم بن حزام بن خويلد ) ، كانت دخلت الكعبة وهي حامل متمّ بحكيم

---

١ Ency. Religt., 6, p. 753.

٢ ابن رسته ، الاعلاق (١٩١) ، صبح الاعشى ( ٤٢٨/١ ) .

٣ Glaser 1052, Hofmus 6, CIH 523, Grohmann, S. 251. f.

٤ Rep. Epigr., 3956, Grohmann, S. 252.

٥ البلدان ( ١٢٢/٣ ) .

٦ « ثم قال الله ليعقوب : قم فاصعد الى بيت ايل ، واقم هناك ، واصنع هناك مذبحا لله الذي ظهر لك عند هربك من وجه عيسو أخيك . فقال يعقوب لاخيه وسائرمن معه : أزيلوا هذه الالهة الغريبة التي بينكم وتطهروا وابدلوا ثيابكم . وهلموا نصعد الى بيت ايل » ، التكوين ، الفصل (٣٥) . الآية ١ وما بعدها .

٧ الاصنام (٣٣) ، خزانة الادب ( ٢٤٥/٣ ) .

ابن حزام فأجاءها المخاض ، فلم تستطع الخروج من الكعبة ، فوضعته فيها فلفت في الأنطاع هي وجنينها وطرح مشبرها وثيابها الـتي كانت عليها ، فجعلت لقي لا تقرب[1]. فيظهر من هذا الخبر ان اهل مكة كانوا يعتبرون دم المخاض والولادة نجساً ، ولهذا اعتبرت الأنطاع التي وضعت ( فاختة ) جنينها عليها، بل اعتبرت هي نجسة أيضاً ، فلفت بالأنطاع ، وألقيت ، وجعلت لقي لا يمسها أحد .

وعثر المنقبون على أحواض داخل المعابد في العربية الغربية ، يظهر أنها كانت للوضوء ، لتطهير الجسم قبل الدخول الى المسجد ، موضع الصنم . وذلك بغسل الوجه واليدين والقدمين وربمـا الأبدان كذلك ، قبل الدخول الى بيت الصنم . ولكون هذا الوضوء تطهيراً للجسم ، عرفت ( الميضأة ) بالمطهرة ، لأنهـا تطهر من الأدران[2] . ولهذا السبب ، حفرت الآبار في المعابد ، لتموين هذه الأحواض بالماء ، وللتبرك أيضاً بالماء المقدس ، ولاستعماله في أغراض أخرى ، منها تنظيف الجسم من الأدران بعد قضاء الحاجة .

ولهم آداب اتبعوها حين دخولهم بيت الصنم وحين خروجهم منه . من ذلك ان القبائل كانت تتجنب ان تجعل ظهورها على مناة اعظاماً للصنم . فكانت تنحرف في سيرها ، حتى لا يكون الصنم الى ظهرها . وفي ذلك قال الكميت بن زيد ، أحد بني أسد بن خزيمة بن مدركة :

وقد آلت قبائل لا تولي  مناة ظهورها مُتَحرّفينا[3]

وقد تطورت أشكال المعابد وهندستها بتطور الحضارة ، وبشكل طبيعة الأرض التي يقام المعبد عليها . وهي تتناسب مع درجة تطور الشعوب ودرجة رقيها وطراز تفكيرها واختلاطها بالأمم المجاورة . ولذلك نجد معابد ( تدمر ) مثلاً قد تأثرت بطراز البناء الإغريقي ، لتغلغل الثقافة اليونانية فيها ، ولتأثر سكان المدينة باليونان . كذلك نجد هذا الأثر والأثر الروماني في معابد بلاد الشأم وفلسطين ، فالمعبد اذن

---

١ الروض الانف ( ١/١٣٤ ) ، الاصابة ( ١/٣٤٨ ) ، ( رقم ١٨٠٠ ) ، كتاب نسب قريش (٢٣١) .

٢ تاج العروس ( ١/١٣٤ ) ، ( وضوء ) .

٣ ابن هشام ( ١/٩٠ ) ، المشرق ، السنة ١٩٣٨ م ، ( الجزء الاول ) ، ( ص ١١ ) ، ابن هشام ( ١/٦٥ ) ، ( حاشية على الروض الانف ) ، ( قصة عمرو بن لحـي ، وذكر أصنام العرب ) .

هو نموذج معبر عن نفسية الناس وعن حضارتهم ودرجة تفكيرهم وعن هندستهم، ومدى تأثر فن البناء عندهم بالمؤثرات الداخليـــة الأصيلة أو المؤثرات الدخيلة في الزمن الذي قام فيه البناء .

ومن هنا نجد معابد اليمن ، اتخذت لها الحجارة الضخمة المتقطعة من الصخور في بناء الجدر والأرض وفي الأعمـــدة ، ونجد المعمار قد تفنن في تزويق الجـــدر والأعمدة والسقوف وفي زخرفتها ، فصارت المعابـد ضخمة جميلة ، لا تضاهيها المعابد التي أقيمت في مواضع سهلة من جزيرة العرب ، لعدم وجود المواد الصالحة للبناء فيها ، ولأن الطبيعة لم تهب للمعمار فيها ما يدفعه الى بناء أبنية ضخمة فيها تضاهي معابد أهل اليمن .

## الاستفسار عن المغيبات :

ولم تكن المعابد مواضع عبادة وتقرب الى الأصنام حسب ، بل كانت مواضع استفسار عن المغيبات كذلك ، يقصدها أهل الحاجات لسؤال الآلهة عمـــا عندهم من مشكلات ، أو عما سيخبئه لهم المستقبل من أمور ، أو عن أعمـال يريدون القيام بها ، أو عن سرقة ، وما شابه ذلك من طلبات . ومن هذه البيوت بيت رئام ، وقد كانوا يكلمون منه وينحرون عنده[1] . وبيت العزى، وكانوا يسمعون فيـــه الصوت[2] . والمنطبق وكان صنماً من نحاس يكلمون من جوفـــه ، فيأتيهم الجواب[3] . وبيت ( الجلسد ) ، صنم كندة وأهـــل حضرموت[4] . وقـــد ذكر ( الجاحظ ) : « أنهم كانوا يسمعون في الجاهليـــة من أجواف الأوثان همهمة ، وأن خالد بن الوليد حين هدم العزى رمته بالشرر حتى احترق عامـــة فخذه ، حتى عاده النبي ، صلى الله عليه وسلم » . وهو ممن يشكون في صدور مثل هذه الأمور إذ يقـــول : « « وهذه فتنة لم يكن الله ليمتحن بهـــا الأعراب وأشباه الأعراب من العوام . وما أشك أنه كان للسدنة حيل وألطاف لمكان التكسب»[5] .

---

١ الاصنام ( ص ١٢ ) ، الطبري ( ٢/٩٧ ) .
٢ الاصنام ( ص ١٨ ) .
٣ المجد ( ص ٣١٨ ) .
٤ البلدان ( ٣/١٢٢ وما بعدها ) .
٥ الحيوان ( ٦/٢٠١ ) .

## تكليم الأصنام :

ويقوم الكهان بتكليم الصنم ، وهم الذين يفسرون للسائلين المهمة أو الأصوات الصادرة من تلك الأصنام ويتكلمون على ألسنتها بما يلائم السائل مقابل نذر وهدايا وألطاف يقدمونها الى السدنة . وهـذا النوع من التنبؤ ، معروف عنـد اليونان والرومان، مشهور ومعروف عند غيرهم من الأمم كالبابليين والأشوريين والعبرانيين. بل هو يؤلف جزءاً مهماً من أركان الديانات القديمة ، ويطلق عليه Oracle في الانكليزية من Oraculum اللاتينية ، ومعناها التكلم . ولهذا النوع من التنبؤ صلة كبيرة بالسحـر Magic وبالكهانة في الديانات القديمة والديانات البدائية عند بعض الشعوب الافريقية والاسترالية في الزمن الحاضر . وقد اكتسبت بعض معابد اليونان شهرة كبيرة في هذا النوع من التنبؤ بالغيب ، وأشهرها معبد ( دلفي ) Delphi الذي كسب شهرة عظيمة في هذا الباب[1] .

وقد ورد في بعض النصوص ، ان قوماً كلموا آلهتهـم في شهر ( ذ اجبى ذ عثتر ) و ( ذ فرعم ذ عثتر ) ، فأجابهم الإلـه (عثتر) على ما سألوا عليه . وورد ان جماعة من المؤمنين بـ (عم) ، كلموه ، فأجابهم على ما سألوا عنه . وكانوا اذا كلموا الآلهة ، فوجدوا ان الأجوبة غير منسجمة مع الأسئلة ، أعادوا الأسئلة عليها وقدموا قرابين جديدة لها ، أو وزادوا في الحلوان، يفعلون ذلك حتى يسمعوا الجواب المناسب لأسئلتهم[2] .

ولم أسمع بوجود تكليم في مكة . فلم يذكر أحد من أهل الأخبار أن الجاهليين كانوا يأتون الكعبة لسماع أجوبة الأصنام عن أسئلة يوجهونها اليها، ولا عن وجود سدنة كانوا يقومون بأي نوع من التكليم . وإنما ذكروا أنهم كانوا يسألون الأصنام النصح والارشاد ، والأمر والنهي بفعل فعل أو تركه ، ويكـون ذلك بالاستقسام بالأزلام . وقد خصص الصنم ( هبل ) بهذا النوع من الإرشاد . وكانت عنـده سبعة قداح ، كل قـدح منها فيه كتاب : قدح فيه العقل ، إذا اختلفوا في العقل من يحمله منهم ، ضربوا بالقداح السبعة عليهم . فإن خرج العقل ، فعلى

---

١ Ency. Brita., Vol., 16, p. 830, T.D. Dempsey, The Delphic Aracle, 1918, L.R. Farnell, Cults of the Greek States, Vol., IV, p. 179.

٢ Grohmann, S. 251.

من خرج حمله . وقدح فيه ( نعم ) للأمر ، إذا أرادوه يضرب به في القداح، فإن خرج قـدح فيه نعم ، عملوا به . وقدح فيه ( لا ) ، فإذا أرادوا الأمر ضربوا به في القداح ، فإذا خرج ذلك القدح ، لم يفعلوا ذلك الأمر . وقـدح فيه ( منكم ) ، وقدح فيه ( ملصق ) ، وقدح فيه ( من غيركم ) ، وقدح فيـه ( المياه ) ، فإذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقداح ، وفيهـا ذلك القدح ، فحيثما خرج به ، عملوا به . وكانوا إذا أرادوا أن يختنوا غلاماً أو ينكحوا منكحاً أو يدفنوا ميتاً أو شكوا في نسب أحدهم،ذهبوا به الى هبل وبمئة درهم وجزور، فأعطوها صاحب القداح الذي يضرب بها ، ثم قربوا صاحبهم الـذي يريدون به ما يريدون ، ثم قالوا : يا إلهنا فلان ، أردنا به كذا وكـذا ، فأخرج الحق فيه . ثم يقولون لصاحب القداح : إضرب ، فإن خرج عليه ( منكم ) كان منهم وسيطاً ، وإن خرج عليه من ( غيركم ) كان حليفاً ، وإن خرج عليه (ملصق)، كان ملصقاً على منزلته فيهم لا نسب له ولا حليف ، وإن خرج عليه شيء ممـا سوى هذا مما يعملون به ( نعم ) عملوا به ، وإن خرج ( لا ) أخروه عامـه ذلك ، حتى يأتوا بـه مرة أخرى ، ينتهون في أمرهم ذلك الى ما خرجت به القداح [1] .

وهكذا كانت قريش والقبائل التي تحج الى مكة تأتي الى هبل لاستشارته في قضايا تهمها . فما يخرج في القدح مما هو مكتوب ، يكون الجواب . غـير أن بعض الأجوبة قد يأتي على خلاف رغبة السائلين ، ولذلك كانوا يغرون الضارب على القداح بالضرب الى أن يخرج القدح الذي فيه يريدون ويشتهون.وقد يؤخرون ذلك بعض الوقت . وهم يفسرون النتيجة الـتي تظهر أنها رغبة الصنم وارادتـه بوحيها ، فتظهر بالقداح .

وذو الخلصة من الأصنام التي كان يستقسم عندها كذلك . والى هـذا الصنم ينسب قول أحد الشعراء لهذه الأبيات :

لو كنت يا ذا الخلصة الموتورا مثـلي وكان شيخك المقبـورا
لم تنه عن قتل العُداة زورا

---

١ الازرقي ( ٦٨/١ وما بعدها ) ، الطبري ( ١٧٢/٢ وما بعدها ) .

وهي أبيات ينسبها بعض الرواة الى امرىء القيس . وكان أبوه قتل ، ف الطلب بثأره ، فأتى ذا الخلصة ، فاستقسم عنده بالازلام ، فخرج السهم ين عن ذلك ، فقال هذه الأبيات التي تتحدث عن غضب الشاعر على هذا الصنم لنهيه إياه عن الأخذ بالثأر . ولو كانت النتيجة كما يشتهي ، لما قال الشاعر الأبيات بالطبع ، وتجاسر على الصنم[1] .

ولما كانت الحروب والغزوات من القضايا المهمة ، كانت استشارة الأص والاستقسام بشأنها من الأمور المألوفة ، فكان أهل مكة اذا أرادوا الحرب عقد هدنة أو إبرام أمر خطير أتوا ( هُبل ) يستقسمون عنده ليعطيهم الر المصيب في هذا الموضوع .

والغالب ان يكون الاستقسام أمام الصنم ، ليقع في روع طالب الاستقسام ما يجري انما هو بعلم الصنم وبوحيه ، فيكون ذلك أوكد في نفسه وأعمق تأثير

**أشكال المعابد :**

هذا ولا بد لي ان أشير الى اننا لا نملك حتى الآن رأياً واضحاً قاطعاً شكل المعابد عند الجاهليين . ولا يمكن تكوين رأي واضح عن هذا النحو إلا قيام علماء الآثار المتخصصين بدراسة آثار المعابد والكشف عنها ورسم مخطط صحيحة لقواعدها وأسسها . ولذلك ، لا بد من مرور زمن ، حتى يتمكن ال من تكوين رأي في أصول المعابد ، وكيفية إقامتها من الوجهة الدينية الأصولية عند العرب قبل الاسلام .

واذا كان في استطاعتنا تحديد شكل ( بيت الله ) بمكة ، و ( كعبة نجران و ( كعبة سِنداد ) ، أو ( كعبات سنداد ) ، كما يسميها البعض ، فإن الصعب علينا تحديد هيأة بيوت الأصنام في المعابد الأخرى ، لعدم ورود نص يعر صفة تلك البيوت في أخبار أهل الأخبار . فلا ندري أكانت مكعبات ، أم أشكال أخر .

ولما كانت المعابد بيوت الأرباب ، صارت لها حرمة خاصة وقدسية في ك

---

١ الاصنام ( ٣٥ ، ٤٧ ) .

دين ، فلا يجوز انتهاك حرمتها ، ولا القيام بأعمـــال شائنة دنسة فيها ، خاصة بالقياس الى الأماكن المقدسة جداً التي تعدّ محجة للناس . وقد اتخذت حول البيوت مواضع عدّت جزءاً من المعبد حددت بحدود ، فما كان داخلاً عدّ حرماً آمناً ، وما كان خارج الحد كان خارجاً عن المعبد ، فليست له تلك الحرمة التي عيّنتها شريعة القوم للمعابد .

وأقدس مكان في المعبد هو (البيت) ، أي الغرفة التي تضم الصنم أو الأصنام . فقد كان البيت ، وهو المسمى الكعبة في مكة ، أقدم موضع عند قريش وعنـــد غيرهم من عبدة الأصنام الذين كانوا يقدسون ( البيت الحرام ) ، وذلك بسبب وجود الأصنام فيه .

ويعبر في العربية الجنوبية عن البيت الذي توضع فيه الأصنام ، بـ ( مخنن )[1] فهو إذن بمثابة الكعبة بمكة .

ويقال للأرض الحرام المقدسة التي تحيط بـ ( البيت ) ، ( الحرم ) . قيـل سمي (الحرم) حرماً لتحريم الناس فيه كثيراً مما ليس بمحرم في غيره من المواضع[2]. وقد وردت اللفظـــة في الكتابات النبطية . فوردت في كتابة نبطية عثر عليها في (بطرا) علماً لحرم الإلـه ذي الشري ، قصد به الأرض المقـــدسة المحيطة ببيت ذلك الصنم ، والمعبد كله ، لأنه محرم ومقدس : (حرم ذي الشرى الإلـه ربنا )[3].

ولا يجوز لأحد انتهاك حرمة الحرم والاعتداء عليه . وإذا دخـل انسان الحرم صار آمناً مطمئناً ، لا يجوز أن يعتدى عليـــه ، ولا أن يمس بسوء ، وإن كان قاتلاً . وحدود الحرم أنصابه ، وهي علاماته ، فمن اجتازها وصار في داخلها ، دخل في حرمة الحرم .

وما كان خارج الحرم ، هو من الحل ، أي من المنطقة الخارجة عن حرمة المعبد . فلا تشملها الأحكام المفروضة على الحرم .

وكان الرجل في الجاهلية إذا أحدث حدثاً ولجأ الى الكعبة ، لم يهج ، فكان إذا لقيه وليّ الدم في الحرم ، قيل له : هو صرورة ولا تهجه[4] .

---

١ Grohmann, S. 249.

٢ المفردات (١١٣) .

٣ Lidzbarski, Nord Semi. Epigra., S. 280, CIS., II, p. 350, G. A. Cooke, North Semi. Inscriptions, Oxford, 1903, p. 79, Ency. Religi., 6, p. 753.

٤ تاج العروس ( ٣/٣٣١ ) ، ( صرر ) .

ولمكانة الحرم في نفوس الجاهليين ولأنه موطن آمن من دخل فيه صار آمناً ، كان لا بد من تحديده ووضع معالم تشير الى نهايته ، إما بوضع أنصاب على أطرافه من تجاوزها الى داخله صار آمناً فلا يخاف على نفسه ، وإما ببناء حائل كجدار أو سياج أو أمثال ذلك ليكون اشارة الى حرمة ما وراءه في الداخل . وقد جعل أهل مكة حدود حرم البيت أنصاباً من تجاوزها الى الداخل صار في حرمة الحرم وفي حماية رب البيت .

وكانت أرض المعابد ، أي حرمها ، واسعة في الأصل ، ذات ماء وأشجار وحمى ، ثم تقلصت وضيقت وحددت بحدود ، بسكن الناس حولها ، وبتقربهم من المعبد ، وبزيادة عدد عبّاده . فعندما يتألق نجم معبد ، ويكثر المؤمنون بصاحبه ، يكثر زوّاره ، ويتسابق الناس الى السكن بجواره والتقرب منه جهد امكانه ، إذ يكون ذلك شرفاً لهم . شرف مجاورة البيت ، كما يكون مكسباً ومورداً طيباً للمال ، لرغبة الزوار في مجاورة المعبد ، فيدفع هذا الطمع ، أصحاب النفوذ والجاه على اختلاس الأرض والتجاوز على حدود الحروم فتضيق . كالذي حدث بمكة ، إذ كان الحرم واسعاً كبيراً ، يشمل الوادي كله ، فلما هبط ( قصي ) به وابتنى البيوت ، اعتدى من جاء بعده على الحرم حتى صغر ، مما دفع الخلفاء على شراء البيوت المجاورة وهدمها لاعادة أرضها الى الحرم ليتسع صدره للناس .

وتلحق بالمعابد أرضون ، يقال لها ( حمى ) لأنها في حماية الأرباب والأصنام ورعايتها ، فلا يعتدى عليها ، ولا يقطع شجرها ولا يرعى فيها ولا يسمح بصيد الحيوان فيها والاعتداء عليه في أرض الحمى[1] . فكان في الطائف ( حمى ) ، وهو ( حمى اللات ) ، وقد خصص به ، وكان حمى في جرش[2] . بل كان وادي مكة الذي أُقيم البيت به ( حمى ) لرب البيت ، ولم يكن يسمح لأحد قبل (قصي) بقطع شجره ، ولا التجاوز على ما فيه من نبت . وقد كان ( قُصي ) كما يقول أهل الأخبار أول من اقتطع شجره ، وأقام البيوت لسكناه وسكنى قريش في ذلك الوادي .

ويفهم من كلام ( نيلوس ) Nilus أن العرب لم يكونوا يحيطون مواضعهم

---

١ اللسان ( ١٤/١٩٩ ) ، العرب في سوريا قبل الاسلام (١١١) .

٢ Ency. Religi., 6, p. 753.

المقدسة التي فيها أصنامهم بأسوار ، وإنما كانوا يجعلون لحرمها حجارة تكون حدّاً وعلامة للحرم . ويتبين من كلام هذا المؤرخ الذي أسر العرب ابنه وأرادوا تقديمه الى الزهرة قرباناً على حدّ قوله ، أنه قصد بالعرب الأعراب ، ولا سيما أعراب طور سيناء ، وقد كانوا أشداء غلاظاً يلقون الرعب في النفوس ، وكانوا يتاجرون بالرقيق يقبضون على من يقع في أيديهم ويبيعونه في أسواق الرقيق . وجماعة هذا شأنها لا تستقر في مكان ، لا يمكن بالطبع أن يكون لها معبد ثابت ، وإنما يكون معبدها الموضع الذي يوضع صنم القبيلة فيه . ولتعيين الأرض الحرام توضع تلك الحجارة .

إلا أن هذا لا يعني أن معابد أهل المدر كانت مسورة أو ذات حائل دائماً ، فقد ذكرت أن حرم بيت الله بمكة لم يكن مسوراً ، بل كان معلماً بأنصاب . ومكة موضع حضر . أما حرم معبد ( المقه ) بمأرب وكذلك أكثر معابد أهل اليمن ، فقد كانت مسوّرة بأسوار عالية قوية ، لها أبواب يدخل المتعبدون منها ، تفتح وتغلق كما نفعل هذا اليوم في دور العبادة عندنا .

ومن المعابد الشهيرة : ( البيت الحرام ) ، أي ( الكعبة ) بمكة ، وسأتكلم عليه في موضع خاص . ومعبد (ذو الشرى) Dushare بمدينة (بطرا) ، و (كعبة سنداد ) ، و ( كعبة نجران ) ، ومعابد عديدة في مواضع أخرى من جزيرة العرب ، ولا سيما اليمن .

والفضل في ظفرنا ببعض المعارف عن ( بيت الرب ) بمدينة ( بطرا) ، يعود الى الكتابات النبطية ، والى ما كتبه بعض الكتبة اليونان والسريان عنه . وقد خصص هذا البيت بعبادة الإلـه ( ذي الشرى ) ، الذي هو ( رب البيت )[1] التي أطلقها النبط على إلههم ، تذكرنا بجملة أخرى معروفة في الجاهلية عند أهل مكة ، كما هي معروفة عند المسلمين حتى اليوم ، هي جملة : ( رب البيت ) ، التي تعني إلـه البيت ، وهو الكعبة ، وقد أقرها وثبتها الاسلام . وقد نعت (رب البيت)، ( رب بيت ذي الشرى ) بـ ( الذي يفرق الليل عن النهار )[2] وهو نعت له أهمية كبيرة في تكوين فكرة عن وجهة نظر عبّاده اليه .

---

١ CIS, II, 235, RES, 1088.

٢ RES, 1102, Ency. Religi., p. 122.

وقد نصب في هذا المعبد الصنم ( ذو الشرى ) على قاعدة مكسوة بالذهب ، في بيت موشى بالذهب وبالصور التي تمثل مشاهد تقديم القرابين اليه . وهو في موضع مرتفع على صخرة عالية ، يحج اليه الناس من مواضع بعيدة ، للتقرب الى ذلك الإلـه الذي يقابل الإلـه ( باخوس ) و (ديونسيوس) (Dionysos- Bacchus في رأي الكتبة اليونان واللاتين[1] .

وكان لهذا المعبد حج يقع في اليوم الخامس والعشرين من شهر كانون الأول من كل عام ، فيفد اليه الناس من أماكن بعيدة للتقرب الى ( رب البيت ) ، فينحرون ويقضون الأيام المعينة ، ثم يعودون الى ديارهم . والظاهر ان هذه الكعبة لم تكن خاصة بأهل ( العربية النبطية ) ، انما كانت محجة لغيرهم من العرب ، كما يتبين ذلك من تصريحات بعض الكتبة ( الكلاسيكيين ) عنها .

وقد عرفت بعض معابد الجاهليين بـ ( الكعبات ) . ويدل ذلك على أن بناءها كان على هيأة مكعب كشكل بناء الكعبة ، وعلى أن العرب كانوا يبنـون بيوت الأصنـام الكبرى على هذا النحو . من هذه كعبة ( سنداد ) عـلى ما يذكره الأخباريون ، وهي قصر كانت العرب تحج اليـه فيطوفون حوله ، وقد عرف بـ ( الكعبات ) جمع كعبة وهو البيت المربع والمرتفع ، وبـ ( ذات الكعبات ) . و ( ذي الكعبات ) وكان مركز حـج قبائل بكر بن وائل وإياد[2] . ولكـن الأخباريين لم يتحدثوا بشيء من التفصيل عن هذا المعبد وعن كيفيته وشكله وعن الأصنام التي كانت فيه . وقد ذكر ( ابن الكلبي ) أن هذا البيت لم يكن بيت عبادة ، إنما كان منزلاً شريفاً[3] .

وذكر أن ( ذات الكعبات ) بيت كان لبكر وتغلب ابني وائل وإياد، وذكر أنه بيت كان لربيعة ، كانوا يطوفون به . وذكر أنه كان لإياد ، وكان كعبـة

---

١ Ency. Religi., 9, p. 122, Epiphanius, Hoer., LI, 22.

٢ البلدان ( ٥/١٥٠ ) ، « سنداد » ، ( ٧/٢٥٥ ) ، اللسان ( ١/٧١٨ ) ، ( كعب ) ، تاج العروس ( ١/٤٥٦ وما بعدها ) ، Ency., II, p. 590.

٣ الاصنام ( ص ٤٥ ) ، « وكان لربيعة بيت يطوفون به ، يسمونه الكعبات . وقيل : ذا الكعبات ، وقد ذكره الاسود بن يعفى في شعره ، فقال : والبيت ذي الشرفات من سنداد » .
اللسان ( ١/٧١٨ ) ، ( كعب ) .

بسنداد بين الحيرة والابلة[1] . وهو من منازل إياد أسفل سواد الكوفة ، وكان عليه قصر تحج العرب اليه[2] .

وكان بنجران بيت عبادة عرف بـ ( كعبة نجران ) . وهو بناء بُني على هيأة الكعبة . وفي رواية تنسب لابن الكلبي انها كانت قُبة من أدم من ثلاث مئة جلد ، كان اذا جاءها الخائف أمن ، أو طالب حاجة قضيت ، أو مسترفداً رفد[3] . ويستخلص من الأخبار الواردة عن هذه الكعبة ومن أسماء أصحابها ومن كونهم أساقفة انها كانت بيعة أسسها النصارى في مركز النصرانية في اليمن ، وهو موضع نجران ، وانه لا علاقة له بالوثنية . ويذكر الأخباريون ان بني عبد المدان ابن الديّان الحارثي أقاموها هناك ، مضاهاةً للكعبة[4] . وقد ذكر ( ابن الكلبي ) ان كعبة نجران لم تكن كعبة عبادة ، وانما كانت غرفة يعظمها القوم من بني الحارث بن كعب[5] . وبنو الحارث بن كعب هم رؤساء نصارى نجران .

وذكر بعض أهل الأخبار ان كعبة نجران وكانت لمذحج وبني الحارث بن كعب، عرفت بـ ( الربة )[6] .

وقد ذكر ( ابن الكلبي ) ان رجلاً من جهينة يقال له عبد الدار بن حُديب أراد بناء بيت بأرض من بلادهم يقال لها الحوراء ليضاهي به الكعبة حتى يستميل به العرب ، فأعظم قومه ذلك ، وأبوا عليه[7] . ونجد في كتاب ( الأصنام ) لابن الكلبي ، وفي كتب أهل الأخبار أسماء مواضع ذكر انها كانت بيوت عبادة حج اليها العرب حجهم لمكة . وذكر ان قريشاً بَنَتْ للعزى بيتاً بوادي حراض بإزاء الغمير ، وحمت له شِعباً من وادي حراض يقال له سقام ، يضاهون به

---

١ تاج العروس ( ١/٤٥٧ ) ، ( كعب ) ، الاصنام (٤٥) ، البلدان ( ٥/١٤٩ ) .
٢ تاج العروس ( ٢/٣٨٣ ) ، ( سند ) .
٣ البلدان ( ٨/٢٦٢ وما بعدها ) ، تاج العروس ( ٣/٥٥٦ ) ، ( نجر ) .
٤ البلدان ( ٨/٢٦٢ ) .
٥ الاصنام ( ص ٤٥ ) .
٦ تاج العروس ( ١/٢٦٢ ) ، ( ربب ) ، قال الاعشى :

وكعبة نجران حتم عليك حتى تناجي بأبوابها
يزور يزيد وعبد المسيح وقيسا هم خير أربابها

تاج العروس ( ٣/٥٥٦ ) ، ( نجر ) .
٧ الاصنام (٤٥) .

الكعبة ، وقد حجت اليه ، وكانت تنحر عنده، ويتقربون الى العزى بالذبائح[1] .

وقد ذكر الأخباريون أنه كان بعكاظ صخور يطوف الجاهليون بهـا ويحجون اليها[2] . وإذا تذكرنا ( دومة الجندل ) ومعبدها الكبير ، فلا يستبعد أن تكـون الأسواق الأخرى مواضع مقدسة قديمة كانت محجة للناس عامرة تفـد اليها القبائل في مواسم الحج ، ثم فقدت خطورتها قبيل الإسلام ، ولم يبق عليهـا إلا طابع الأسواق التجارية .

وتكون في المعابد مواضع يلقي فيها العباد وأصحاب النذور هداياهم ونذورهم التي يتقربون بها الى آلهة المعبد . وقد أشار أهل الأخبار الى وجودهـا في الكعبـة وفي المعابد الجاهلية الأخرى. ويظهر من وصفهم لها أنها كانت على شكل حفر، تلقى فيها تلك الهدايا والنذور . فذكر الأخباريون أنه كان على يمين الداخل الى البيت ( جب ) ، اتخذ خزانة للبيت يلقى فيه ما يهدى الى الكعبة ، وهو الجب الذي نصب عليه عمرو بن لحي ( هُبَل ) وهو صنم كانت قريش تعبده . وقـد عرف علماء اللغة الجب بأنه البئر[3] ، ووصفها ( الأزرقي ) ، فقال : إنها كانت في جوف الكعبة على يمين من يدخلها ، وكان عمقها ثلاث أذرع ، وان اسمهـا ( الأخسف ) ، وكانت العرب تسميها ( الأخشف )[4] .

**السقاية :**

وفي المعابد سقايا ، يستقى منها الماء للشرب وللتطهر ، كأن تغسل الأوجـه والأيدي والأرجل بالماء ليسمح للزائر بدخول المعبد ، أو لتحل له إقامـة الشعائر الدينية . ويعد الماء ماءً مقدساً ، لأنه من أرض مقدسة ، ولذلك يتبرك به أيضاً، ويستشفى بالشرب منه . وقـد عثر المنقبون على آثار آبار وأحواض مطمورة في حرم المعابد ، كان المتعبدون يستفيدون من مياهها عند زيارتهم بيوت أربابهم ،

---

١ الاصنام ( ص ١٦ ، ١٨ وما بعدها ) .

٢ البلـدان ( ٦/٢٠٣ ) ، المشرق ، السنة ٣٧ ، نيسان ـ حزيـران ، ١٩٣٩ م ( ص ٢٢٠ ) .

٣ اللسان ( ١/٢٥٠ ) « صادر » .

٤ أخبار مكة ( ١/٢٧ ، ٦٨ ) ، البلدان ( ٧/٢٥٨ وما بعدها ) .

وعند أدائهم الشعائر الدينية . وبئر زمزم ، هي البئر الوحيدة الباقية من آبار بيوت الله التي كانت في الجاهلية .

وقد كانت سقاية الحاج من المآثر الكبيرة عند أهل مكة،وهي تسقية الحجاج من الزبيب المنبوذ بالمـــاء . وكان يليها في أيام الرسول العباس بن عبد المطلب[1] . وكان بعضهم يسقي الحاج اللبن بالعسل .

## المذابح :

وتلحق بالمعابد مذابح تذبح عليها القرابين التي يتقرب بها المؤمنون الى آلهتهم، ويقال للواحد منها ، ( مذبـح ) و ( نصب ) و ( مصب ) و ( غبغب ) . وقد وردت لفظة ( مذبح ) و ( مذبحت ) ، أي ( المذبحة ) ، في طائفة من الكتابات . وهي مواضع الذبح ، حيث يكون تقريب القرابين الى الآلهة .

وقد ذهب علماء اللغة مذاهب في تحديد معنى ( النصب ) ، فرأى بعضهم ان النصب كل ما عبد من دون الله ، وذهب بعض آخـــر الى ان النصب صنم أو حجر كانت الجاهلية تنصبه ، وتذبح عنده ، فيحمرّ للدم ، وذهب آخرون الى ان الأنصاب حجارة كانت حول الكعبة تنصب ، ويذبح عليها لغير الله تعالى[2] . وعرفها بعضهم بقوله : « النصب الأوثان من الحجارة ، جماعـــة أنصاب كانت تجمع في الموضع من الأرض ، فكان المشركون يقربون لهـا وليست بأصنام » ، « قال ابن جريج : النصب ليست بأصنام . الصنم يصور وينقش، وهذه حجارة تنصب ثلثمائة وستون حجراً . منهم من يقول ثلثمائة منها بخزاعـــة . فكانوا اذا ذبحوا نضحوا الدم على ما أقبل من البيت وشرحوا اللحم وجعلوه على الحجارة . فقال المسلمون : يا رسول الله ؟ كان أهل الجاهلية يعظمون البيت بالدم ، فنحن أحق ان نعظمه »[3] . ولو أخذنا برواية ( ابن جريج ) ، خلصنا الى ان هـذه

---

١ اللسان ( ٣٩٢/١٤ ) . ( سقى ) ، الاصابة ( ٢٦٣/٢ ) ، ( رقم ٤٥٠٧ ) .

٢ اللسان ( ٧٦٠/١ ) « صادر » ، ( ٢٥٩/٢ ) « بولاق » ، القاموس ( ١٣٢/١ ) ، تاج العروس ( ٤٨٦/١ ) ، الاصنام (٩٧) ، تفسير الطبري ( ٤٤/٦ ) ، الاصنام (٣٣) ، ( المطبعة الاميرية ١٩٦٤ ) .

٣ تفسير الطبري ( ٤٨/٦ ) .

الأنصاب ، كانت بعدد أصنام الكعبة ، اي انهم كانوا قد خصصوا بكل صنم نصباً ، يذبحون عليه ما يتقربون به اليه من عتائر . فقد كان عدد أصنام الكعبة ثلثمائة وستون حجراً عـام الفتح على ما يذكره أهـل الأخبار ، إلا اذا اعتبرنا ما ذكروه عن عدد الأصنام وهماً ، وأخذنا برواية ( ابن جريج ) التي هي دون الرواية الأخرى في الشهرة والذكر .

وأشير الى ( النصب ) في شعر ينسب الى ( الأعشى ) ، يقال إنـه قاله في مدح الرسول . هو :

وذا النصب المنصوب لا تنسكنه  لعاقبـة والله ربك فاعبـدا [1]

وعلى كل ، فنحن لو أخذنا بالروايتين ، أو برواية واحدة منهما ، فإن العدد ( ٣٦٠ ) يلفت النظر حقاً . فلمَ خصص رواة الخبرين عدد الأصنام أو الأنصاب بهذا الرقم ، وهل يمثل ذلك شيئاً له صلة بالفلك ، أو بأسطورة دينية قديمـة كانت عند أهل مكة ؟

وقد وردت كلمة ( النصب ) في آية اللحوم المحرمات التي لا يجوز أكلها في القرآن الكريم : « حرمت عليكم الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، وما أُهل لغير الله به ، والمنخنقة ، والموقوذة ، والمتردية ، والنطيحة ، وما أكل السبعُ ، إلا ما ذكيتم ، وما ذبح على النصب »[2] . فجعلت الذبائح التي تذبح عـلى النصب للأصنام في جملة التي لا يحل للمسلم أكلها ، فيفهم من هـذه الآية أن النصب مواضع تذبح عليهـا القرابين . كما وردت في موضع آخر من سورة المائدة : « يا أيها الذين آمنوا ، إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمـل الشيطـان . فاجتنبوه »[3] . وقد ذكر علماء التفسير ، أن الأنصاب التي يذبحون عندها [4] .

وقـد ذكر علماء التفسير ، ان أهل الجاهلية كانوا قـد وضعوا حول الكعبة

---

١ تاج العروس ( ١/٤٨٦ ) ، ( نصب ) .
٢ المائدة ، الآية ٣ .
٣ المائدة ، الرقم (٥) ، الآية ٩٠ .
٤ تفسير الطبري ( ٧/٢١ ) .

أنصاباً ، أي حجارة كانوا يذبحون عليها ، فكانوا اذا ذبحوا نضحوا الدم على ما أقبل من البيت وشرحوا اللحم : وجعلوه على الحجارة . وكانوا يبدلونها إذا شاؤوا بحجر هو أحب اليهم منها[1] . كما كانوا قد وضعوا الأنصاب في بيوت الأصنام الأخرى ، يذبحون عليها ذبائحهم لها . وقد أشير الى ( المائرات )، أي الدماء : دماء الذبائح لـ ( رشيد بن رميض العنزي ) :

حلفت بمائرات حول عوض وأنصار تركن لدى السعير[2]

و ( عوض ) صنم لبكر بن وائل ، و ( السُعَير ) صنم لعنزة خاصة .

و ( نصب ) هي ( نصب ) و ( مصب ) في اللهجات العربية الجنوبية ، و ( نصب ) و ( مصبت ) في الفينيقية ، و ( مصبه ) Masseba في العبرانية . ويراد بها مذبح ، تذبح عليها القرابين والضحايا التي يقدمها المتعبدون الى معبودهم Deity . ويعرف بـ Altar أي مذبح في الانكليزية . وهو من حجر واحد في الأصل ، قد يذبح عليه ، فيسيل الدم فوقه ويتلطخ به ، وقد يكون في نظرهم بمثابة المعبود الذي تقدم الضحية اليه . وقد يذبح عليه ، فيسيل الدم من فتحة تكون فيه الى بئر تتجمع فيها دماء الذبائح ، تكون عند قاعدة النصب .

وقد تخصص المذابح بحرق لحم الذبيحة كله أو بعضه عليها ، تقرباً الى الأصنام، كالذي كان يفعله العبرانيون[3] .

وقد عثر المنقبون على أحجار عديدة اتخذت أنصاباً لذبح القرابين عليها أو عندها ، عثر عليها في العربية الجنوبية بصورة خاصة . وفي بعضها فتحة على هيأة ثقب تسيل منه دماء القرابين الى موضع تتجمع فيه . وفي بعض آخر مسايلُ جانبية ، تسيل الدماء منها الى الخارج . وهذه الأنصاب هي ( مذابح ) ويقال للواحد منها ( مذبحم ) في العربيات الجنوبية أي ( مذبح ) . ولذبح القرابين ( ذبحن ) و ( ذبحم ) ، أي ( الذبح ) و ( ذبح ) .

---

١ تفسير الطبري ( ٤٨/٦ وما بعدها ) ، « وهي أحجار كانت حول الكعبة يذبحون عليها للاصنام » ، ارشاد الساري ( ١٧٢/٦ ) .

٢ تاج العروس ( ٢٦٨/٣ ) ، ( سعر ) ، ( ٥٥٠/٣ ) ، ( مور ) .

٣ Hastings, p. 23.

فالنصب اذن ، الأحجار التي تذبح عليها القرابين وما يهل للأصنام . والعادة أن تكون أمام الصنم ، وعلى مقربة منه . فإذا ذبح القربان سال دمه على النصب الى ثقب يؤدي الى حفرة يتجمع فيها الدم . هي (الغبغب) . و (النصب) هو ( مصبه ) Massebah في العبرانية ، حيث كانوا يذبحون عليها القرابين . ولكثرة ما كان يذبح عليها صارت تبدو حمراء من لون الدم ، وقد أشير الى الحمرة في حـديث اسلام ( أبي ذر الغفاري ) ، إذ ذكر أنه وصف تعذيب قريش له بقوله : « فرماني الناس حتى كأني نصب أحمر »[1] .

وليس لأهل الأخبار رأي واحد في ( الغبغب ) ، وإنما ذهب بعضهم الى أن الغبغب هو المنحر ، وذهب بعض آخر الى أنه خزانة المعبد ، يلقي الناذرون فيها ما عندهم من نذور وقربات ، وذهب فريق آخر الى أنه بيت كان الناس يحجون اليه ، كما يحج الى البيت بمكة[2] . وقيل إنه كان لمعتب بن قيس بيت يقـال له غبغب ، كانوا يحجون اليه[3] .

والذي عليه أكثر أهل الأخبار أن (الغبغب) المنحر . وقد صرح بذلك (ابن الكلبي ) في كتاب ( الأصنام ) : وهو يتحدث عن (العزى ) ، فقال : « ولها منحر ينحرون فيه هداياها ، يقال له الغبغب »[4] . كما صرح بذلك علماء اللغـة إذ عرفوا الغبغب بأنه المنحر ، أو نصب كان يذبح عليـه في الجاهلية ، أو كل مذبح بمنى . وقد خصصه بعضهم بمذبح منى[5] : أو هو حجر ينصب بين يدي صنم ، وكان لمناف مستقبل ركن الحجر الأسود غبغب ، وقيل كانا اثنين.ويظهر من شرح علماء اللغـة للمثل : ( رب رمية من غير رامٍ ) ، ينسب قوله الى الحكم بن عبد غوث أن الغبغب هو المذبح ، أي المنحر الذي ينحر عليه[6] .

---

١ الاصابة ( ٤/٩٣ ) ، ( الرقم ٣٨٤ ) ، « فخررت مغشيا علي ، ثم ارتفعت كأنـي نصب أحمر » ، الاصنام (١١١) .

٢ مراصد الاطلاع ( ٢/٩٨٣ ) ، البـلدان ( ٤/١٨٥ ) ، اللسـان ( ١/٦٣٧ ) ، تاج العروس ( ١/٤٠٣ ) ، البلدان ( ٦/١١٢ ) ، الاصنام (١١١) ، ابن هشـام ( ١/٥٥ ) .

٣ ابن هشام ( ١/٥٥ ) ، البلدان ( ٦/١١٢ ) .

٤ الاصنام (١٣) « روزا » .

٥ اللسان ( ١/٦٣٧ ) .

٦ اللسان ( ١/٦٣٧ ) « صادر » ، ( ٢/١٢٨ وما بعدها ) « بولاق » ،تاج العروس ( ١/٤٠٣ ) ، ( غب ) ، البلدان ( ٦/٢٦٥ ) ، ( الغبغب ) .

ويظهر من روايات أهل الأخبار عن (بيوت) الآلهة انه كان لكل ( بيت ) ( غبغب ) ، تذبح فيه هداياها ، أي ما يهدى الى تلك البيوت من قرابين . وقيل : الغبغب : المنحر ، وهو جبيل بمنى ، فخصص . وقيل كل منحر بمنى غبغب . قال الشاعر :

والراقصات الى منى فالغبغب[1]

ويذكر علماء اللغة ان ( الغبغب ) ( العبعب ) كذلك[2] . وان العبعب موضع الصنم . وصنم لقضاعة ومن داناهم[3] . وبيت كان لمعتب بن قيس، كانوا يحجون اليه كما يحجون الى البيت[4] . ويظهر من هذا الشرح ان (الغبغب) و (العبعب) ، كلمة واحدة ، لشيء واحد .

و ( الغبغب ) ( الجب ) كذلك . وهو حفرة يجمع فيها دم البدن ، والجمع ( الجباجب ) . قال « الزبير بن بكّار : الجباجب جبال مكة حرسها الله تعالى، أو أسواقها أو منحر . وقال البرقي ، حُفرٌ بمنى كان يلقى به الكروش ، أي كروش الأضاحي في ايام الحج ، أو كان يجمع فيها دم البدن والهدايا ، والعرب تعظمها وتفخر بها »[5] .

ويفهم أحياناً ان (الغبغب) ، حفرة أو بئر ، كان المتعبدون للأصنام يرمون بها نذورهم وهداياهم وما يتقربون به الى أصنام من نذور نفيسة ، من ذهب أو فضة أو حجارة كريمة . فكانت تحت صخرة (اللات) حفرة عرفت بـ (الغبغب) حفظت فيها الهدايا والنذور والأموال التي كانت تقدم الى الصنم . فلما هدم الصنم أخذت من الغبغب تلك الأموال[6] . ويرادف الغبغب ( الجب ) ، الذي يقال له ( الأخسف ) و ( الأخشف ) ، وهو بئر في جوف الكعبة نصب (هبل) عليه . كان الناس يرمون فيها نذورهم وهداياهم . وتقع على يمين من يدخل البيت ، وكان عمقها ثلاث أذرع[7] .

---

١ تاج العروس ( ١/٤٠٤ ) ، ( غب ) .
٢ تاج العروس ( ١/٤٠٣ ) ، ( غب ) .
٣ تاج العروس ( ١/٣٦٣ ) ، ( عب ) ، البلدان ( ٦/١١٢ ) ، الاصنام (١١١) .
٤ البلدان ( ٤/١٨٥ ) .
٥ تاج العروس ( ١/١٧٤ ) ، ( جبب ) .
٦ الطبري ( ٣/٩٩ وما بعدها ) .
٧ أخبار مكة ، للازرقي ( ١/٦٦ وما بعدها ) .

و ( الغريّ ) مذبح على ما يظهر من تفسير علما اللغة لهذه اللفظة . يظهر أنه كان صخرة تذبح عندها الذبائح وتطلى بدمها ، أو نصب، تذبح القرابين عليه[1] .

ويعبر عن المذبح الذي تذبح عليه الحيوانات الكبيرة، مثل البقر بلفظة (حردن)[2].

ومن الألفاظ التي تطلق على المذبح ، ( منطف ) و ( منطفت ) ، أي ( المنطفة ) ، وهي المذبحة[3] . والمذبح ، هو ( مذبحت ) في نصوص المسند ، أي موضع الذبح .

## المحارق :

وتلحق بالمعبد محارق ، تحرق فيها القرابين ، يقال لها ( مصرب )[4] . وقد كان العبرانيون يحرقون قرابينهم ، في محارق تلحق بالمعبد ، وتكون جزءاً منه . أما العرب ، فإننا لا نستطيع أن نقول إنهم كانوا يحرقون قرابينهم في كل جزيرة العرب ، لأننا لا نملك أدلّة آثارية على ذلك ، إلا معابد اليمن واعالي الحجاز ، حيث عثر على آثار المحارق في معابدها، مما يدل على أنهم كانوا يحرقون القرابين.

و ( المصرب ) ، المحرقة ، الموضع الذي يحرق به الخشب ذي الرائحة الطيبة أو البخور ، وهو مبخرة ، تكون في المعابد ، يحرق بها ، لتفوح منها روائح طيبة ، أثناء العبادة . وقد أشير اليها في نصوص المسند .

## البخور والمباخر :

وللتبخير شأن كبير في أداء الفروض في المعابد ، إذ لا بد من حرق البخور فيها ، فيبخر بها المذبح والأصنام كما يبخر القائمون بأداء تلك الفروض . وتسمى المبخرة بـ ( مسلم ) ، وبـ ( مقطر ) وذلك في لغة بعض الجاهليين[5] .

---

١ اللسان ( ١٥/١٢٢ ) ، ( غرا ) ، تاج العروس ( ١٠/٢٦٤ ) .

٢ Grohmann, Arabien, S. 247.

٣ Grohmann, Arabien, S. 249.

٤ Grohmann, Arabien, S. 247.

٥ Grohmann, Arabien, S. 247.

و ( المجمرة ) والمجمر ، الموضع الذي يوضع فيه الجمر بالدخنة للتجمير[1] .

وقد أشير الى المجمرات والمباخر في كتابات المسند . وعثر المنقبون على نماذج منها ، قدمها الناذرون نذوراً الى آلهتهم ، وقد وضعوها في معابدها ، وهي في جملة الهدايا المرموقة التي تقدم الى المعابد بعضها من أحجار وبعضها من معدن بذل جهداً في صنعته وفي زخرفته حيث يكون هدية قيّمة تكون خليقة بوضعها في المعابد .

وقد كان الناس يأتون بالمجامر ليجمّروا بها الكعبة تقرباً بعملهم هذا الى الأصنام ، وذكر ان حريقاً أصاب الكعبة ، بسبب تطاير شرر من مجمرة امرأة جمرت البيت ، فأصاب ستار الكعبة ، فاحترق . والتجمير ، هو من شعائر التقدير والتعظيم . وهو مما يدخل في الطقوس ، وقد صرفت المعابد القديمة أموالاً على شراء (العود) وغيره لاحراقه في المجامر ، لتطييب المذبح والمعبد به . وكان البخور مما يبخر به في المعابد أيضاً . وقد استعمله الجاهليون في بيوتهم المعظمة كذلك .

وتلحق بالمعابد مواضع يخزن فيها ما يقدم الى المعبد من هدايا ونذور ، وما يرد اليه من غلات أوقافه . واذا كانت النذور والهدايا ماشية ، فقد تحفظ في مواضع بعيدة عن المعبد،أو توضع في احماء المعابد لترعى بها . ولا يجوز التعرض لها بسوء . وتعلم بعلامات تشير إلى أنها مما حبس على الأصنام . وكانت لهبل خزانة للقرابين . وكان قربانه مئة بعير ، وله حاجب يقوم بخدمته[2] . وفي جملة ما أهداه الناس الى أصنامهم السيوف والملابس ، وكانوا يعلقونها أحياناً على الأصنام[3] .

### سدنة الآلهة :

ولبيوت العبادة سدَنة وحجبة وخدم ، يقومون كلهم بخدمة البيت وما فيه من أصنام . ويعبر في عربيتنا عن الذي يتولى أمر الصنم بـ ( السادن ) و (سادن الصنم).

---

١ تاج العروس ( ٣/١٠٨ ) ، ( جمر ) .
٢ الازرقي ، أخبار مكة ( ١/٦٨ وما بعدها ) .
٣ نهاية الارب ( ١٦/١٩ ) .

وهو المسؤول عن الصنم أو الأصنام ، ومتولي أمرها . وهو المرجع الأعلى في سلسلة الرتب بالنسبة الى المعابد . ويعبر عنه بلفظة ( شوع ) في المعينية [1] ، وبلفظة أخرى هي ( رشو ) . وأما إذا كان السادن امرأة ، فيقال لها ( رشوت ) ( رشوة ) عندئذ [2] .

ويقال لسادن الآلهة ( افكل ) ( أفكل ) في اللحيانية . جاء ( افكل لت ) ( أفكل لات ) أي ( سادن اللات ) [3] . وتقابل هـذه اللفظة لفظة ( ابكالو ) Apkallu في اللغة الأكادية [4].

وتعد السدانة من المنازل الدينية والاجتماعية الرفيعة عند الجاهليين . وبيد السادن في العادة مفتاح بيت الصنم أو الأصنام . وتكون وراثية في الأغلب تنتقل في أفراد العائلة من الأب الى ابنه الأكبر أو الى غيره من البارزين في الأسرة . وهي منزلة شرف ، تكسب صاحبها جاهاً ، كما تكسبه مالاً ، لما تأتي به اليه من حبوس ونذور وقرابين . لذلك صارت سبباً لوقوع خصومات بين الأسر ، من أجل الاستحواذ عليها ، كالذي حدث مراراً في مكة من أجل الحصول على مفاتيح البيت .

وسدنة الأصنام في الجاهلية قومتها وحجابها ، وكانت السدانة واللواء بمكة لبني عبد الدار في الجاهلية ، فأقرها النبي لهم في الإسلام . فكان اليهم أمر مفتاح البيت [5] .

ومن قدماء من كانت اليهم ولاية أمر البيت الحرام أي سدانته ، رجل زعموا انه ولي أمر البيت بعد جرهم ، ودعوه ( وكيع بن سلمة بن زهير ( زهر ) الإيادي ) . جعلوه سادناً ، وجعلوه كاهناً ، فنسبوا اليه سجعاً من نوع سجع الكهان . ذكر انه جمع إياداً قبيل وفاته فنصحها وأوصاها . وزُعم انه بنى صرحاً بمكة ، وجعل فيه سلّماً كان يرقاه ليناجي الله. وكان الجاهليون يرون انه صدّيق

---

١ راجع النص رقم ٤ و ٥ من كتاب : نقوش خربة معين .

٢ Grohmann, Arabien, S. 248.

٣ Grohmann, Arabien, S. 82, Jaussen-Savignac, Mission, II, 506.

٤ Grohmann, Arabien, S. 248.

٥ تاج العروس ( ٩/٢٣٣ ) ، ( سدن ) .

من الصدّيقين ، وانه ينطق بالخبر اليقين من السماء . وذكر انه صاحب الصرح المعروف بحزورة مكة ، وانه هو القائل : « اسمعوا وصيتي : الكلام كلمتان ، والأمر بعد البيان . من رشد فاتبعوه ، ومن غوى فارفضوه ، وكل شاة معلقة برجلها » . فكان أول من قال هذه الكلمة ، فذهبت مثلاً[1] .

ويذكر أهل الأخبار انه لما مات وكيع ، نعي على الجبال . وفيه يقول بشير بن الحجير الإيادي :

ونحن إياد عباد الإلـه ورهط مناجيه في سلم
ونحن ولاة الحجاب العتيق زمان النخاع على جرهم

ويفسرون زمان النخاع بأنه داء يقال له النخاع ، سلّط على جرهم ، فأفنى منهم ثمانين كهلاً في ليلة واحدة ، سوى الشباب . وفي هذا الداء قال بعض العرب :

هلكت جرهم الكرام فعالاً وولاة البنية الحجاب
نخعوا ليلة ثمانين كهلاً وشباباً كفى بهم من شباب[2]

ويظهر ان داءً كان قد تفشى في عهد غير بعيد عن الاسلام بين جرهم ، فبقيت ذكراه في النفوس . ولا بد ان يكون ( وكيع بن سلمة ) ممن عاشوا قبيل الاسلام أيضاً ، فبقيت ذكراه في أهل مكة ، وإلا لما حفظت الذاكرة اسمه .

وقد ذكر أهل الأخبار أحياناً أسماء الأسر التي تولت سدانة البيوت المعظمة والمحجات ، كما ذكروا أسماء السدنة ، ولا سيما السدنة الذين كانت اليهم سدانة تلك البيوت عند ظهور الاسلام . وهم من أسر عريقة ، توارثت هذا المنصب من عهد بعيد ، وحافظت عليه ، وصارت بذلك من أشراف القوم .

---

١ المحبر ( ص ١٣٦ ) ، الامثال ، للميداني ( ٢/٨١ ) ، البيان والتبيين ( ٢/١٠٩ ) ، بلوغ الارب ( ٢/٢٦٠ ) .

٢ بلوغ الارب ( ٢/٢٦٠ وما بعدها ) .

**حرمة المعابد :**

ومع الحرمة التي كانت للمعابد ، انتهك المستهترون وذوو الحاجة حرمتهـا ، فسرقوا ما تمكنوا عليه من خزائنها . فقد سرقت خزانة الكعبة مراراً . ذكر أهل الأخبار أن سارقاً سرق من مالها في زمن جرهم ، وانه دخل البئر التي فيها كنزها ، فسقط عليه حجر فحبسه فيها حتى أخرج منها وانتزع المال منه . وسرقت قبيل بنيانها في أيام الرسول ، سرقها فتيان من فتيان قريش وأودعوا المال عند (دويك) مولى لبني مليح بن عمرو من خزاعة . فقطعت قريش يده[1] .

---

١ الروض الانف ( ١/١٣٠ ) .

## الفصل الرابع والسبعون

# الكعبة

وكعبة مكة ، هي الكعبة الوحيدة التي بقيت محافظة على اسمها ومقامها حتى اليوم ، من بين الكعبات التي كانت في الجاهلية . فقد اندثر أثر الكعبات الأخرى وزالت معالمها ، ولم يبق لها مكان . والى الاسلام يعود ولا شك فضل بقاء ( البيت الحرام ) . وبفضل الإسلام أيضاً جمع العلماء ما تمكنوا من جمعه من تأريخ المدينة القديم والمعالم المتصلة بها ، ومن أخبار قريش ، لما لهذا التأريخ من صلة بظهور الاسلام[1] .

ويذكر أهل الأخبار أن الكعبة كانت معروفة عند العرب خارج الحجاز كذلك ، وأنهم كانوا يحجون اليها ويقدسونها ويقسمون بها . وأن ممن أقسم بها وذكر البيت

---

١ آل عمران ، الآية ٩٦ ، تفسير الطبري ( ٦/٤ وما بعدها ) ، ( دار المعارف ) ، الطبرسي ( ٤٧٦/٢ ) ، سورة الحج ، الرقم ٢٢ ، الآية ٢٦ ، تفسير الطبري ( ٤٧/٣ وما بعدها ، ٦٦ وما بعدها ) ، تفسير الطبرسي ( ٧٨/٧ وما بعدها ) ، سورة ابراهيم ، الرقم ١٤ ، الآية ٣٧ ، تفسير الطبري ( ١٥٢/١٣ ) ، روح المعاني ( ٢١٢/١٣ ) ، تفسير الطبرسي ( ٣١٧/٦ وما بعدها ) ، البقرة ، الآية ١٢٧ ، تفسير الطبري ( ٥٤٦/١ ) ، تفسير الطبرسي ( ٢٠٦/١ ) ، البقرة ، الآية ١٥٨ ، تفسير الطبري ( ٤٣/٢ ) ، تفسير الطبرسي ( ٢٣٨/١ وما بعدها ) ، سورة المائدة ، الآية ٩٧ ، تفسير الطبري ( ٧٦/٧ وما بعدها ) ، تفسير الطبرسي ( ٢٤٦/٣ وما بعدها ) ، سورة الانفال ، الآية ٣٤ ، تفسير الطبري ( ٢٣٨/٣ ) ، تفسير الطبرسي ( ٥٣٩/٣ ) ، سورة الايلاف ، الآية ٣ ، تفسير الطبري ( ٣٠٧/٣٠ وما بعدها ) ، تفسير الطبرسي ( ٥٤٣/١٠ ) .

في شعره ( زهير )[1] و ( النابغة )[2] . وقد عرفت بـ ( البيت العتيق ) ، وبـ ( البيت المعمور )[3] . ورووا أن ( عدي بن زيد العبادي ) قصدها بقوله :

كلا يميناً بذات الودع لو حدثت فيكم وقابل قبر الماجد الزارا

دعاها ( ذات الودع ) لأنه كان يعلق الودع في ستورها[4] .

وقد أقسم بها شاعر جاهلي آخر ، هو ( عوف بن الأحوص ) إذ قال :

وإني والذي حجت قريش محارمه وما جمعت حراء

وشاعر عامري آخر ، إذ قال :

فأقسم بالذي حجت قريش وموقف ذي الحجيج الى إلال[5]

يريد بذلك مكة . وبمكة بيت الله .

ومعارفنا عن ( البيت الحرام ) ضئيلة ، وفي الذي يذكره أهل الأخبار عنه ما لا يمكن قبوله ولا الأخذ به ، لأنه لا يدخل في حدود التأريخ ، ولغلبة الطابع القصصي عليه . ثم إن بعضه يناقض بعضاً ، وفي بعضه تحيز وتعصب لبيت قرشي على بيت آخر . وحتى القسم الذي يتناول الأيام القريبة من الإسلام ، لا يخلو من اضطراب ومن تناقض ، وفيه شعر نحل على أناس ، أقحمت أسماؤهم في قصص مكة ، لتثبيته على طريقتهم في تثبيت الأخبار برواية شعر يتعلق بها .

ولم يعثر حتى الآن على كتابة جاهلية تكشف القناع عن تأريخ (البيت الحرام). ولذلك انحصر علمنا بتأريخه بما ورد في الموارد الاسلامية عنه .

وقد نص في القرآن الكريم ، على ان ابراهيم واسماعيل هما اللذان رفعا القواعد من البيت « وإذ جعلنا البيتَ مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ،

---

١ فاقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم
ديوان زهير (١٥) ، الثعالبي ، ثمار القلوب (١٦) .

٢ فلا ورب الذي قد زرته حججا وما هريق على الانصاب من جسد
(فلا لعمر الذي مسحت كعبته) في رواية أخرى، ديوانه (٢٥)، الثعالبي، ثمار (١٧).

٣ البلدان ( ١/٥٢١ ) ، ( بيروت ١٩٥٥ ) .

٤ تاج العروس ( ٥/٥٣٤ ) ، ( ودع ) .

٥ المحبر (٣١٩) ، شرح ديوان لبيد (٢١) .

وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود . وإذ قال ابراهيم ربّ اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر . قال : ومن كفر فأمتّعه قليلاً ثم اضطره الى عـذاب النار وبئس المصير . وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبّل منا انك أنت السميع العليم »[1] . وقد كان تأسيس البيت في ايام العرب الأولى ، في ايام جرهم ، على روايات أهل الأخبار ، وفيهم تزوج . وفي عهده ظهر ماء بئر زمزم[2] .

ويذكر أهل الأخبار ان مكة حرم آمن ، لا يحلّ فيه قتال ، ولم يكن أهله يقاتلون فيه ، وان أول بغي وقع فيه ، كان حرب وقعت بين ( بني السباق بن عبد الدار ) وبين ( بني علي بن سعد بن تميم ) ، حتى تفانوا . ولحقت طائفة من ( بني السباق ) بعك ، فهم فيهم . وقيل أول بغي كان في قريش : بغي ( الأقايش ) ، وهم ( بنو أقيش ) من بني سهم ، بغى بعضهم على بعض ، فلما كثر بغيهم على الناس ، أرسل الله عليهم فأرة تحمل فتيلة ، فأحرقت الدار التي كانت فيها مساكنهم فلم يبق لهم عقب[3] .

وقد بقي البيت معبوداً مقدساً عند أهل مكة وعند غيرهم ، غير أن المشركين حوّلوه الى بيت لعبادة الأصنام والأوثان والشرك حتى عـام الفتح ، حيث أزال الرسول عنه آثار الجاهلية ، وأمر بطمس معالم الوثنية . وصار حرماً آمنـاً خاصاً بالإسلام لا يدخله مشرك ولا تطأ أرضه أقدام غير مسلم مؤمن بالله وبرسوله .

ويذكر أهل الأخبار أن أهل مكة كانوا يعظمون البيت،وأن من سنن تعظيمهم له ، أن من علا الكعبة من العبيد ، فهو حرّ لا يرون الملك من عـلاها ، ولا يجمعون بين عزّ علوّها وذل الرق[4] .

---

١ البقرة ، السورة رقم ٢ ، الآيه ١٢٦ وما بعدها .

٢ الطبري ( ١/٢٧٥ ) ، قصص الانبياء ، (٦٩) ، Shorter Ency. of Islam, p. 178. ff., Grünbaum, Neue Beiträge zu Sem. Sogenkunde, S. 102, Goldziher, Die Richtungen der Islamischen Koran-auslegung, S. 79, J. Harovitz, Koranische untersuchungen, S. 91.

٣ الروض الانف ( ١/٢٨ ) .

٤ الثعالبي ، ثمار (١٨) .

وانهم لم يكونوا يبنون بنياناً مربعاً بمكة تعظيماً للكعبة[1] . وأن أول مـــن بنى بها بيتاً مربعاً ، ( بديل بن ورقاء ) الخزاعي ، وهو أول من اتخذ بمكة روشناً ، وكانوا قبل ذلك يتحامون التربيع في البناء كيلا يشبه بناء الكعبـة[2] وأن أول من سقف بمكة سقفاً ( قصي بن كلاب ) ، وكان الناس قبل ذلك إنمـا ينزلون في العريش . وأن أول من بوب بمكة باباً ( حاطب بن بلتعة )[3] .

و ( بديل بن ورقاء ) ، هو ( بديل بن ورقاء بن عبد العزى ) ، شريف كتب اليه النبي يدعوه الى الاسلام ، وكان له قدر في الجاهلية بمكـــة[4] . فلو أخذنا برواية من قال انه كان أول من بنى بيتاً مربعاً بمكة ، وأول من اتخذ بها روشناً ، وجب جعل حدوث ذلك في ايام النبي ، أو بسنين قليلة قبل المبعث ، فهل يعقل ذلك ؟ والروشن الرف ، و ( الرشن ) الكوة ، من الألفاظ المعربة عن الفارسية[5] .

وأما ( حاطب بن أبـي بلتعة ) فهو ( حاطب بن أبـي بلتعة بن عمـــرو بن سلمة بن صعب بن سهل اللخمي ) ، حليف بني أسد بن عبـــد العزى ، من الصحابة وممن شهد بدراً ، كان حليفاً للزبير ، وكان قد كتب كتاباً الى قريش يخبرهم بتجهيز رسول الله اليهم ، فضبط الكتاب قبل وصوله مكة ، واعتذر . فهو من الصحابة[6] ،وذكر ان الرسول أرسله الى (المقوقس) صاحب الاسكندرية[7] . فهل يعقل أن يكون أول من بوّب باباً بمكة ، وقد كانت البيوت قبله بمكة منذ وجدت ، فكيف كان يدخـــل الناس اليها ، وقد رأينا قصصاً لأهـــل الأخبار يروونه عن امتناع (الحمس) عن دخول البيوت من أبوابها ، والحمس هم قريش وأهل مكة قبل دخول ( حاطب ) اليها !

ويذكر أهل الأخبار أن البيت قد تهدم مراراً ، وأن السيول قوضت قواعده عدة مرّات ، لـــذلك لم يتمكن ( بيت ابراهيم واسماعيل ) من البقاء ، ولكن

---

١ النعالبي ، ثمار القلوب (١٦) .
٢ صبح الاعشى ( ١/٤٢٦ ) .
٣ صبح الاعشى ( ١/٤٢٦ ) .
٤ الاشتقاق (٢٨٠) .
٥ تاج العروس ( ٩/٢١٦ ) ، ( رشن ) .
٦ الاصابة ( ١/٣٠٠ ) ، (١٥٣٨) ، المحبر (٧٢) .
٧ المحبـــر (٧٦) .

الجاهليين حرصوا على المحافظة على أسسه وشكله وموضعه . وإنهم كانوا بعد كل هدم أو تصدع يصيبه يحاولون إرجاعه الى ما كان عليه في أيام آبائهم وأجدادهم جهد امكانهم ، لا يحدثون فيه تغييراً ولا يدخلون على صورة بنائه تبديلاً .

و ( البيت الحرام ) بناء مكعب ، ولذلك قيل له ( الكعبة ) . وصفه أهل الأخبار،فقالوا كانت الكعبة قبل الاسلام بخمسة أعوام صنماً ، أي حجارة وضعت بعضها على بعض من غير ملاط ، فوق القامة ، وقيل كانت تسع أذرع من عهد اسماعيل ، ولم يكن لها سقف ، وكان لها باب ملتصقة بالأرض . وكان أول من عمل لها غلقاً هو تبع[1] . ثم صنع ( عبد المطلب ) ، لها باباً من حديد ، حلاها بالذهب من ذهب الغزالين . وهو أول ذهب حليت به الكعبة[2] .

ووصف أهل الأخبار لها على النحو المذكور ، يجعلنا نتصورها وكأنها خربة بدائية بسيطة ، هي ساحة تكاد تكون مربعة أحيطت بجدار من أحجار رضمت بعضها فوق بعض من غير مادة بناء تمسك بينها ، تحط في فنائها الطيور وسباع السماء ، ولا يحول بين أرضها وبين أشعة الشمس المحرقة والأمطار التي تنزل على مكة أحياناً على شكل مياه خارجة من أفواه قرب ، أي حائل . إنها في الواقع حائط من أحجار لا يزيد ارتفاعه على قامة إنسان .

ويذكر بعض أهل الأخبار أن أول من بنى جدار الكعبة ، ( عامر ) الجادر من الأزد . فقيل له : ( الجادر )[3] . وكان أول من جدر الكعبة بعد اسماعيل[4] .

وأول تسقيف لها كان — كما يذكر أهل الأخبار — في التعمير الذي أجري عليها في النصف الأول من القرن السابع للميلاد ، وذلك قبل الاسلام بخمس سنين ، وعمر الرسول يومئذ خمس وثلاثون سنة . وسبب ذلك حريق أصابها — كما يزعمون — فقرروا إعادة بنائها ، واجتمعوا وعملوا رأيهم فكان قرارهم تسقيفها بخشب ، وقد أقيم السقف على ستة أعمدة من الخشب،وزعت في صفين . وزادا فيها تسع أذرع ، فصارت ثماني عشرة ذراعاً ، ورفعوا بابها عن الأرض، فكان لا يصعد اليها إلا في درج أو سلّم . ورفعوا من جدرانها التي بنوها بساف

---

١ الروض الانف ( ١/١٢٧ ) ، الطبري ( ٢/٢٨٣ وما بعدها ) .
٢ الروض الانف ( ١/١٠١ ) .
٣ ابن سعد ، طبقات ( ١/٦٤ ) ، ( صادر ) .
٤ الاشتقاق (٢٥) .

من حجر وساف من خشب ، حتى زادت عـلى ما كانت عليه في الأصل[1] . وورد في الأخبار ان رسول الله لما دخل الكعبة عام الفتح ، قام عند سارية فدعا، وفيها ست سوار[2] .

وذكر أهل الأخبار ، ان سبب بنيان الكعبة ، هو انهـا كانت رضمة فوق القامة ، وانها كانت قد تصدعت حتى تداعت جدرانهـا وتساقطت أحجارها ، فأرادوا رفعها وتسقيفها ، وذلك ان نفراً من قريش وغيرهم سرقوا كنز الكعبة ، وانما كان يكون في بئر في جوف الكعبة ، فأجمعوا أمرهم في هدمها وبنائها[3] .

ولم يكن هذا البناء الجديد بناءً فخماً ، كما يظهر من الوصف الوارد في كتب أهل الأخبار . كل ما فيه أنه غرفة سقفت الآن بخشب ، أقيم سقفها على صفين من أعمدة ، كل صف ذي ثلاثة أعمدة . وأما حيطانها ، فقد زيد ارتفاعها فصار ثماني عشرة ذراعاً ، بعد أن كانت تسعة أذرع ، أو ارتفاع قامة أو أعلى من ذلك بقليل . وقد بنيت هذه المرة من مادة بناء قوية ، جعلت مدماكاً من حجارة ومدماكاً من خشب ، فكان الخشب خمسة عشر مدماكاً ، والحجـارة ستة عشر مدماكاً . وجعلوا سقفها مسطحاً له ميزاب ، يسيل منه ماء المطر . وهو عـلى الجملة لا يقاس بشيء بمعابد العربية الجنوبية مثل معبد ( المقه ) بمدينة مأرب أو المعابد الأخرى التي تمكن الباحثون من الوقوف على أسسها ومعالمهـا ، من حيث مساحة البناء أو الفن أو الروعة والعظمة .

ويذكر أهل الأخبار أن أهل مكة استعانوا بتسقيف البيت بخشب سفينة رجل من تجار الروم رمى البحر بسفينته الى الساحل الى ( الشعيبة ) ، وهو مرفأ السفن من ساحل الحجاز ، وكان مرفأ مكة ، ومرسى سفنها قبل ( جـدة ) . فجاؤوا بالخشب الى مكة ، وكان بها نجار ( قبطي ) ، استعين به في تسقيف البيت بذلك الخشب . وذكر أن الذي سقف البيت علج كان في السفينة ، يحسن النجارة اسمه

---

١ الروض الانف ( ١/١٢٧ وما بعدها ) ، الطبري ( ٢/٢٨٣ وما بعدها ) ، « دار المعارف » ، البلدان ( ٧/٢٥٩ ) ، ( الكعبة ) ، مروج الذهب ( ١/١٦٩ ) ، ( محمد محيي الدين عبد الحميد ) .

٢ صحيح مسلم ( ٤/٩٧ ) ، ( باب استحباب دخول الكعبة للحاج وغيره والصلاة فيها والدعاء في نواحيها كلها ) .

٣ الطبري ( ٢/٢٨٣ ) .

( باقوم ) . فجيء به مع الخشب،وسقف الكعبة . وقد سألهم عن كيفية تسقيفها هل يجعل السقف قبة أو مسطحاً ، فأمروه أن يكون مسطحاً ، فعمله على ما أمروه به[1] . ويذكرون أن قريشاً حين أرادوا بناء الكعبة أتى ( عبدالله بن هبل ابن أبي سالم ) ، ومعه مال ، فقال : دعوني أشرككم في بنائها ، فأذنوا له فبنى الجانب الأيمن ، فـ ( لبني كلب يد بيضاء في نصرتهم لقريش حين بنوا الكعبة )[2] . وصاحب هذا الخبر هو ( ابن الكلبي ) ، ولا استبعد أن يكون خبره هذا من وحي العاطفة نحو قومه الكلبيين .

وذكر أن ( باقوم ) الرومي ، كان يتجر الى ( المندب ) ، فانكسرت سفينته بالشعيبة ، فخرجت اليه قريش فأخذوا خشبها . وقالوا له ابنها على بنيان الكنائس، وقال لقريش : هل لكم أن تجروا عيري في عيركم ، يعني التجارة ، وأن أمدكم بما شئتم من خشب ونجار ، فتبنوا به بيت ابراهيم[3] .

ويذكر الأخباريون انه كان في بطن البيت قرنا كبش معلقان في الجدار تلقاء من دخلها يخلّقان ويطيّبان اذا طيب البيت ، وقد علق عليهما معاليق من حلي كانت تهدى الى الكعبة . ويرمز القرنان الى قرني الكبش الذي ذبحه ابراهيم الخليل[4] . وقد بقيا في الكعبة الى ايام ( عبدالله بن الزبير ) فاحترقا مع الكعبة[5].

وقد زوقت الكعبة بعد هذا الحريق،زوق سقفها وجدرانها من بطنها ودعائمها، وجعلت « في دعائمها صور الأنبياء وصور الشجر وصور الملائكة ، فكان فيها صورة ابراهيم خليل الرحمان ، شيخ يستقسم بالأزلام ، وصورة عيسى بن مريم وأمه ، وصورة الملائكة عليهم السلام أجمعين . فلما كان يوم فتح مكة ، دخل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، البيت ، فأرسل الفضل بن العباس بن عبد المطلب ، فجاء بماء زمزم ، ثم أمر بثوب فبلّ بالماء ، وأمر بطمس تلك الصور فطمست .. ووضع كفّيه على صورة عيسى بن مريم وأمه عليهما السلام ، وقال:

---

١ الازرقي ( ١/١٠٤ ) ، ابن هشام ( ١/١٣٠ وما بعدها ) ، ( حاشية على الروض الانف ) ، الروض الانف ( ١/١٣٠ ) .
٢ تاج العروس ( ٤/١٠٩ ) ، ( بس ) .
٣ الاصابة ( ١/١٤٠ وما بعدها ) ، ( رقم ٥٨٣ ) .
٤ الازرقي ( ١/١٠٠ ) .
٥ القاسمي ، شفاء الغرام (١٩) .

أمح جميع الصور ، إلا ما تحت يدي ، فرفع يديه عن عيسى بن مريم وأمه . ونظر الى صورة ابراهيم ، فقال : قاتلهم الله جعلوه يستقسم بالأزلام، ما لابراهيم والأزلام »[1] . وقد بقيت صورة عيسى بن مريم وأمه ، الى ايام عبدالله بن الزبير، فلما تهدّم البيت ، تهدمت الصورة معه[2] .

وأعاد الجاهليون — كما يذكر أهل الأخبار — الصنم هبل الى مكانه ، نصبوه أمام (الغبغب) ، وأعادوا معه بقية الأصنام ، التي كانت تتعبد لها بعض القبائل . ووضعوا حول الكعبة أصناماً أخرى ، يجب أن تكون من الدرجة الثانية في المنزلة أي أصنام قبائل ضعيفة ، لذلك وضعت خارج البقعة المقدسة . وقد أوصلت الروايات عدة أصنام الكعبة عام الفتح الى ( ٣٦٠ ) صنماً ، كان بعضها منحوتاً من الحجارة ، وبعضها معمولاً من النحاس ، وبعضها قوارير ، وكان صنم خزاعة قوارير صفر . ولما دخل الرسول مكة ، أمر بها فأزيلت وحطمت ، فلم يبق من يومئذ بها صنم[3] . وذكر ان النبي دخل مكة « وحول الكعبة ثلاثمائة وستون نصباً . فجعل يطعنها بعود كان بيده . ويقول : جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً »[4] .

وذكر في بعض الروايات أن رسول الله بعد أن طاف بالبيت سبعاً على راحلته دخل الكعبة فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها[5] . وأنه لما طاف بالبيت وجد حولها أصناماً مشدودة بالرصاص ، فحطمت ، وأعظمها ( هبل ) صنم قريش[6] .

ويتبين من الروايات الواردة عن بناء الكعبة وعن اختلاف أهل مكة وتشاحنهم وتنافسهم فيما بينهم على شرف وضع ( الحجر الأسود ) في مكانه أنه كان لهذا الحجر أهمية خاصة في نظرهم ، وأنه كان أقدس شيء عندهم . وإلا لما اختلفوا

---

١ الازرقي ( ١/١٠٤ وما بعدها ) ، السيرة الحلبية ( ٣/٨٧ ) ، ابن الاثير ( ٢/١٠٥ )، نهاية الارب ( ١٧/٣١٣ ) .
٢ الازرقي ( ١/١٠٤ ) .
٣ السيرة الحلبية ( ١/١٤٤ ) ، ابن الاثير ( ٢/١٠٥ ) .
٤ صحيح مسلم ( ٥/١٧٣ ) ، « باب ازالة الاصنام من حول الكعبة » ، ارشاد الساري ( ٧/٢١٠ ) ، « باب وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا »
٥ الروض الانف ( ٢/٢٧٤ ) ، نهاية الارب ( ١٧/٣١٢ ) .
٦ الروض الانف ( ٢/٢٧٦ ) ، نهاية الارب ( ١٧/٣١٤ ) .

هذا الاختلاف على وضعه ، حتى ليمكن أن يقال إنه كان فوق أصنام الكعبة منزلة ، بدليل عدم ورود إشارة ما الى وقوع اختلاف بشأن إعادة صنم من تلك الأصنام الى مواضعها . ولو كانت الأصنام أقدس منه ، لكان الاختلاف على شرف وضع تلك الأصنام لا الحجر الأسود بالطبع . وهذا التقديس الزائد يحملنا على التفكير في أسبابه وفي الميزة التي ميزت هذا الحجر على الأصنام وهي في طبيعتها حجارة مثله . لقد ذهب ( ولهوزن ) إلى أن قدسية البيت عند أهل الجاهلية ، لم تكن بسبب الأصنام التي فيه ، بل كانت بسبب هذا الحجر . لقد كان هذا الحجر مقدساً في ذاته ، وهو الذي جلب القدسية للبيت ، فصار البيت نفسه مقدساً ، مقدساً في حد ذاته ، بحجره هذا الذي هو فيه ، ولعله شهاب ( نيزك ) ، أو جزء من معبود مقدس قديم[1] .

وقد ذهب بعض المستشرقين الى ان البيت لم يكن إلا بمثابة إطار للحجر الأسود الذي كان من أهم معبودات قريش ، لأنه يمثل بقايا حجر قديم كان مقدساً عند قدماء الجاهليين ، غير أنه لم يكن معبود قريش الوحيد[2] .

ويلاحظ ان التقرب الى الأحجار في بيوت العبادة كانت شائعة بين الجاهليين . وقد ذكر ان في ( غيمان ) موضع عبادة وفيه ( حجر قحمم ) ( حجر قاحم ) ( حجر قاحم ) ، وهو يشبه الحجر الأسود الذي كان يتقرب اليه الجاهليون في مكة . والحجر الذي كان في كعبة نجران وفي ( تسلال ) ، وفي مواضع أخرى عديدة ذكرها ( الهمداني ) . وقد عثر على مقابر جاهلية عديدة تبين للذين نقبوا فيها ان لها صلة بعبادة الأحجار ، وان تلك المقابر أقيمت عند موضع مقدس لوجود حجر مقدس فيه[3] .

وقد كان الجاهليون يلمسون الحجر الأسود للتبرك به ، وهو مبني في جدار الكعبة ، فيكون اللمس بالطبع للجانب البارز منه . وبين موضع ( الحجر الأسود) وباب البيت يكون (الملتزم) ، وفي الناحية الشمالية الغربية (الحجر) أو (الحطيم) .

---

١ Reste, S. 74.

٢ المشرق : (١٩٤١) ، تموز ـ أيلول ، ( ص ٢٤٧ ) .

٣ Beiträge, S. 84.

وكانت الجاهلية تتحالف وتحلف عنده[1] . ويقال للجهة التي فيها (الحجر الأسود ) ( الركن ) . وذكر ان العرب في الجاهلية كانت تطرح بموضع الحطيم ما طافت به من الثياب ، فيبقى حتى يتحطم بطول الزمان ، فسمي الموضع حطيماً[2] .

وقد كانت الجاهلية تتحالف عند ( الملتزم ) بالأيمان ، وتدعو على الظالم ، وتعقد الحلف[3] .

وذكر (اليعقوبي ) ان الجاهليين كانوا قد وضعوا ( إسافاً ) و(نائلة)، داخل المسجد الحرام . وضعوا كل واحد منهما على ركن من أركان البيت ، فكان الطائف اذا طاف بدأ، بإساف فقبله وختم به . وذكر انهم نصبوا على الصفا صنماً ، يقال له ( مجاور الريح ) ، وعلى المروة صنماً يقال له ( مطعم الطير )[4] .

وفي روايات أهل الأخبار عن تزويق الكعبة بالصور لبس وغموض . وهي روايات عديدة ، يفهم من بعضها أن هذه الصور كانت بالزيت ، رسمت على دعائم السقف . ويفهم من بعض آخر أنها كانت قد رسمت على أشياء متنقلة ، وأنها كانت معلقة على جدران البيت . ويفهم من بعض الروايات أن الرسول أمر فطمست معالم جميع الصور ، ويفهم من بعض آخر ، أنه استثنى منها صورة مريم وابنها عيسى ، وأنها بقيت كما ذكرت الى أيام عبدالله بن الزبير . فلما تهدم البيت : تهدمت الصورة معه . أما رسم شجر أو صور ملائكة أو أشباه ذلك في الكعبة ، فأمر لا اعتراض عليه ، إذ يجوز أن يكون ذلك في معبد وثني ، يضم الأصنام . ولكن ما للوثنية والانبياء ، وما شأن الشرك بمريم وبابنها وببقية الرسل حتى ترسم صورهم على جدران أو أعمدة البيت ؟ ثم هل كانت الكعبة مزوّقة قبل هذا التزويق بالرسوم والصور ؟ وهل كانت هذه الصور من بقايا صور قديمة ؟ أم هي صور حديثة رسمت بعد أن أعادت قريش بناء البيت ؟ ورأيي ان هذه الصور هي من عمل عمّال نصارى أراهم الروم الذين جلبهم أهل مكة مع ( باقوم ) بعد تحطم سفينتهم عند الساحل للاتجار معهم ولبناء الكعبة .

---

١ تاج العروس ( ٣/١٢٥ ) ، ( ٨/٢٥١ ) ، اللسان ( ٤/١٦٦ ) ، ( ١٥/٢٩ ) ، البلدان ( ٢/٢٢٣ وما بعدها ) ، ( ٥/١٩٠ ) ، أخبار مكة ، للازرقي (٢٤٦) ، تاج العروس ( ٩/٥٩ ) ،

٢ اللسان ( ١٢/١٣٩ ) ، ( حطم ) ، تاج العروس ( ٨/٢٥١ ) .

٣ البلدان ( ٨/١٤٦ ) « الملتزم » .

٤ اليعقوبي ( ١/٢٢٤ ) .

و ( باقوم ) كما يقول الاخباريون هو الذي أشرف على إقامة البنـــاء وهندسته . وهو الذي سقف البيت وأقامه على عمد . ولا أستبعد ان يكون هـــو الذي رسم تلك الصور وحده أو بالاستعانة بإخوانه من بني جنسه الروم . وقـد كان هؤلاء نصارى ، فرسموا على جدران البيت أو أعمدته صور قصص كتابـي ، ومنه صور الانبياء ، للزينة والزخرف . لم يجد أهل مكة فيها ما يناقض عقيدتهم في الاصنام. ومن يدري ، فلعله رسم لهم ذلك على أن له صلة بعقيدتهم التي كانوا عليها ، فلم يعترضوا لذلك عليه . أما طمس الاسلام لتلك الصور ، فللعلماء في ذلك كلام. وقد أشير اليه في كتب الحديث ، وأكثرهم على أن الرسول لم يستثن مـــن ذلك الطمس صورة[1] .

وفي الحرم بئر ( زمزم ) ، وهناك مقام ابراهيم ، وبين زمزم ومقام ابراهيم كان موضع الذبح ، ذبح القرابين . ويرى (ولهوزن ) احتمال كون موضع المقام هو المكان الذي كان الجاهليون يذبحون فيه[2] .

ويرجع الأخباريون تأريخ بئر (زمزم) الى يوم بناء الكعبة وعهد اسماعيـــل . ويقال لها ( بئر اسماعيل ) أيضاً . وهي في الحرم في جهـــة الجنوب الشرقي من الكعبة في الجهة المقابلة للركن . ولا نعرف من أمرها شيئاً يذكر . ويظهـر من روايات أهل الأخبار عنها انها دفنت في ايام جرهم ، وان أهـــل مكة صاروا يستقون الماء من آبار أخرى احتفروها ، ويستوردونه من الخارج اليها ، حتى اذا كانت ايام عبد المطلب ، ألقى في قلبه ان يحتفرها ، فحفرها واستخـــرج منها كنزاً ، وظهر الماء بها منذ ذلك اليوم[3] . ولأهـل الأخبار تفاسير عديدة للفظـــة ( زمزم ) ، تدل على انهم لم يكونوا على علم بأصل التسمية ، مما جاء فيها ان الملك (سابور) لما حج البيت أشرف عليها وزمزم فيها ، فقيل لها ( زمزم) [4] . وهكذا جعلوا (سابور) من المؤمنين الحجاج للبيت الحرام ، المتبركين بماء زمزم!

---

١ الازرقي ( ١/١٠٤ ) ، تعليقات السيد رشدي الصالح ملحس على الازرقي » .

٢ Reste, S. 76.

٣ الطبري ( ٢/٢٥١ ) « دار المعارف » ، الروض الانف ( ١/٨٠ ، ٩٨ وما بعدها ) ، الازرقي ( ١/٢٤ ، ٢٨٠ وما بعدها ) ، البلدان ( ٢/٦٤٣ ) ، Shorter Ency. of Islam, p. 657.

٤ البلدان ( ٣/١٤٧ ) ، الصحاح ( ٥/١٩٤٥ ) ، اللسان ( ١٢/٢٧٥ ) ، البكري ، معجم ( ٢/٧٠٠ ) ، عمدة القاريء ( ٩/٢٧٧ ) ، البلدان ( ٢/٩٤٠ وما بعدها ) .

وكان حرم ( الكعبة ) كما يظهر من روايات أهل الاخبار واسعاً شاسعاً ذا نبت وشجر . ولم يجرؤ أحد على احتطاب شجره او قطعه لحرمة المكان ولحرمة ما فيه ، فبقيت أشجاره على ما هي عليه ، حتى إذا ما كانت أيام ( قصي ) ، ضاقت مكة بمن وفد عليها من قريش ، ممن جاء بهم ( قصي ) اليها ، وقطعها ( قصي ) رباعاً ، وأرادوا البنيان ، ولكنهم هابوا قطع شجر الحرم للبنيان ، وتذكر رواية أنهم قالوا لقصي : كيف نصنع من شجر الحرم ؟ فحذرهم قطعها وخوفهم العقوبة في ذلك . فكان أحدهم يحوف بالبنيان حول الشجرة حتى تكون في منزله[1] . وتذكر روايات أخرى العكس . تذكر أن قريشاً هابت قطع شجر الحرم في منازلهم ، فقطعها قصي بيده ، وأعانوه[2] . وبذلك تقلصت أرض الحرم وقلت أشجاره بالتدريج .

وتذكر رواية ان اهل مكة كانوا يهابون حتى في الإسلام قطع شجر الحرم . وقطع كل شجرة دخلت من أرض الحرم في دور أهل مكة . وان ( عمر ) لما قطع ( دوحة ) كانت في دار ( اسد بن عبد العزى ) ، وكانت تنال أطرافها ثياب الطائفين بالكعبة ، وذلك قبل ان يوسع المسجد ، ودّاهـا بقرة . وتذكر ايضاً ان ( عبدالله بن الزبير ) حين ابتنى دوراً بـ ( قعيقعان ) ترخص في قطع شجر الحرم للبنيان ، وجعل دية كل شجرة بقرة . وذكر ان ( أبا حنيفة ) ، قال إن كانت الشجرة التي في الحرم مما يغرسها الناس ويستنبتونها فلا فدية على من قطع شيئاً منها ، وإن كان من غيرها ففيه القيمة بالغاً ما بلغت[3] .

وفي الحديث ان الله حرم مكه ، وحرم شجر الحرم في جملة ما حرمه على الناس[4] .

ويظهر ان أرض مكة كانت كلها في الأصل قبل ايام ( قصي ) حمى للكعبة ، على عادة الجاهليين في تخصيص (حمى) لأربابهم تكون حول بيوتها ، ولهذا كانت أشجار هذا الحمى أشجاراً مقدسة لا يجوز قطعها ولا احتطابها ، سوى أخذ بعض أغصانها أو لحائها لعمل قلائد منها للاحتماء منها . فلما استباح أهل مكة لأنفسهم

---

١ الروض الانف ( ١/٨٧ وما بعدها ) .
٢ الطبري ( ٢/٢٥٨ ) « دار المعارف » .
٣ الروض الانف ( ١/٨٧ وما بعدها ) .
٤ الروض الانف ( ١/١٢٨ ) .

التطاول على الحرم ، أي على هذا الحمى ، بقطع شجره وتحويل أرضه الى بناء، أو بابقاء بعض أشجاره في داخل الدور ، بقوا ينظرون الى ذلك الشجر الباقي في البيوت نظرة هيبة وتقدير ، باعتبار انه من بقايا الحرم القديم . وبذلك صغرت مساحة الحرم ، وقلّت مساحته ، حتى اضطر الخليفة ( عمر ) الى توسيعه بشراء البيوت التي أقامها الناس عليه وادخالها في الحرم من جديد ، وذلك حين ضيّق الناس على الكعبة وألصقوا دورهم بها ، فقال : « إن الكعبة بيت الله ، ولا بد للبيت من فناء ، وانكم دخلتم عليها ولم تدخل عليكم » ، فاشترى بعض الدور من أهلها وهدمها وبنى المسجد المحيط بها ، ثم اشترى عثمان دوراً أخرى وأغلى في ثمنها [1] ثم زاد في المسجد من جاء بعدهما حتى وصل الى النحو الذي هو عليه الآن .

ولم يكن للحرم في الجاهلية سور ، إنما كانت تحدد معالمه وحدوده أنصاب نصبت على أطرافه . لتكون علامة على ابتدائه وانتهائه . أما ما نراه في الوقت الحاضر من وجود سور مرتفع له ، أي حائط به غرف ، فإنه مما حدث في الاسلام . وذكر أهل الاخبار ان الحرم قد ضرب على حدوده بالمنار القديمة التي بيّن ابراهيم مشاعرها ، وكانت قريش تعرفها في الجاهلية والإسلام ، لانهم كانوا سكان الحرم، ويعلمون ان ما دون المنار الى مكة من الحرم ، وما وراءها ليس من الحرم . فما كان دون المنار،فهو حرم لا يحل صيده ولا يقطع شجره ، وما كان وراء المنار ، فهو من الحل يحل صيده ، إذا لم يكن صائده محرماً [2] .

**الكسوة :**

وكسوة البيت عادة قديمة ، كان يقوم بها الجاهليون . ينسبها الأخباريون الى ( تبع أسعد الحميري ) ، فيذكرون انه كساها بالأنطاع ، ثم كساها بثياب جدة من عصب اليمن ، أغلى ثياب معروفة في تلك الأوقات [3] . ولا يستبعد ان يكون الإكساء من بقايا المنشأ القديم للبيت ، حيث كان خيمة في الأصل . وقد

---

١ الروض الانف ( ١/١٢٩ وما بعدها ) .
٢ تاج العروس ( ٨/٢٣٩ ) ، ( حرم ) ، اللسان ( ١٢/١٢٢ ) ، ( حرم ) .
٣ الأزرقي ( ١/١٦٥ ) ، الروض الانف ( ١/٢٤ ) .

ورد في الأخبار أنه كان في موضع البيت خيمة قبل أن تكون الكعبة[1] . وكذلك كان معبد بني اسرائيل خيمة في الأصل قبل أن يبنى الهيكل .

ويذكرون أن التبع الذي كسا البيت ، هو التبع الذي أتى به ( مالك بن عجلان ) الى يثرب لطرد اليهود عنها . وذكروا أن ذلك التبع هو ( أسعد ابو كرب الحميري )[2] . وقد كساها الوصايل ، ثياب حبرة من عصب اليمن . وكانت الكعبة تكسى بالحبرة والبرود وغيرها من عصب اليمن ، تكسى بها ويوضع ما يفضل منها في خزانة الكعبة . فإذا تمزقت الكسوة ، تستبدل بكسوة أخرى تؤخذ من الخزانه . تكسى من الداخل والخارج ، وتطيب بالخلوق وتبخر بالمجامر[3] .

وقد سبق لي أن تحدثت عن ( التبع أسعد ) ، وذكرت ما قاله رواة الأخبار عنه ، وما جاء عنه في نصوص المسند . وكان قد علق في ذاكرة أهل الأخبار أشياء عنه وعن بعض من جاء بعده ، زوقت ونمقت على طريقتهم في رواية أكثر أخبار اليمن . ولعل ما ذكروه عن اكسائه البيت ، هو من مصنوعاتهم التي وضعوها في الاسلام ليجعلوا لأهل اليمن فضلاً على الكعبة ، فضل يسبق فضل العدنانيين عليها ، وقد رأينا أنهم أوجدوا لهم جملة أنبياء نسبوهم الى قحطان ، ووضعوا أشياء أخرى كثيرة ، في اظهار فضل القحطانيين على الاسماعيليين المتعربين يوم فات الحكم من قحطان وصار في أهل مكة في الإسلام . فكان النزاع القحطاني العدناني المعروف .

ولو جارينا أهل الأخبار ، وأخذنا بروايتهم في ان التبع ( أسعد أبو كرب الحميري ) ، كان أول من كسا الكعبة ، نكون قد رجعنا بمبدأ تأريخ اكساء الكعبة الى نهاية القرن الرابع وأوائل القرن الخامس للميلاد . وقد سبق ان تحدثت عن هذا الملك في الجزء الثاني من هذا الكتاب[4] .

ويظهر من روايات أهل الأخبار ان كسوة الكعبة لم تكن كسوة واحدة ، ولا من نسيج واحد ، بل كانت انطاعاً ، أي أبسطة من أدم ، وحبرة وبروداً ، وغيرها من عصب اليمن . وهي برود يمنية يعصب غزلها ثم يصبغ وينسج ، فيأتي

---

١ الازرقي ( ١/٦ ) « ذكر هبوط آدم الى الارض » .
٢ البلدان ( ٤/٤٦٣ ) .
٣ أخبار مكة ، للازرقي ( ١/١٧٣ وما بعدها ) .
٤ ( ص ٥٦٩ فما بعدها ) .

موشى ، وقيل هي برود مخططة[1] . وذكر ان النبي كساها الثياب اليمانية ، وان عمر وعثمان كسواها بالقباطي[2] .

وذكر ان أول من كسا البيت الحرير ( نتيلة بنت جناب بن كليب ) وهي من ( بني عامر ) المعروف بالضحيان ، وكان من ملوك ربيعة . وكان العباس ابن عبد المطلب ابنها ، قد ضاع وهو صغير ، فنذرت امه إن وجدته ان تكسو البيت الحرير ، فكسته ، فهي أول من كساه ذلك[3] . وقيل أول من كسا البيت الديباج خالد بن جعفر بن كلاب . أخذ لطيمة من البر وأخذ فيها أنماطاً فعلقها على الكعبة[4] .

وروي انهم كانوا يكسون الكعبة يوم ( عاشوراء ) ، وذكر ان ( بني هاشم ) كانوا يكسونها يوم التروية بالديباج ، لتظهر في أحسن حال ، ويراها الناس على ذلك . أما اذا حلّ يوم عاشوراء ، فانهم يعلقون الازار عليها . وورد انهم كانوا يكسون الكعبة بالديباج يوم التروية ، فيعلق عليها القميص ولا يخاط ، حتى اذا ما انصرف الناس من ( منى ) خيط وترك الازار ، ثم تكسى بالقباطي يوم عاشوراء ، ويعلق عليها الازار ، ويوصل بالديباج[5] .

ولا نستبعد احتمال كون يوم ( عاشوراء ) من الأيام التي كانت لها حرمة وقدسية عند أهل الجاهلية ، وإن كنا نجهل كل شيء عنه وعن سبب احتفال أهل مكة به ، وصومهم فيه . وقد ذهب بعض المستشرقين الى احتمال تأثر قريش بعاشوراء اليهود ، كأن يكون أحد سادة مكة قد أخذ ذلك اليوم عنهم فعظمه ، فأخذه أهل مكة عنه وجعلوه سنّة لهم . غير ان من الجائز ألا يكون لهذا اليوم صلة بعاشوراء اليهود ، وانما كان من تقاليد أهل مكة القديمة المعروفة عند غيرهم أيضاً ، ولا صلة له بيوم يهود[6] .

ويظهر انهم كانوا يضعون الأكسية الجديدة فوق الأكسية القديمة ، فلا يرفعونها

---

١ اللسان ( ١/٦٠٤ ) ، ( عصب ) .
٢ الازرقي ، أخبار مكة ( ١/١٧٣ وما بعدها ) .
٣ الاصابة ( ٢/٢٦٣ ) ، ( رقم ٤٥٠٧ ) ، كتاب نسب قريش (١٨) ، الروض الانف ( ١/٧٧ ) .
٤ الروض الانف ( ١/٧٧ ) .
٥ الازرقي ، أخبار مكة ( ١/١٧٣ وما بعدها ) .
٦ Shorter Ency., p. 47.

عنها ، فكانت تتراكم بعضها فوق بعض ، فلما جاء الاسلام ، استمروا على ذلك أمداً ، ثم رأى ( شيبة بن عثمان ) سادن البيت ، تجريدها من أكسية الجاهلية ، لأنها رجس من عمل الجاهليين فأزيلت . ثم رأى الخليفة المهـدي ، أن الأكسية قد أثقلت الكعبـة ، فأمر بتجريدها ، تخفيفاً عنها ، واكتفى بثلاث كسيّ من القباطي والخز والديباج[1] .

وذكر أهل الأخبار أن اول من حلّل البيت ( عبد المطلب ) ، جدّ النبي ، لما حفر ( بئر زمزم )،وأصاب فيه من دفن جرهم غزالين من ذهب ، فضربهما في باب الكعبة[2] .

**المال الحلال :**

وقد تجنب أهل الجاهلية بناء معابدهم بمال حرام ، فلما أرادت قريش بنيـان الكعبة نادى مناديهم : لا تدخلوا في بنائها من كسبكم إلا طيباً . لا تدخلوا فيه مهر بغي ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحـد من الناس[3] . هذا ما يذكره أهل الأخبار ويروونه عن بناء البيت الحرام .

**بقية محجات العرب :**

ومن محجّات العرب وبيوتها المعظمة : بيت عرف بـ ( بس ) لغطفـان ، كانت تعبده . بناه ( ظالم بن أسعد بن ربيعة بن مالك بن مرة بن عوف ) ، لما رأى قريشاً يطوفون بالكعبة ويسعون بين الصفا والمروة ، فذرع البيت ، وأخذ حجراً من الصفا وحجراً من المروة ، فرجع الى قومه ، فبنى بيتاً على قدر البيت ووضع الحجرين ، فقال : هذان الصفا والمروة فاجتزئوا به عن الحـج ، فأغار ( زهير بن جناب الكلبي ) ، فقتل ظالماً وهدم بناءه . وورد في رواية أخرى ان ( العزى ) سمرة عبدتها غطفان . أول من اتخذها ( ظالم بن أسعد ) ، فوق ذات

---

١ الازرقي ، أخبار مكة ( ١/١٧٣ وما بعدها ) ، الاصابة ( ٢/١٥٧ ) ، ( شيبة بن عثمـان ) .

٢ البلدان ( ٤/٤٦٣ وما بعدها ) .

٣ الروض الانف ( ١/١٣٠ وما بعدها ) .

عرق الى البستان بتسعة أميال ، بنى عليها بيتاً وسمّاه بسّاً ، وأقام لها سدنة ، فبعث اليها رسول الله ( خالدَ بن الوليد ) ، فهدم البيت وأحرق السمرة[1] .

وفي أخبار أهل الأخبار عن بيت (العزى) ، أوهام وتناقض . فتراهم يجعلون ( العزى ) صنماً مرة ويجعلونها ( سمرة ) أو ( شجرة ) أو ثلاث سمرات مرة أخرى ، ثم تراهم يخلطون بين البيت وبين الحرم الذي كان حوله ، كما بينت ذلك في اثناء حديثي عن ( العزى )[2] . والذي أراه ، انه كان للعزى بيت هو ( بس ) ، فيه صنم العزى ، وكان حوله حرم ، كحرم مكة ، به ( سمرة ) أو ثلاث سمرات ، كان الناس يقدسونها أيضاً ويتقربون اليها بالنذور . وهي جزء متمم لبيت العزى . فلما أمر الرسول خالد بن الوليد ، بهدم العزى ، هدم البيت وحطّم الصنم ، فرجع ، فلما سأله الرسول عنه ، واستفسر منه عن السمرة أو السمرات الثلاث ، وعلم منه انه لم يقطعها ، أمره بالعودة اليها وقطعها اجتثاثاً لكل علامة من علائم عبادة هذا الصنم . فقطعها . فقطع عن عبّادها كل صلة لهم كانت تربطهم بذلك الصنم .

ومن محجّات الجاهليين ، بيت الصنم ( ذو الخلصة ) ، ذكر أنه كان بتبالة ، وكان يسمى بـ ( الكعبة اليمانية ) ، تمييزاً له عن الكعبة التي عرفت بـ ( الكعبة الشامية ) . وذكر أنه نفسه عرف بـ ( الكعبة الشامية ) ، كما دعي بـ ( كعبة اليمامة ) ، وقد تحدثت عنه في أثناء كلامي على هذا الصنم . ولما هدم البيت والصنم بأمر الرسول ، صار مكانه موضع عتبة باب مسجد تبالة . وذكر أن البيت هو ( ذو الخلصة ) ، والصنم ( الخلصة ) ، وقيل ( ذو الخلصة : الصنم نفسه )[3] وقد عرف البيت بـ ( الكعبة ) كذلك ، لأنه كان بناءً مكعباً . وكان بيتاً في خثعم باليمن ، وكانت بجيلة تعظمه كذلك . به صنم ، هو ( ذو الخلصة ) ونصب يذبحون عليه[4] . ويظهر أنه كان من البيوت المعظمة الكبيرة ، بدليل ما ذكره العلماء من أن الرسول قال لجرير بن عبدالله البجلي : « ألا تريحني من ذي الخلصة » ؟ فذهب اليه وأحرق البيت وهدم الصنم وكسر النصب . وذكر

---

١ تاج العروس ( ٤/١٠٩ ) ، ( بس ) ، مراصد الاطلاع (٩٣٧) .
٢ البلدان ( ١/٤١٢ ) ، ( بساء ) .
٣ تاج العروس ( ٤/٣٨٩ ) ، ( خلص ) .
٤ ارشاد الساري ( ٦/٤٢٤ وما بعدها ) .

أن موضع ( دي الخلصة ) ، صار مسجداً جامعاً لبلدة يقال لها . العبلات من أرض خثعم[1] .

وقد ذكر ( أبو العـــلاء المعري ) أن فدك كانت في الجاهلية ذات أصنام . وكانوا يقصدونها للحج ، وذكر تلبيتهم لها[2] .

وكان بيت ( اللات ) من البيوت المعظمة عند ثقيف . كانوا اذا عاد أحدهم من سفر ، فأول مـــا يفعله أن يأتي ( الربة ) ، وهي اللات ليتبرك بها . وهي الصخرة التي كانت تعبدها ثقيف . ولما أسلم ( عروة بن مسعود الثقفي ) ، وعاد الى قومه دخل منزله ، فأنكر قومه عليه دخوله قبل أن يأتي الربة ، يعني اللات. وفي حديث وفـــد ثقيف : كان لهم بيت يسمونه الربة . يضاهون بيت الله[3] . وكانت ثقيف تضاهي أهـــل مكة ، وتنافسهم على الزعامة . وكان لبيت اللات أستار وسدنة وحوله فناء معظم ، يفتخرون به على من عداهم من أحياء العرب[4] .

ولأهل اليمن بيوت تعبدوا لها ، وبقيت معظمة عندهم الى الاسلام . من ذلك بيت عرف بـ ( بيت رئام ) . ذكر ( ابن اسحاق ) ان أهـــل اليمن كانوا يعظمونه وينحرون عنده ويكلمون . وكانوا يعتقدون ان رئاماً كان فيه شيطان ، وكانوا يملأون له حياضاً من دماء القربان ، فيخرج فيصيب منها ، ويكلمهم ، وكانوا يعبدونه[5] . وبيت غمدان ، وقد ذكروا ان الضحاك بناه باليمن على اسم الزهرة[6] ، فجعلوه بيتاً ، أي موضع عمادة ، بينما هو دار حـــكم وبيت الملوك بصنعاء ، كما سبق ان تحدثت عنه .

وذكر بعض أهل الأخبار ان ( ريام ) بيت بصنعاء كان لحمير ، وكان به كلب أسود . وان الحبرين اللذين ذهبا مع تبع استخرجاه وقتلاه وهدما البيت[7] .

وكان ( ذو الكعبات ) لبكـــر ولتغلب ابني وائل وإياد بسنداد ، وله يقول الأعشى :

---

١ ارشاد الساري ( ٦/٤٢٣ وما بعدها ) .
٢ رسالة الغفران (٥٣٥) ، ( بنت الشاطىء ) .
٣ تاج العروس ( ١/٢٦٢ ) ، ( دبب ) .
٤ تفسير ابن كثير ( ٤/٢٥٣ ) .
٥ الروض الانف ( ١/٢٨ ) .
٦ نهاية الارب ( ١/٦٢ ) .
٧ تفسير ابن كثير ( ٤/٢٥٤ ) .

بين الخورنق والسدير وبارق والبيت ذو الكعبات من سنداد[1]

وذكر انه بيت كان لربيعة ، كانوا يطوفون به ، وقد ذكره الأسود بن يعفر في شعره ، فقال :

والبيت ذي الكعبات من سنداد[2]

فالبيت للأسود لا للأعشى على هذه الرواية .

وقد تعرض ( ابن كثير ) لموضوع بيوت الأصنام : اللات والعزى ومناة ، فقال : « وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر، تعظمها العرب كتعظيم الكعبة ، غير ان هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز ... قال ابن اسحاق في السيرة : وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت ، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة ، لها سدنة وحجاب وتهدى لها كما يهدى للكعبة ، وتطوف بها كطوافها بها وتنحر عندها »[3] . وما فات من أسماء المحجات في العربية الجنوبية والشرقية وفي نجد ، قد يزيد عدده على ما ذكرنا . فات عنا، لأن أهل الأخبار لم يذكروا شيئاً عنها ، لانصراف اهتمامهم الى الحجاز وما كان له صلة بالاسلام، من أرضين ، فحرمنا بذلك من الوقوف على أخبار المحجات في المواضع الأخرى من جزيرة العرب .

ويحجّ الناس الى هذه البيوت في أشهر معينة من السنة ، هي الأشهر الحرم ، وهي أشهر مقدسة لا يحل فيها قتال ولا اعتداء على أحد،فهي أشهر هدنة وسلام، أشهر خصصت بالآلهة ، فلا يجوز انتهاك حرمتها . وفي شهر الحج الذي يحج فيه الناس الى أصنامهم ، يجتمع الناس في المعبد لأداء الفروض المكتوبة المعينة، فيكون الاجتماع اجتماعاً دينياً وسياسياً وتجارياً يتعامل فيه الناس . ويتباذلون به السلع ، ويعود على أهل الموضع الذي فيه المعبد بأرباح كبيرة ولا شك . وقد ذكرت أن هذه الحرمة لم تكن عامة ، فقد كان من العرب من لا يراعيها ولا يحترمها ، ثم إننا لا ندري إذا كان أهل العربية الجنوبية أو العربية الشرقية كانوا يعرفونها أم لا !

---

١ تفسير ابن كثير ( ٤/٢٥٤ ) .
٢ تاج العروس ( ١/٤٥٧ ) ، ( كعب ) ، اللسان ( ١/٧١٨ ) ، ( كعب ) .
٣ تفسير ابن كثير ( ٤/٢٥٣ وما بعدها ) .

وليست كل المعابد محجة للناس ، يقصدونها في الأيام أو في المواسم . فقد كان في الموضع الواحد جملة معابد في بعض الأحيان ، ولا يحج اليها ، بل كانت المعابد التي يحج اليها معدودة معينة . لا بد أن تكون لها ميزة شرفتها على سائر دور العبادة الأخرى . ولهذه الميزة قصدت في المواسم من أماكن بعيدة . واذا استثنينا ما ورد عن مكة ، فإننا لا نكاد نعرف شيئاً ذا بال عن المعابد الكبيرة الأخرى . ثم إن في أكثر ما ذكره أهل الأخبار عن مكة غموض ومجال واسع للنقد ، لأنه منقول عن أفواه رجال يظهر أنهم نقلوا ما قيل لهم دون تحفظ أو تمحيص .

**المزارات :**

وقد عظم بعض أهل الجاهلية قبور ساداتهم ورؤسائهم واتخذوها أضرحة يزورونها ويتقربون اليها ويتبركون بها ، وقد بلغ من بعضهم ان جعلها حمى وملاذاً من دخل اليها أمن ، ومن لجأ اليها وكان محتاجاً أغيث ، ومن طلب العون واستغاث بصاحب القبر أغيث ، حتى صارت في منزلة المعابد . ومنها أضرحة السدنة والكهان وسادات القبائل ، فقد كان قبر ( تميم ) جدّ قبيلة ( تميم ) مزاراً معظماً عند أبناء القبيلة من احتمى به من ( بني تميم ) ومن غيرهم صار آمناً .

ولم أجد في أخبار اهل الأخبار ما يفيد بوجود أضرحة في مكة ، اتخذت مزاراً وموضعاً يتبرك به . يعظمونه ويتقربون اليه بالنذور والذبائح . لقد كان قبر قصي معروفاً عند أهل مكة ، ولكنهم لم يتخذوه مزاراً ومصلى على ما يتبين من روايات الأخباريين .

# الفصل الخامس والسبعون

# الحنفاء

وقد أشار القرآن الكريم الى جماعة من العرب لم تعبد الأصنام ، ولم تكن من اليهود ولا النصارى ، وانما اعتقدت بوجود إلـه واحد عبدته[1]. وقد ذكر المفسرون وأهل الأخبار أسماء جماعة من هؤلاء ، غير ان ما ذكروه عنهم غامض لا يشرح عقائدهم ، ولا يوضح رأيهم في الدين ، فلم يذكروا عقيدتهم في التوحيد ، ولا كيفية تصورهم لخالق الكون .

وقد عرف هؤلاء بالحنفاء وبالأحناف ، ونعتوا بأنهم كانوا على دين ابراهيم ، ولم يكونوا يهوداً ولا نصارى ، ولم يشركوا بربهم أحداً . سفهوا عبادة الأصنام، وسفهوا رأي القائلين بها[2] .

---

١ « وقالوا : كونوا هودا أو نصارى تهتدوا ٠ قل : بل ملة ابراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين » ، البقرة ، رقم ٢ ، الآية ١٢٥ ، تفسير الطبري ( ١/٤٠٤ ) ، روح المعاني ( ١/٣٥٢ ) ، تفسير المنار ( ١/٢٧٩ وما بعدها ) ، بلوغ الارب ( ٢/١٩٦ )، اللسان ( ١٠/٤٠٢ وما بعدها ) ، النهاية في غريب الحديث، لابن الاثير (١/٢٦٥) الطبرسي ، مجمع البيان ( ١/٤٦٧ ) ، ( ١/٢١٥ وما بعدها ) ، ( طبعة طهران ) ، تفسير القرطبي ، الجامع ( ٢/١٢٨ ) ، الطبري ، جامع البيان ( ١١/١٧٧ ) ، (٢١/٤٠) ، البيضاوي (١/١٥٩ ، ٢١٥) ، تفسير القرطبي (١٠/١٩٨) ، الكشاف، للزمخشري (١/٢٣٦) ، اللسان (٩/٥٦) «صادر» ، تأريخ الخميس ، للدياربكري (٢/١٧٧) ، الكامل ، لابن الاثير (١/٢٤٤) ، تفسير القرطبي ، الجامع (١٠/١٩٨) ، (حنيفا) ، سورة النحل ، رقم ١٦ ، الآية ١٢٠ ٠

٢ النهاية ( ١/٢٩٩ ) ٠

وقد أشير الى (الحنيفية) و (الحنفاء) في كتب الحديث[1] . وقد بحث عنها شرّاح هذه الكتب . ومما نسب اليه حديث : « لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية، ولكني بعثت بالحنيفية السمحة »[2] . وحديث : « بعثتُ بالحنيفية السمحة السهلة »[3]. وحديث « أحب الأديان الى الله تعالى الحنيفية السمحة »[4] .

ويذكر أهل الأخبار أن الجاهليين جميعاً كانوا قبل عمرو بن لحي الخزاعيّ على دين ابراهيم . كانوا موحدين يعبدون الله جل جلاله وحده ، لا يشركون به ولا ينتقصونه . فلما جاء عمرو بن لحيّ ، أفسد العرب ، ونشر بينهم أضاليل عبادة الأصنام ، بما تعلمه من وثنيي بلاد الشأم حين زارهم ، وحل بينهم ، فكان داعية الوثنية عند العرب والمبشر بها ومضلّهم الأول . وهو على رأيهم موزّع الاصنام بين القبائل ، ومقسّمها عليها . فكان من دعوته تلك عبادة الاوثان ، الى أن جاء الاسلام فأعاد العرب الى سواء السبيل ، الى دين ابراهيم حنيفاً ، وما كان ابراهيم من المشركين[5] .

ولقد فشت دعوة عمرو بن لحي وانتشرت ، حتى دخل فيها أكثرهم ، والضلال سريع الانتشار ، وقلّ عدد من حافظ على دين ابراهيم والمراعي لأحكام دين التوحيد الحنيف : من اعتقاد بوجود إلٰه واحد أحد ، وطواف بالبيت ، وحج اليه ، وعمرة ، ووقوف على عرفة وهدي للبدن ، واهلال بالحج والعمرة ، وغير ذلك . فلم يبق منهم إلا عدد محدود في كل عصر الى زمن البعثة المحمدية[6].

ولسنا نملك ويا للأسف شيئاً من الجاهلية يعيننا في الوقوف على عقائد الأحناف ودينهم ، فليس في كتابات المسند ولا في الكتابات الجاهلية الأخرى ، بل ولا في كتب اليونان واللاتين شيء عن عقيدتهم وعن آرائهم،لذلك اقتصر علمنا بأحوالهم على ما جاء في المؤلفات الاسلامية وحدها ، والفضل في حفظ أخبارهم للقرآن

---

١ راجع ونسنك : المعجم المفهرست لالفاظ الحديث النبوي الشريف ، حيث تجد الاشارة الى تلك الاحاديث .

٢ مسند أحمد بن حنبل ( ٤/١١٦ ) ، (٦/٣٣) .

٣ اللسان ( ٩/٥٦ وما بعدها ) .

٤ مجمع البيان ، للطبرسي ( ١/٢١٥ وما بعدها ) ، « أحب الدين الي الحنيفية السمحة » ، الاصابة ( ١/٥١ ) ، ( رقم ١١٤ ) .

٥ اللسان ( ١٠/٤٠٣ ) ، بلوغ الارب ( ٢/١٩٥ ) .

٦ بلوغ الارب ( ٢/١٩٦ ) .

الكريم ، فلولا اشارته اليهم وذكره لهم ، لما اهتم المفسرون وأصحاب الأخبار بجمع ما كان عالقاً في ذهن الناس عنهم . وللحديث وكتب السير والأدب فضل في جمع أخبارهم يجب ألا ينسى كذلك .

وللعلماء الاسلاميين آراء وتفسيرات في أصل لفظة ( حنيف ) وحنفاء وأحناف وفي معانيها . فهم يقولون ان الأصل ( حنف ) ، وحنف بمعنى مال . وحنف القدمين ميل كل واحدة منها نحو الأخرى . والحَنَفُ هو ميل عن الضلال الى الاستقامة ، والحنف ميل عن الاستقامة الى الضلال . والحنيف هو المائل . ومن هذا المعنى أخذ الحنف . وأما الحنيف ، فالذي يميل الى الحق،وقيل الذي يستقبل البيت الحرام ، أو الحاج أو من يختتن،والحنيف من أسلم في أمر الله فلم يلتوِ في شيء ، والحنيف المستقيم الذي لا يلتوِ في شيء[1] .

وقد وردت لفظة ( حنيفاً ) في عشر مواضع من القرآن الكريم[2] . ووردت لفظة ( حنفاء ) في موضعين منه[3] . وبعض الآيات التي وردت فيها آيات مكية ، وبعضها آيات مدنية . وقد نص في بعض منها على ابراهيم ، وهو على الحنيفية ، ولم ينص في مواضع منها على اسمه . وقد وردت لفظة ( حنفاء ) في سورتين فقط . هما : سورة الحج وسورة البينة ، وهما من السور المدنية .

وذكر بعض أهل الأخبار ان الحنيف عند أهل الجاهلية من اختتن وحج البيت فكل من اختتن وحج البيت هو حنيف[4] . وقد رأى الطبري ان ذلك لا يكفي ،

---

١ المفردات ، للاصفهاني ( ص ١٣٣ ) ، اللسان ( ١٠/٤٤ ) ، ( ٩/٥٦ وما بعدها ) « صادر » ، تاج العروس ( ٦/٧٧ وما بعدها ) ، النهاية في غريب الحديث والاثر ، لابن الاثير ( ١٠/٢٦٥ ) ، تفسير الطبري ( ١/٢٥٨ وما بعدها ) ، القاموس المحيط ، للفيروزآبادي ( ٣/١٣٠ ) ، تفسير الطبري (١/٥٦٣ ) ، «١٩٥٤» ، ( ٣/١٠٥ ) « دار المعارف » ، الملل والنحل ، ( ٢/٥٢ ) ، الاغاني ( ٣/١١٣ وما بعدها ) « دار الحفاوة بيروت ١٩٥٥ م » ، روح المعاني للالوسي ( ٣/١٧٣ وما بعدها ) ، تفسير الخازن ( ١/٩٨ ) .

٢ البقرة ، رقم ٢ الاية ١٣٥ ، آل عمران ، ٣ الآية ٦٧ ، ٩٥ ، النساء ، الرقم ٤ ، الاية ١٢٥ ، الانعام ٦ ، الاية ٧٩ ، ١٦١ يونس ، الرقم ١٠ ، الآية ١٠٥ ، النحل ، ١٦ ، الاية ١٢٠ ، الروم ، الاية ٣٠ .

٣ الحج ، الاية ٣١ ، البينة ، الاية ٥ .

٤ اللسان ( ١٠/٤٠٢ وما بعدها ) ، الكشاف ( ١/١٧٨ ، ٢٣٦ ، ٤٠٧ ) ، الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن ( ١/٤٦٧ وما بعدها ) ، ( ٣/١٠٩ وما بعدها ) ، تفسير الفخر الرازي ( ١٣/٥٧ وما بعدها ) ، ( ١٤/١٠ وما بعدها ) ، ( ١٧/١٧١ وما بعدها ) ، تفسير الطبري ( ٣/١٠٤ وما بعدها ) .

بل لا بد من الاستقامة على ملة ابراهيم واتباعه عليها[1]. والذين يذكرون أن الحنيف هو من اختتن وحج البيت ، يذكرون أن العرب لم تتمسك في الجاهلية بشيء من دين ابراهيم غير الختان وحج البيت ، ولهذا فكل من اختتن وحج البيت ، قيل له حنيف . وقد أضاف بعضهم اعتزال الأصنام والإغتسال من الجنابة الى ما ذكرت ، وجعلوا ذلك من أهم العلامات الفارقة التي ميزت الحنفاء عن المشركين[2]، لأن الحنيفية على حد قولهم لو كانت حج البيت والاختتان لوجب أن يكون الذين كانوا يحجّون ويختتنون في الجاهلية من أهل الشرك حنفاء،وقد نفى الله أن يكون ذلك تحنفاً بقوله : « ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين »[3] .

وينسب أهل الأخبار الى الأحناف بالإضافة الى ما ذكرت ، امتناعهم عن أكل ذبائح الأوثان وكل ما أهل الى غير الله . فقد ذكروا عن كل واحد من الأحناف أنه كان قد امتنع عن أكل الذبائح التي تذبح للأوثان والأصنام ، لأنها ذبحت لغير الله . كما نسبوا اليهم تحريم الخمر على أنفسهم ، والنظر والتأمل في خلق الله ، ونسبوا اليهم أداء شعائر الحج وغير ذلك[4] .

وقد لخص ( الفخر الرازي ) و ( الطبرسي ) ، آراء العلماء في ( الحنيفية ) واجملاها في تفسيرهما للآية : « وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ، قل بل ملة ابراهيم حنيفاً ، وما كنت من المشركين » . فقالا : « وفي الحنيفية أربعة أقوال : احدها انها حج البيت ، عن ابن عباس والحسن ومجاهد . وثانيها انها اتباع الحق ، عن مجاهد ، وثالثها انها اتباع ابراهيم فيما أتى به من الشريعة التي صار بها إماماً للناس بعده من الحج والختان وغير ذلك من شرائع الاسلام ،

---

١ تفسير الطبري ( ٣/١٠٥ وما بعدها ) ، ( ٣/٣٠٦ ) ، ( ٥/٢٩٧ ) ، ( ٧/٢٥١ ) ، تفسير القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن ( ٢/١٢٨ ) .

٢ اللسان ( ٩/٥٦ ) « صادر » ، القاموس ( ٣/١٣٠ ) ، تاج العروس ( ٦/٧٧ وما بعدها ) ، ( حنف ) .

٣ الطبري ، جامع البيان ( ١/٥٦٤ وما بعدها ) .

٤ الاصنام (٦) « ١٩١٤ م » ، القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن ، ( ٤/١٠٩ ) « ١٩٣٧ م » « مطبعة دار الكتب المصرية » ، ابن خلدون ( القسم الاول من المجلد الثاني ) ( ص ٧٠٧ وما بعدها ) « بيروت ١٩٥٦ م » الخازن ، لباب التاويل في معاني التنزيل ( ١/٢٣٨ وما بعدها ، ٢٥١ ) ، تفسير الرازي ( ٨/١٥٠ وما بعدها ) .

والرابع انها الاخلاص لله وحده والاقرار بالربوبية والإذعان للعبودية »[1] .

ترى مما تقدم ، وسترى فيما بعد ان أهل الأخبار لم يكونوا على بينة تامة وعلم واضح بأحوال الحنيفية وبآرائها وقواعد أحكامها وأصولها ، وانهم خلطوا في بعض الأحيان فيما بينها وبين الرهبنة ، ولا سيما رهبنة النصرانية . فأدخلوا فيها من يجب اخراجهم عنها ، لأنهم كانوا نصارى على ما يذكره نفس أهل الأخبار في أثناء تحدثهم عنهم ، ومن هؤلاء : قيس بن ساعدة الأيادي وورقة بن نوفل ، وعثمان ابن الحويرث ، فقد نصوا نصاً صريحاً على انهم كانوا من العرب المتنصرة ، ثم نجدهم مع ذلك يدخلونهم في جملة الأحناف .

وللمستشرقين بحوث في أصلها ومعناها وفي ورودها عند العرب قبل الاسلام . ومنهم من يرى ان اللفظة من أصل إرمي ، وقد كانت معروفة عند النصارى ، وأخذها الجاهليون منهم ، وأطلقت على القائلين بالتوحيد من العرب ، على أولئك الذين ظهروا في اليمن خاصة ونادوا بالتوحيد وعبادة الرحمان . وهي ديانة توحيد ظهرت بتأثير اليهودية والنصرانية ، غير ان أصحابها لم يكونوا يهوداً ولا نصارى، وانما كانوا فرقة مستقلة تأثرت بآراء الديانتين[2] .

وقد ذهب بعض المستشرقين الى ان اللفظة من أصل عبراني ، هو : (تحينوت) tchinoth ، أو من ( حنف ) Hnêf ، ومعناه التحنث في العربية ، وذلك لما لهذه اللفظة من صلة بالزهد والزهّاد[3] . وقال (نولدكه) انها من أصل عربي هو ( تحنف ) ، على وزن تبرر ، وهي من الكلمات التي لها معانٍ دينية . ويلاحظ ان السريان يطلقون لفظة (حنفه) Hanfa على الصابئة[4]. وقد وردت لفظة (حنف) في النصوص العربية الجنوبية ، وردت بمعنى (صبأ) ، أي مال وتأثر بشيء ما[5] .

---

١ مجمع البيان ( ١/٢١٥ وما بعدها ) ، التفسير الكبير ، للفخر الرازي ( ٤/٨٩ وما بعدها ) .

٢ Ency., II, p. 259.

٣ Abraham I. Katsh., Judaism in Islam, New York, 1954, p. 108, f., J.A. Montgomery, Ascetic Strains in early Judaism, in, JBL., Vol., LI, (1932), pp. 183, Tar Andrae, Der ursprung der Islam und das Christentum, uppala, 1926, p. 40, Charles Lyall, The Ward Hanif and Muslim, in JRAS, 1903, p. 772, Sprenger, Das Leben, Bd. I, S. 45. ff.

٤ Ency., II, 259, Barhebraeus, Chronic., p. 176.

٥ Rhodokanakis, Stud., II, S. 40.

أي بالمعنى الذي فهمه علماء اللغة. فاللفظة اذن من الألفاظ المعروفة أيضاً عند العرب الجنوبيين .

عندي أن لفظة ( حنيف ) ، هي في الأصل بمعنى ( صابىء ) أي خارج عن ملة قوم ، تارك لعبادتهم . ويؤيد رأيي هذا ما ذهب اليه علماء اللغة ، من أنها من الميل عن الشيء وتركه ، ومن ورودها بهذا المعنى في النصوص العربية الجنوبية . وبمعنى ( الملحد ) ، و ( المنافق ) ، و ( الكافر ) في لغة بني إرم، ومن اطلاق ( المسعودي ) و ( ابن العبري ) لهذه اللفظة على ( الصابئة ) . ومن ذهاب ( المسعودي ) الى أن اللفظة من الألفاظ السريانية المعربة . وقد اطلقت على ( المنشقين ) على عبادة قومهم الخارجين عليها ، كما أطلق أهل مكة على النبي وعلى أتباعه ( الصابىء ) و ( الصباة ) ، فصارت علماً على من تنكر لعبادة قومه ، وخرج على الأصنام . ولهذا نجد الإسلام يطلقها في بادىء الأمر على نابذي عبادة الأصنام ، وهم الذين دعاهم بأنهم على ( دين ابراهيم ) . ولما كان التنكر للأصنام هو عقيدة الإسلام لذلك صارت مدحاً لمن أطلق الجاهليون عليهم تلك اللفظة لا ذماً [1] .

وليست الصورة التي رسمها المفسرون وأهل الأخبار عن عقيدة الحنفاء واضحة، فهي صورة غامضة مطموسة في كثير من النواحي ، تخص الناحية الخلقية أكثر مما تخص الناحية الدينية . فليس فيها شيء عن عقيدتهم في الله ، وكيفية تصورهم وعبادتهم له ، وليس فيها شيء عن كتاب كانوا يتبعونه أو كتب كانوا يسيرون عليها . نعم ، إن نفراً منهم كما ذكر الرواة كانوا قد قرأوا الكتب ووقفوا عليها ، ولكن ما تلك الكتب التي قرأوها ، وما أسماؤها . وهل هي التوراة والانجيل ؟ ولكن أي توراة وإنجيل ؟ التوراة والانجيل التي كانت بين أيدي الناس أو غيرها ؟ فالذي يفهم من كلام الرواة أن الحنفاء كانوا يرون تحريفاً في الكتابين ، وأن هناك تبايناً قليلاً أو كثيراً بين الأصل الذي أوحاه الله وبين الذي كان بين أيدي الناس ، وأنهم لذلك مالوا عن اليهودية والنصرانية الى دين ابراهيم الحنيف ، فقرأوا كتبه وتعبدوا بعبادة ابراهيم . ولكن ما هي كتب ابراهيم وما هي عبادته ؟

---

١ راجع أيضا : Ency., II, p. 259.

وليس في امكاننا في الوقت الحاضر وضع حد صريح واضح لمفهوم الأحناف و ( الدين الحنيف ) عند الجاهليين ، لما ذكرته من عدم وجود موارد واضحة صريحة عن الأحناف ، ولعدم ورود أي شيء عنهم في نصوص جاهلية ، ولأن في الكثير من الذي يذكره المفسرون وأهل الأخبار عنهم غموض وإبهام أو صنعة وتكلف ، لذلك فليس أمامنا سوى الانصراف الى البحث عن جمع كل ما ورد عن الحنيفية في الشعر وفي النثر وتنقيته وغربلته لاستخراج المادة الصافيـة منه التي تفيدنا في الوقوف على تلك الحركة الدينية التي كانت بارزة عند المذكورين قبيل ظهور الاسلام . والوقوف عليها يفيدنا كثيراً ولا شك في فهم الاسلام الذي أثنى على الحنيفية وأرجعها الى ديانة ابراهيم ، وفي فهم اتجاهـات الأحناف ودعوتهم التي وجهوها الى قومهم في نبذ عبادة الأصنام والأحجار والمعبودات المادية الأخرى، والالتجاء الى عبادة إلـه أعلى لا يشبه المادة ، هو إلـه واحد لطيف خبير .

والحنفاء ، كما يفهم من روايات أهل الأخبار ، كانوا طرازاً من النسّاك ، نسكوا في الحيـاة الدنيا ، وانصرفوا الى التعبد للإلـه الواحد الأحـد إلـه ابراهيم واسماعيل،ساحوا في البلاد على نحو ما يفعله السياح الزهّاد بحثاً عن الدين الصحيح دين ابراهيم ، فوصل زيد بن عمرو بن نفيل الى الشأم والبلقاء ووقف على اليهودية والنصرانية ، فلم يرَ في الديانتين ما يريد[1] . ومنهم من أخذ على قومه هدايتهم بحثّهم على ترك عبادة الأصنام ، لذلك لاقوا منهم غشاً ونصباً شديـداً . ومنهم من كان يتأمل في هذا الكون،لذلك تجنب الناس واعتزلهم ، والتجأ الى الكهوف والمغاور البعيدة ابتعـاداً عن الناس للتأمل والتفكر ، وقد تجنبوا الخمرة والأعمال المنكرة ، وقول الفحش ، وساروا على مثل الاسلام ، وان عاشوا قبل الاسلام، لأن الإسلام دين ابراهيم .

والذي يفهم من القرآن الكريم ، هو ان الحنفاء هـم أولئك الذين رفضوا عبادة الأصنام ، فلم يكونوا من المشركين ، بل كانوا يدينون بالتوحيد الخالص، وهو فوق توحيد اليهود والنصارى ، فلم يكونوا يهوداً ولا نصارى ، و « وما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانيـاً ، ولكن كان حنيفـاً مسلماً ، وما كان من

---

١ بلوغ الارب ( ٢/٢٤٧ وما بعدهـا ) ، الطبرسي ، مجمع البيـان ( ٣/١١٠ ) ( ٧/٢٥٢ ) ، ( ١١/١٠٧ ) ( ١٤/١٣٧ ) .

المشركين »[1] ، وان قدوتهم في ذلك ابراهيم . ويلاحظ ان لفظة (مسلم) استعملت في مرادف ومعنى لفظة (الحنيف) ، وان ابراهيم هو أبو وأول المسلمين . وقد وصف الاسلام بأنه دين الله الحنيف ، والدين الحنيف ، وان الشريعة الاسلامية، هي الحنيفية السمحة السهلة ، وذلك تمييزاً لها عن الرهبانية المتعصبة[2] .

وقد عدّ بعض المستشرقين الحنفاء شيعة من شيع النصرانية ، وعدّوهم نصارى عرباً زهاداً كيّفوا النصرانية بعض التكييف ؛ وخلطوا فيها بعض تعاليم من غيرها. وقد استدلوا على ذلك بما ورد من تنصر بعضهم ، وبما ورد في بعض الأشعار الجاهلية من مواضع يفهم منها على تفسيرهم ان المراد بهم شيعة من شيع النصرانية[3]. غير ان القرآن الكريم قد نص نصاً صريحاً على ان الحنفاء لم يكونوا يهوداً ولا نصارى ، وانهم ينتمون في عقيدتهم الى ابراهيم . ثم إن الأخباريين وإن أدخلوا في الأحناف أناساً نصوا على انهم كانوا نصارى ، إلا انهم نصوا في الوقت نفسه نصاً صريحاً على ان البقية الباقية ، كانت واقفة،لم تدخل في يهودية ولا نصرانية ، إذ وجدت في كل ديانة من الديانتين أموراً جعلتها تتريث،فلم تدخل في احداهما، وبقيت مخلصة لسنّة ابراهيم ، لذلك فلا يمكن اعتبار الأحناف نصارى خلصاً ، أو شيعة من الشيع النصرانية .

وقد كان من الحنفاء نفر من النصارى ، أخلصوا لنصرانيتهم وماتوا عليها . فهؤلاء هم نصارى من غير شك ، ويجب اخراجهم من طائفة الحنفاء ، وادخالهم في النصارى ، مثل ( بحيرا ) الراهب ، وأمثاله ممن سأتحدث عنهم فيما بعد .

ويلاحظ أن جميع من حشرهم أهل الأخبار في الحنيفية ، كانوا من القارئين، الكاتبين . وكانوا يشترون الكتب ويراجعونها ويتسقطون أخبار أهل الآراء والمذاهب والديانات . ولبعض منهم — كما يروي أهل الأخبار — علم باللغات الأعجمية مثل السريانية والعبرانية ، كما كان لهم علم ووقوف على تيارات الفكر في ذلك الوقت . وقد أضافوا الى علمهم الذي أخذوه من الكتب ، علماً حصلوا عليه من

---

١ آل عمران ، الآية ٦٧ وما بعدها ، البقرة ، الآية ٣٥ ، آل عمران ، الآية ٩٥ ، النساء ، الآية ١٢٤ ، الانعام ، الاية ٧٩ ، ١٦٢ ، يونس ١٠٥ .

٢ ابن سعد ( ١/١٢٨ ) ، قال عبد الله بن أنيس :
فقلت له خذها بضربة ماجد حنيف على دين النبي محمد

٣ Reste, S. 238, J.A. Montgomry, Ascetic Strains in Early Judaism, JBL., Vol., LI, 1932, p. 183, Abraham J. Katsch, Judaism in Islam, p. 108.

أسفارهم الى الخارج مثل العراق وبلاد الشأم ومن اتصالهم بالرهبان وبرجال الكنائس واليهـــود . فهم بالنسبة لذلك الوقت الطبقة المثقفة من الجاهليين نادت بالاصلاح وبرفع مستوى العقل وبنبذ الأساطير والخرافات وبتحرير العقل من سيطرة العادات والتقاليد فيه ، وذلك بالدراسات والتأمل وبقراءة الكتب وبالرجوع الى دين الفطرة، الذي لا يقر عبادة الشرك ولا عبادة الناس .

لذلك نستطيع أن نقول عن هؤلاء إنهم كانوا أناساً من النوع الذي نطلق عليهم كلمة (مصلحين) في الوقت الحاضر . من هذا الطراز الذي يريد اصلاح الأوضاع ورفع مستوى العقل . فهم جماعة ضد الأوضاع الاجتماعية السائدة في أيامهم . لأنها في نظرهم أوضاع مؤخرة تمنع الإنسان من التقدم ومن ادراك الواقع . وقد رأت أن العقل لا يقر التقرب الى أحجـــار والى التبرك بها والذبح لها ، لأنها حجارة لا تعي ولا تفهم وليس في إمكانها أن تسمع أو تجيب لذلك نفرت منها . ومنهم من آمن بدين كالنصرانية ، ولكنه لم يكن على نصرانية قومه ، لأن عقله لا يقر التقرب الى المادة مثل الصليب والصور والتماثيل ، ومنهم من أبعدته مثل هـــذه العبادة عن النصرانية ، فصيرته حائراً في أمره من الديانات ، يعتقد بإلـه ، ولكنه لم يستقر على دين . عائب على قومه من المشركين ما هم عليـــه من جهل ومن عبادة أحجار ومن كل تقرب اليها .

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء نفر ذكروا انهم كرهوا عبـادة الأوثان وسخفوا أحلام المتعبدين لها ، إذ وجدوا ان من الحمق التقرب الى حجـــر لا يضر ولا ينفع ، وهو جماد ، فلما سمع بعضهم بالاسلام أسلموا . ولكنهـم لم يدخلوهم في عداد الأحناف . وقد رأينا ان من أهل الأخبار من جعل ( مسيلمة ) يدعو الى عبادة (الرحمن) قبل مبعث النبي . وقد ذكروا ان « عمرو بن عبسة بن عامر بن خالد » السلمي ، كان قد رغب عن آلهة قومه في الجاهلية ، رأى انها باطلة ، وان الناس في ضلال إذ يعبدون الحجارة ، والحجارة لا تضر ولا تنفع ، فكان حائراً ، حتى اهتدى إلى الاسلام[1] .

وليس في أيدينا اليوم مورد يفيد بوجود تكتل وتنظيم لمـــن أطلق الأخباريون

---

١ الاصابة ( ٣/٥ وما بعدها ) ، رقم (٥٩٠٥) ، الاستيعاب ( ٢/٤٩١ وما بعدها ) ، حاشية على الاصابة .

عليهم لفظة : (الحنفاء) ، تكتل وتنظيم مع مظاهر خارجية وداخلية تميزهم عن غيرهم من أهل الأديان . لذلك ، فنحن لا نستطيع أن نقول إن الحنيفية كانت فرقة تتبع ديناً بالمعنى المفهوم من الدين ، كدين اليهودية أو النصرانية ، لها أحكام وشريعة تستمد أحكامها من كتب مُنزلة مقدسة ومن وحي نزل من السماء ، على نحو ما نفهمه من الأديان السماوية . لذلك ، فأنا لا أستطيع إقرار رأي من ذهب الى انهم كانوا جماعة دينية منظمة ، كرأي المستشرق ( شبرنكر ) ، الذي ذهب الى هذا المذهب[1] .

وجلّ هؤلاء الأحناف ، هم من أسر معروفة ، وبيوت يظهر أنهـا كانت مرفهـة أو فوق مستوى الوسط بالنسبة الى تلك الأيام ، ولهذا صار في امكانهم الحصول على ثقافة وعلى شراء الكتب ، وقد كانت غالية الثمن إذ ذاك ، لنيل العلم منهـا . كما صار في امكانهم الطواف في خارج جزيرة العرب لامتصاص المعرفة من البلاد المتقدمة بالنسبة الى تلك الأوقات ، مثل العراق وبـلاد الشأم . وقد اتصلوا كما يزعم أهل الأخبار فعـلاً برجال العلم والدين فيها ، وتحادثوا معهم وأخذوا الرأي منهم . ومن يدري فلعلهم قرأوا عليهم الكتب وفي جملتها كتب اليونان ، أو ترجمات كتبهم بالسريانية ، فحصلوا نتيجة لذلك على عـلم بمقالات اليونان وبآرائهم في الفلسفـة والدين والحيـاة . وقد تكون بعض الآراء المنسوبة اليهم ، والتي ترجع الى أصل يوناني ، قد قالوهـا من أخذهم لها من تلك الكتب ومن دراستهم على من اتصلوا بهم من العلماء في أثنـاء وجودهم في العراق وفي بلاد الشأم .

ونجد في الأخبار أن الرسول كان يعدّ الرهبانية مخالفة للحنيفية ، إذ ورد أن أبا عامر بن صيفي — المعروف بالراهب لأنه كان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح — قدم المدينة ورأى الرسول ، وسأله : ما هـذا الذي جئت به ؟ — فقال الرسول : جئت بالحنيفية دين ابراهيم ، قال : فأنا عليها ، فقال الرسول: لست عليها ، ولكنك أدخلت فيها ما ليس منهـا . وقد سماه الرسول الفاسق . فذهب مغاضباً للرسول كما تقول الروايات، متوجهاً الى قيصر ، ليحمله على توجيه جيش الى المدينة للقضاء على الإسلام ، غير أنه مات وهو في بلاد الشأم[2] .

---

١ Sprenger, Das Leben, Bd., I, S. 4, Ency., II, S. 259.

٢ مجمع البيان ( ٩/٦٤ وما بعدها ) ، ( ٣/٥٠٠ ) ، ( طبعة طهران ) .

وقد خرج ( أبو عامر ) واسمه ( عبد عمرو بن صيفي بن مالك بن النعمان ابن أمة )[1] الراهب أحد ( بني ضبيعة ) الى مكة مباعداً لرسول الله ، معه خمسون غلاماً من الأوس ، منهم ( عثمان بن حنيف ) . « فكان يعد قريشاً ان لو قد لقي محرماً لم يختلف عليه منهم رجلان ، فلما كان يوم أحد ، كان أول من لقي أهل المدينة أبو عامر في الأحابيش وعبدان أهل مكة ، فنادى يا معشر الأوس ، أنا أبو عامر ، قالوا : فلا أنعم الله بك عيناً يا فاسق،وكان أبو عامر يسمى في الجاهلية ( الراهب ) فسماه رسول الله الفاسق ، فلما سمع ردهم عليه ، قاتلهم ثم راضخهم بالحجارة » . ثم رجع مع قريش الى مكة ثم خرج الى الروم يوم فتحت مكة فمات بها سنة تسع ، ويقال سنة عشر . وأعطى (هرقل) ميراثه لكنانة بن عبد ياليل الثقفي[2] ، وكان قد اختصم مع علقمة بن علاثة في ميراثه ، فدفع هرقل ميراثه لكنانة قائلاً لعلقمة : هما من أهل المدر وأنت من أهل الوبر.

وكان له ولد اسمه (حنظلة ) أسلم ، واستأذن رسول الله في قتل أبيه ، فنهاه عن ذلك . فلما كان يوم أحد شهده ، والتقى هو وأبو سفيان ، فلما استعلى حنظلة رآه ( شداد بن شعوب ) فعلاه بالسيف حتى قتله ، وقد كاد يقتل أبا سفيان . فقال النبي : « إن صاحبكم تغسله الملائكة »[3] ، فعرف بـ ( غسيل الملائكة )[4] . فكان الابن مع المسلمين في هذا اليوم ، وكان الأب مع المشركين .

وروي أنه كان يتزهد في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام خرج الى الشام وأمر المنافقين باتخاذ مسجد الضرار ، وأتى قيصر فاستنجده على النبي[5] . وروي أنه هو الذي حزب الأحزاب لقتال الرسول : فلما خذل لحق بالروم يطلب النصر منهم ، وقال لأناس من الأنصار ابنو مسجدكم واستعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح ،

---

١ تاريخ الطبري ( ٢/٥١٢ ) ، ( معركة أحد ) ، المحبر (٤٧٠) ، سيرة ابن هشام ( ٢/١٢٩ ) ، ( حاشية على الروض ) ، أبو عامر بن صيفي بن مالك بن أمية بن ضبيعة بن زيد بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الاوس ، الاوسي ، الاصابة ( ١/٣٦٠ ) ، ( رقم ١٨٦٣ ) ، مروج الذهب ( ١/٨٨ ) ، ( دار الاندلس ) .

٢ الاصابة ( ١/٣٦٠ ) ، ( رقم ١٨٦٣ ) .

٣ الاستيعاب ( ١/٢٧٩ وما بعدها ) ، ( حاشية على الاصابة ) .

٤ الاصابة ( ١/٣٦٠ ) ، ( رقم ١٨٦٣ ) ، الاستيعاب ( ١/٢٧٩ وما بعدها ) ، حاشية على الاصابة ) .

٥ تفسير النيسابوري ( ٩/٧٦ ) ، ( حاشية على تفسير الطبري ) ، روح المعاني ( ٩/١١١ ) .

فإني ذاهب الى قيصر ملك الروم فآتي بجند من الروم ، فأخرج محمداً وأصحابه، وكان قد خرج معه كنانة بن عبد يا ليل الثقفي وعلقمة بن علاثة . فأما علقمة وابن ياليل (ابن بالين) ، فرجعا فبايعا النبي وأسلما ، وأما ( أبو عامر ) فتنصر وأقام[1] .

ويظهر أن ( أبا عامر الراهب ) ، كان قد وضع مع جماعة من الأنصار الحاقدين على الرسول وعلى المهاجرين الذين صاروا يزاحمونهم في أعمالهم ،واستحوذوا على التجارة واستغلوا أرض يثرب فقام قوم منهم بزراعتها ، خطة لعمل مكيدة يخرجون بها الرسول من المدينة ، يساعدهم في ذلك الروم . غير انها لم تنجح ، وهدم المسجد ، الذي تواعدوا على أن يكون موضع التآمر وملتقى الحاقدين على الرسول ، وقضي على المؤامرة ، وبقي ( أبو عامر ) عند الروم . فلما مات عاد ( كنانة بن عبد يا ليل ) الثقفي ، وكان رئيس ثقيف في زمانه ، وكان يقول: « لا يرثني رجل من قريش ) ، مما يدل على أنه كان من الكارهين لقريش المتحاملين عليها وعلى الاسلام ، ففر الى ( نجران ) ثم توجه الى الروم . فلما مات ( أبو عامر ) عاد فأسلم[2] . وعاد ( علقمة ) أيضاً . وهناك روايات أخرى، تذكر أنه ارتد في أيام (عمر ) ، والتحق بالروم ، ثم عاد الى الإسلام[3] .

ولاشتهار أبي عامر بالراهب ، ولما ورد في بعض الأخبار من انه كان حنيفاً ، ذهب ( ولهوزن ) الى ان الأحناف هم من النصارى ، وان حركتهم حركة نصرانية ، وانهم كانوا القنطرة التي توصل بين النصرانية والاسلام[4] . غير ان ما لدينا من معارف عن الأحناف ، لا يكفي لابداء رأي كهذا الرأي ، وللتسليم بمثل هذا القول ينبغي لنا الوقوف على آرائهم وقوفاً دقيقاً ومقارنة ما لدينا بما نعرفه من النصرانية لنتمكن من التوصل الى رأي علمي في هذا الشأن .

وفي بيت منسوب إلى أمية إشارة إلى الحنيفية ، ذكر فيه ان كل دين زور عند الله إلا دين الحنيفية . وقد رأينا ان أهل الأخبار يدخلون أمية في جملة

---

١ تفسير الطبري ( ١٧/١١ وما بعدها ) ، تفسير القرطبي ( ٣٢٠/٧ ) ، ( ٢٥٣/٨ وما بعدها ) .
٢ الاصابة ( ٣٠٥/٣ ) ، ( رقم ٧٥٣٢ ) .
٣ الاصابة ( ٤٩٦/٢ ) ، (٥٦٧٧) .
٤ Wellhausen, Reste, S. 239. f.

الحنفاء ، ويقولون : انه لبس المسوح تعبداً ، وكان ممن ذكر ابراهيم واسماعيل وحرم الخمر[1] . ويلاحظ ان الأخباريين ينسبون الى عدد من هؤلاء الأحناف لبس المسوح ، مما يشير الى انهم كانوا قد تأثروا بالرهبان المتقشفين وبالزهاد النصارى الناسكين، فأخذوا عنهم هذه الطريقة التي أشير اليها في القرآن الكريم وفي الحديث ، والتي عُدّت من البدع الممقوتة في الاسلام .

وقد أورد أهل الأخبار كلاماً ذكروا ان الأحناف قالوه ، هو من نوع كلام الكهان المرتب على طريقة السجع ، أوردوه بنصه على ما ذكروه . غير ان من الصعب تصور صدور ذلك الكلام المنمق من أناس عاشوا قبل الاسلام ، ومحافظة الناس عليه محافظة تامة إلى ما بعد الاسلام . ويظهر على كل حال من دراسة روايات أهل الأخبار عن الكهان والأحناف ان كلام رجال الدين قبل الاسلام كان على هذا النمط من السجع ، ومن جمل مكررة معادة عامة . وقد ظل السجع الطريقة المحببة في الكتابة الى ايامنا هذه عند بعض الكتّاب .

ويفهم من كلام الرواة ان بعض هؤلاء الحنفاء كانوا نصارى مثل ورقة بن نوفل ، أي على عكس ما يذكره الرواة أنفسهم من أن هؤلاء كانوا قد تجنبوا اليهودية والنصرانية متبعين ديانة ابراهيم[2] . والظاهر أن الرواة قد اشتبه عليهم الأمر، فخلطوا في بعض الأحيان بين النصرانية وبين هؤلاء الذين أنكروا عبادة الأصنام واعتقدوا التوحيد .

ولدينا أمثلة أخرى على هذا الوهم . وسنرى من تراجم عدد من الاحناف ان منهم من يجب ادخاله في عداد النصارى ؛ لا الاحناف . وقد نص أهل الاخبار أنفسهم على تنصرهم ، غير انهم ادخلوهم مع ذلك في جملة الاحناف حين تكلموا عنهم . فكأنهم عنوا بالاحناف من كان على حياة الرهبنة والتقشف.

وقد أدخل ( المسعودي ) بعض الاحناف في جماعة اهل الفترة ممن كان بين المسيح ومحمد ، ومن أهل التوحيد ، ممن يقر بالبعث . ثم قال : « وقد اختلف الناس فيهم، فمن الناس من رأى انهم أنبياء ، ومنهم من رأى غير ذلك»[3].

---

١ كل دين يوم القيامة عند الله الا دين الحنيفة زور
الاغاني ( ٤/١٢٢ ) « طبعة دار الكتب المصرية » .

٢ بلوغ الارب ( ٢/٢٧٠ ) .

٣ مروج ( ١/٧٨ ) ، ( دار الاندلس ) .

وقد ذكر من بينهم ( حنظلة بن صفوان ) ، و ( خالد بن سنان العبسي ) ، و ( رئاب الشني ) ، و ( أسعد ابو كرب الحميري ) ، و ( قس بن ساعدة الإيادي ) ، و ( أميـــة بن أبـي السلط الثقفي ) ، و ( ورقة بن نوفل ) ، و ( عداس ) مولى ( عتيبـــة بن ربيعة الثقفي ، و ( ابو قيس ) ( صرمة بن أبـي انس ) الانصاري ، و ( أبو عامر الاوسي ) ، و ( عبـدالله بن جحش الاسدي ) ، و ( بحيرا الراهب )[1] . ومن هؤلاء من كان على النصرانية ، وقد نص ( المسعودي ) نفسه على ذلك .

والذين ذكر الرواة أسماءهم من الحنفاء هم أناس عاشوا في الجاهليـــة المتصلة بالاسلام ، ومنهم من أدرك الرسول ، ولا عبرة بالطبع لما زعمه الأخباريون من طول عمر أولئك الأشخاص وبلوغ بعضهم مئين عدة من السنين ، وادخالهم في المعمرين[2] ، فان من عادة الأخباريين إطالة عمر هؤلاء وأمثالهم من الرجال البارزين الظاهرين ، ليكون ذلك مناسباً لما يجيء في أخبارهم من الحـــكم المنسوبة اليهم ، وهي فكرة عامة نجدها عند غير العرب أيضاً ، ولذلك نجد صور الحكماء والفلاسفة في الغالب على صورة شيوخ أصحاب لحى طويلة بيض ورأس جلله الشيب أو قضى على شعره الزمن والتفكير ، فصلـيع ، لأن هذه من علامات الحكمة والتفكير .

وعندي ان الحنفاء جماعة سخرت من عبادة الأصنام ، وثارت عليها وعـــلى المُثل الأخلاقية التي كانت سائدة في ذلك الزمن ، ودعت إلى إصلاحات واسعة في الحياة وإلى محاربة الأمراض الاجتماعية العديدة التي كانت متفشية في ذلك العهد ، دعاها إلى ذلك ما رأته في قومها من إغراق في عبادة الاصنـــام ومن اسفاف في شرب الخمر ولعب الميسر وما شاكل ذلك من أمور مضرة ، فرفعت صوتها كما يرفع المصلحون صوتهم في كل زمن ينادون بالاصلاح ، وقد أثارت دعوتهم هذه المحافظين وأصحاب الجاه والنفوذ وسدنة الاوثان شأن كل دعوة إصلاحية . ويجوز ان يكون من بين هؤلاء من مال إلى النصرانية ، غير اننا لا نستطيـــع ان نقول انهم كانوا نصارى أو يهوداً ، انما أستطيـــع ان أشبه دعوة هؤلاء بدعوة الذين دعوا إلى عبادة الإلـه رب السماء ( ذو سموى ) أو عبادة الرحمـــن في اليمن ،

---

١ مروج ( ٧٨/١ وما بعدها ) .

٢ جعل السجستاني عمر قس بن ساعدة الايادي ، وهو من الحنفاء ، ثمانين وثـلاث مئة سنة ، بلوغ الارب ( ٢٤٦/٢ ) .

متأثرين بمبادىء التوحيد التي حملتهـــا اليهودية والنصرانيـة إلى اليمن . ولكنهم لم يكونوا أنفسهم يهوداً أو نصارى ، انما هم أصحاب ديانة من ديانات التوحيد .

ولا يعني قولي هذا ان الحنفاء كانوا على رأي واحد ودين واحد كالذي يفهم مثلاً من قولنا يهودي ونصراني ويهود ونصارى ، بمعنى أنهم كانوا طائفة معينة تسير على شريعة ثابتة كالذي ذهب (شبرنكر) اليه[1] . إنما كان أولئك الاحناف نفراً من قبائل متفرقة لم تجمع بينهم رابطة ، انما اتفقت فكرتهم في رفض عبادة الاصنام وفي الـــدعوة الى الاصلاح . وهذا المعنى واضح في آيات القرآن الكريم التي أشارت الى الحنفاء .

والرجـــال الذين قال أهل الاخبار عنهم إنهم كانوا على دين ، وكانوا من الاحناف ، هم : قس بن ساعدة الإيادي ، وزيد بن عمرو بن نُفيل ، وأميّة ابن أبـي الصلت : وارباب بن رئاب ، وسويد بن عامر المصطلقي ، وأسعـــد ابو كرب الحميري ، ووكيع بن زهير الإيادي ، وعمير بن جنـدب الجُهني ، وعدي بن زيد العبادي ، وأبو قيس صرمة بن أبـي انس،وسيف بن ذي يزن ، وورقة بن نوفل القرشي ، وعامر بن الظّرب العدواني ، وعبد الطابخة بن ثعلب ابن وبرة بن قضاعة ، وعلاف بن شهاب التميمي ، والملتمس بن أمية الكناني، وزهير بن أبـي سُلمى ، وخالد بن سنان العَبْسي ، وعبدالله القضاعي ، وعبيد ابن الابرص الاسدي ، وكعب بن لؤي بن غالب[2] .

وبعض هؤلاء مثل : ( قس بن ساعدة الإيادي ) و ( عثمان بن الحويرث ) و ( عدي بن زيد العبـــادي ) نصارى ، وبعض منهم مثل ( أسعد ابو كرب الحميري ) ، ( ابو كرب اسعد الحميري )[3] و ( عبيد بن الابرص ) ، و( زهير ابن أبـي سلمى ) ، مشكوك في أمرهم ، لا نستطيع أن نذكر شيئاً عن دينهم. ولهذا فأنا اذكرهم هنا بحذر ، مجاراة لمن أدخلهم في اهل الدين مـن الجاهليين . ولا أعني انهم كانوا على الحنيفية ، اي على شريعة التوحيد التي ينص عليها أهل الاخبار .

---

١ Sprenger, Das Leben, Bd., I, S. 4.

٢ بلوغ الارب ( ٢/٢٤٤ وما بعدها ) ، مروج الذهب ( ١/٧٨ ) ، ( دار الاندلس ) .

٣ بلوغ الارب ( ٢/٢٤٤ ) ، مروج ( ١/٥٢ وما بعدها ) .

وقد اقتصر ( محمد بن حبيب ) على ذكر بعض من تقدم ، حين تكلم عن ( أسماء الذين رفضوا عبادة الاصنام ) ، فذكرهم على هذا النحو : عثمان بن الحويرث ، وورقة بن نوفل ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وعبيد الله بن جحش ابن رئاب الاسدي . وذكر ان منهم من تنصر ومات على النصرانية ، مثل : عثمان بن الحويرث ، وورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش بن رئاب الاسدي[1] .

فأما قُس بن ساعدة الايادي ، فقد رفعه الاخباريون من مصاف أسوياء البشر ، ووضعوه في صف المعمرين الذين عاشوا مئين من السنين قيل سبع مئة سنة ، وقيل ست مئة سنة ، أو أقل من ذلك بكثير ، غير انه لا يقل عن ثلاث مئة سنة على كل حال[2] .

وأما مولده ، فمجهول . وأما وفاته ، فيكاد يحصل الاتفاق على انه كان قبيل البعثة . وقد ورد في رواية ان الرسول أدركه ورآه يخطب في سوق عكاظ خطبته الشهيرة المعروفة ، غير انه لم يحفظها ، وان أبا بكر ، وكان من جملة من حضر السوق وسمع الخطبة ، كان قد حفظها ، فأعادها على الرسول . وهي الخطبة الشهيرة المتداولة بين الناس والمحفوظة في الكتب . وهناك رواية تذكر ان الرسول كان يحفظها ، وقد تلاها على من حضر عنده ، وتلا بعضاً منها على وفد عبد القيس[3] .

---

١ المحبر ( ١٧١ وما بعدها ) .

٢ وخيل : قس بن ساعدة بن حذافة بن زفر ، وقيل : حذافة بن زهر بن نزار . وقيل : قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك بن ايدعان بن النمر الخ ... وقيل : هو ابن ساعدة بن عمرو بن شمر بن عدي بن مالك ، وهكذا . بلوغ الارب ( ٢/٢٤٦ ) ، البيان والتبيين ( ١/٥٠ ) « طبعة السندوبي » ، (١٩٢٦) ، شعراء النصرانية ( ٢/٢١١ ) ، « قس بن ساعدة الايادي بن عمرو بن عدي بن مالك بن أبدطان « ايدعان » بن النمر بن وائلة بن الطمنان بن عوذ مناة بن يقدم بن أفصى » المحبر ( ص ١٣٦ ) ، الاغاني ( ١٤/٤٠ ) ، البداية والنهاية ، لابن كثير ( ٢/٢٣٠ ) الميداني ، مجمع الامثال ( ١/١١٧ ) .

٣ وفي نصها بعض الاختلاف ، راجع :
الاصابة ( ٥/٢٨٥ ) ، « وقدم وفد بكر بن وائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له رجل منهم : هل تعرف قس بن ساعدة ؟ فقال رسول الله : ليس هو منكم . هذا رجل من اياد ، تحنف في الجاهلية ، فوافى عكاظ والناس مجتمعون ، فيكلمهم بكلامه الذي حفظ عنه » ، طبقات ابن سعد : الجزء الاول : القسم الثاني ( ص ٥٥ ) ، « وفد بكر بن وائل » ، محاضر الابرار ( ص ٤٨ وما بعدها ) ، البداية والنهاية ( ٢/٢٣٠ ) .

ومما يلفت النظر في الروايات الواردة عن حفظ الرسول لخطبة ( قس ) ، هو اشارتها الى أن النبي كان يحفظ نص الخطبة ، ولم يكن يحفظ الشعر الملحق بها . مع ان حفـــظ الشعر أيسر من حفظ النثر . ولعل الرواة رووا ذلك لإظهار أن الرسول كان لا يقول الشعر ، وانما كان يسمعه . ولكننا نجدهم من ناحية أخرى يروون أنه كان يتلو من الشعر المناسب ما شاء ان يتلو ، وانه كان يستشهد بـه في كلامه ، وأنه كان يحفظ شيئاً من شعر الماضين والحاضرين . ولن يضير النبوة من حفظ الشعر شيئاً .

والنص المحفوظ لخطبة ( قس ) نص مختلف لم يتفق الرواة عليه . ممـــا يدل على أنه لم يكن مدوناً ، وإنما روي بروايات مختلفة ، ثم دونت فيما بعد .

وأوصل بعض الاخباريين قساً الى القيصر ، فزعموا انه ذهب اليه واتصل به ، وان القيصر أكرمـــه وعظمه . وانه سأله عن العلم قائلاً له : ما أفضل العلم ؟ قال : معرفة الرجل بنفسه . قال : فما أفضل العقل ؟ قال : وقوف المرء عند علمه . قال : فمـــا افضل الادب ؟ قال : استبقاء الرجل ماء وجهه . قال : فما أفضل المروءة ؟ قال : قلة رغبة المرء في اخلاف وعده . قال : فما أفضل المال ؟ قال : ما قضى به الحق[1] . وهو كلام ينبئك أسلوبه وطبيعته عـن أصله وفصله ، وله أصل يرجع الى الفلاسفة اليونان . ونسبوا له قبراً جعلوه في موضع ( رَوْحين ) على مقربة من حلب في لحف جبل ينذر له[2] .

ونجد حديث قيصر المزعوم مع ( قس ) ، في رواية أخرى على شكل آخر . وقد أهملت هذه الرواية اسم قيصر ، فلم تشر اليه ، واكتفت بلفظة ( قيل ) ، فقالت : « قيل لقس بن ساعدة : ما أفضل المعرفة ؟ قال : معرفة الرجـــل بنفسه . قيل له : فما أفضل العلم ؟ قال : وقوف المرء عند علمه ! قيل له : فما أفضل المروءة ؟ قال استبقاء الرجل ماء وجهه »[3] .

وقُس هو مخترع أوجد للعرب أشياء عديدة على زعم أهل الاخبار ، أحدث لهم أموراً كثيرة . فهو أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية ، وأول من توكأ

---

١ شعراء النصرانية ( ٢/٢١١ ) ، الامالي ، للقالي ( ٣/٣٧ ) « دار الكتب » ، العقد الفريد ( ٢/٢٥٤ وما بعدها ، ٢٩٠ وما بعدها ) .
٢ شعراء النصرانية ( ٢/٢١٦ ) ، الاغاني ( ١٤/٤٠ وما بعدها ) .
٣ العقد الفريد ( ٢/٢٩٠ وما بعدها ) .

عند خطبته على سيف أو عصا وأول من علا على شرف وخطب عليه ، وأول من قال : « أما بعد » ، وأول من كتب « إلى فلان بن فلان »[1] . وأول من قال : « البينة على من ادعى واليمين على من أنكر » ، فكل ما عرفه العرب من هذه الامور ، هو من صنعة قس وعمله . ثم انه كان أحد حكماء العرب ، وكان أسقف نجران ، وخطيب العرب كافة[2] . وذكروا ان له ولقومه فضيلة ليست لاحد من العرب ، لان الرسول روى كلامه وموقفه على جمله الاورق بعكاظ وموعظته ، وعجب من حسن كلامه ، وأظهر تصويبه[3] ، وانه قال فيه: « يحشر أمة وحده »[4] .

وجاء في رواية في تفسير قول الرسول : « يحشر أمة وحده » ، أو «يرحم الله قساً ، إني لأرجو ان يبعث يوم القيامة أمة واحدة » ، ان وفداً من إياد قدم على النبي : فسألهم عن قس ، فقالوا : هلك . فقال : رحمه الله ، كأني أنظر اليه بسوق عكاظ على جمل له أورق ( أحمر ) وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة ما أوجدني أحفظه . فقال رجل من القوم ، أنا أحفظه يا رسول الله . سمعته يقول : ايها الناس اسمعوا وعوا ... إلى آخر الخطبة ، وما جاء بعدها من شعر، فقال رسول الله عندئذ قوله المذكور فيه[5] .

ويختلف هذا الخبر بعض الاختلاف مع خبر آخر أشرت اليه قبل قليل ، فقد ورد في ذلك الخبر أن رسول الله كان يحفظ تلك الخطبة ، غير أنه لم يكن يحفظ الابيات الملحقة بها ، وكان ( أبو بكر ) يحفظها ، فأعادها على مسامعه[6] . كما يختلف عن رواية أخرى ، جاء فيها ان الوفد الذي قدم على الرسول كان وفد ( عبد القيس ) ، وأن الذي قرأ الشعر عليه هو أحد بني عبد القيس[7] .

---

١ المؤتلف والمختلف ، للمرزباني (٣٣٨) ، بلوغ الارب ( ٢/٢٤٦ ) ، الاغاني ( ١٤/٤٠ وما بعدها ) مروج الذهب ( ١/٨٢ ) ، ( ٢/١٠٢ ) ، ( دار الاندلس ) ، البداية والنهاية ( ٢/٢٣٠ وما بعدها ) .

٢ اللسان ( ٨/٥٨ ) ، شعراء النصرانية ( ٢/٢١١ ) .

٣ بلوغ الارب ( ٢/٢٤٦ ) .

٤ الاغاني ( ١٤/٤٠ ) .

٥ الاغاني ( ١٤/٤٠ وما بعدها ) ، المعارف (٦١) ، البداية والنهاية ( ٢/٢٣٠ وما بعدها ) .

٦ البداية والنهاية ( ٢/٢٣٠ وما بعدها ) ، مجمع الامثال ، للميداني ( ١/١١٧ ) .

٧ البداية والنهاية ( ٢/٢٣٠ وما بعدها ) .

ويذكر بعض أهل الاخبار ، ان ( الجارود ) ، وكان في ضمن رجال وفد ( عبد القيس ) ، قال للرسول حين سأل عن ( قس ) : « فداك أبي وأمي كلنا نعرفه وإني من بينهم لعالم بخبره ، واقف على أمره . كان قس يارسول الله سيطاً من أسياط العمر عمّر ستمائة سنة، تقفر منها خمسة أعمار في البراري والقفار» . ثم أخذ في وصفه وفي ذكر عقائده ، وفي لقياه لـ ( سمعان ) رأس الحواريين . وخلص بعد ذلك الى ذكر نص خطبته بسوق عكاظ،ومطلعها : « شرق وغرب» ، حتى انتهى منهـــا ، ثم ألحق بها شعراً[1] . وهي خطبة تختلف تماماً عن الخطبة المعروفة التي تنسب اليه ، وان كانت على نمطها من حيث الاسلوب والافكار ، وفيها مصطلحات اسلامية ترد في القرآن الكريم . ولا استبعد ان تكون من وضع شخص آخر غير الجارود . وضعها في العصور العباسية ، للحث على الزهد .

والجارود من سادات عبد القيس ، وكان نصرانياً ، قدم على النبي سنة عشر في وفد عبد القيس الاخير ، وسرّ الرسول بإسلامه ، وكان حسن الإسلام صلباً على دينه ، وقتل بأرض فارس في خلافة عمر ، وقيل بقي الى خلافة عثمان[2] .

ولو صح ما ذكروه من انه كان أسقفاً على نجران ، لوجب اخراجه اذن من الحنيفية وإدخاله في عداد النصارى . ولكن ليس مؤكداً انه كان اسقفاً على ذلك الموضع ، ويرى الاب (لامانس) احتمال كونه نصرانياً ، لان ما نسب اليه يبعث على هذا الظن[3] . وقد أدخـــل الاب ( لويس شيخو ) قساً في جملة النصارى الجاهليين،وأورد اكثر ما نسب اليه في ترجمته[4] . غير ان كثيراً من هذا المنسوب اليه منسوب إلى غيره . وقد اشار إلى من نسب اليهم العلماء .

وذهب ( شبرنكر ) إلى ان قساً كان من ( الركوسية ) ، وهم فرقة عرفهم اهل اللغة بأنهم بين النصارى والصابئين ، شملت جماعة من الحائرين في امر دينهم، ولذلك عمدوا إلى السياحة والترهب والانزواء[5] . وقـــد حسبهم العرب نصارى ، فأدخلوهم فيهم في اثناء كلامهم على هؤلاء[6] .

---

١ البداية والنهاية ( ٢/٢٣٠ وما بعدها ) .
٢ الاصابة ( ١/٢١٧ وما بعدها ) ، ( رقم ١٠٤٢ ) .
٣ Ency., II, p. 1161, Sprenger, Leben, I, S. 45.
٤ شعراء النصرانية ( ٢/٢١١ وما بعدها ) .
٥ تاج العروس ( ٤/١٦٣ ) .
٦ Sprenger, Leben, I, S. 43.

ويرى (لامانس) انه لو كان قس شخصية تأريخية حقاً ، فإن زمانه لا يمكن ان يكون في ايام الرسول او في ايام مقاربة من ايامه . إذ لا يعقل عنده ان يتكون هذا القصص الذي صير قساً شخصية من الشخصيات الخرافية ، لو كان من المعاصرين او المقاربين له . ثم إن اياداً لم تكن في ايام الرسول كتلة واحدة ، حتى ينسب قس اليها . فلا بد اذن ان تكون ايام هذا الرجل بعيدة بعض البعد عن ايام الرسول[1] .

غير ان حجج (لامانس) المذكورة لا يمكن ان تكون سنداً يؤيد ادعاءه في ان قساً كان شخصية خرافية ، او انه كان رجلاً حقاً ، ولكنه كان بعيد العهد عن الرسول . فقد روى الاخباريون قصصاً كثيراً عن سلمان الفارسي وعن غير سلمان من الصحابة ، لا يقل نسيجاً عن نسيج قصص قس ، فهل يتخذ هذا القصص حجة لانكار شخصية سلمان وغيره ممن ورد هذا القصص عنهم ؟ وهل يجوز ان نقول إن سلمان إن كان شخصاً حقاً فوجب ان تكون ايامه بعيدة عن ايام الرسول.

ولدى الرواة أبيات ينسبونها الى بعض الشعراء الجاهليين ، هم : الاعشى ، والحطيأة ، ولبيد ، ذكر فيها اسم قُسّ . وقد أشيد فيها بفصاحته وببلاغته وحكمته ، حتى جعل لبيد لقمان دون قس في الحكم[2] .

وورد اسم ( قس ) في هذا الشعر وفي أمثاله إن صح انه من شعر الجاهليين حقاً ، وورود اسمه في الحديث وفي الاخبار ، هو تعبير عن رأي اهل الجاهلية في خطيب مفوه عدّ في نظرهم المثل الاعلى في الخطابة وممثل البلاغة عندهم فهو كشيوخ الخطباء عند اللاتين .

---

١ Ency., II, p. 1161.

٢ قال لبيد :

وأخلف قســـا ليتنى ولعلني وأعيـا على لقمان حكم التدبر

الاصابة ( ٥/٢٨٥ ) « قس » ، قال الاعشى :

وأحلم مـن قس وأجـرى من الذي بذى الغيل من خفان أصبح حاردا

وفي رواية أخرى :

وأحلم من قيس وأجرء مقدمـا لذى الدرع من ليث اذا راح حاردا

ديون الاعشى ( ص ٤٩ ) « تحقيق R. Geyer » ، المؤتلف والمختلـف ( ص ٣٣٨ ) ، وقال الحطيأة :

وأقول من قس وأمضى اذا مضى من الرمح اذ مس النفوس نكالها

المؤتلف والمختلف ( ص ٣٣٨ ) .

وجميع هذا القصص المروي عن قس ، هو من النوع الذي يحتاج الى تمحيص. وقد نسبوا اليه شعراً ، زعموا انه قاله وهو يبكي بين قبرين بنى بينهما مسجداً ، هما قبرا أخويه ، على حين ان أكثر الرواة يقولون إن هذا الشعر لغيره ، وان قصة القبرين لا تخص قساً،بل تخص أناساً آخرين ، وقد كانا في ايران وأصحابهما قبرا فيهما في الاسلام . ورواة هذا الخبر ، هم رواة خطبة قس الشهيرة ، وهم محمد بن السائب الكلبي عن ابي صالح ابن عباس وجماعة آخرون أشار ( ابن حجر ) الى بعضهم في كتابه : « الإصابة في تمييز الصحابة » ، وقد ضعف ابن حجر هذه الطرق ، فقال : « وقد أفرد بعض الرواة طريق حديث قس ، وفيه شعره وخطبته ، وهو في الطوالات للطبراني وغيرها . وطرقه كلها ضعيفة»[1]. ثم عرج بعد ذلك الى ذكر بعض الطرق التي وردت فيها خطبة قس .

واما ( زيد بن عمرو بن نُفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبدالله بن قرط ابن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر ) ، فهو من قريش من بني عدي ، لم تعجبه عبادة قومه ، فانتقدها وسخفها وهزىء منها ووقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية ، وفارق دين قومه ، فاعتزل الاوثان ، ونهى عن قتل الموؤودة ، وامتنع من الذبح للأنساب ومن أكل الميتة والدم وما ذبح للأصنام . فكان في آرائه هذه مثل نفر آخر من قريش منهم : ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبيدالله بن جحش ، لاموا قومهم على عبادتهم الاصنام ، واتخاذ الانصاب وعبادة ما لا يضر ولا ينفع[2] . وهم طائفة من المفكرين ، رأى بعضهم بلاد الشأم ، واتصل ببعض المبشرين النصارى ، ووقف على التطورات الفكرية في الخارج ، ولعله كان يقرأ ويكتب ، وله اطلاع على مؤلفات في الفلسفة والدين.

وترجع احدى الروايات سبب خروج ( زيد ) على عبادة قومه ، انه حضر يوماً وحضر معه في ذلك اليوم ( ورقة بن نوفل ) ، و ( عبدالله بن جحش ) و ( عثمان بن الحويرث ) ، عيداً من أعياد قريش ، عند صنم من أصنامهم ،

---

١ الاغاني ( ١٤/٤٠ وما بعدها ) ، الاصابة ( ٥/٢٨٦ ) .

٢ ابن هشام ( ١/٢٤٤ وما بعدها ) ، ارشاد الساري ( ٦/١٩٠ ) ، أسد الغابة ( ٢/٢٣٦ ) ، طبقات الشعراء ( ص ٦٦ ) « طبعة ليدن » ، البداية والنهاية ( ٢/٢٣٧ ) ، ابن خلدون ، القسم الاول ، المجلد الثاني ( ص ٧٠٧ ) ، المسعودي ، مروج ( ١/٧٠ ) « محمد محيي الدين عبد الحميدي » الاغاني ( ٣/١١٣ ) ، البخاري ( ٥/٥٠ ) ، المعارف (٢٧) .

كانوا يعظمونه ، ويعكفون عنده ، او يديرون به ، وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً ، وكانوا ينحرون له ، فلما خلد بعضهم إلى بعض وتصادقوا ، قالوا ليكتم بعضكم على بعض ، واتفقوا على ذلك ، ثم قال قائلهـــم : تعلمون والله ما قومكم على شيء ، لقد أخطأوا دين ابراهيم وخالفوه . ما وثن يعبد؟ لا يضر ولا ينفع فابتغوا لأنفسكم فانكم والله ما أنتم على شيء . فخرجوا يطلبون ويسيرون في الارض يلتمسون اهل الكتاب »[1] .

وقد زار زيد الشأم والبلقاء ، وعاش الى خمس سنين قبل البعث ، فهـو من أولئك الرهط الثائرين على قومهم ، والذين أدركوا أيام الرسول . وقد نسبوا اليه شعراً في تسفيه عبادة قومه ، وفي فراقه دينهم وما لقيه منهم . وكان قد أوذي لمقالته هذه في دين قومه ، حتى اكره على ترك مكـــة والنزول بـ ( حراء ) ، وكان ( الخطّاب بن نفيل ) عمه ، وقد وكل به شباباً من شباب قريش وسفهاء من سفائهم كلفهم ألاّ يسمحوا له بدخول البلدة ويمنعـــه من الإتصال بأهلها ، مخافة ان يفسد عليهم دينهم وان يتابعه احد منهم على فراق ما هم عليه . واضطر زيد الى المعيشة في هذا المحل ، معتزلاً قومه ، إلا فترات ، كان يهرب خلالها سراً ، ليذهب الى موطنـــه ومسكنه ، فكانوا اذا أحسوا بوجوده هناك ، آلموه وآذوه[2] .

وورد في رواية ، يرجع رواتها سندها الى ( هشام بن سعيد بن زيد بن عمرو ابن نفيل ) ، اي الى حفيد ( زيد ) ، تذكر أن ( زيد ) خرج مع ( ورقة ابن نوفل ) يلتمسان الدين ، حتى انتهيا الى راهب بالموصل ، فسأله عن الدين ، فلم يقتنع بالنصرانية ، اما ( ورقة ) ، فاقتنع بها وتنصر[3] . وتذكر رواية أخرى ان ( زيد بن عمرو ) خرج الى الشأم ومعه : ( ورقة بن نوفل ) ، و ( عثمان ابن الحويرث ) ، و ( عبيد الله بن جحش )[4] . ويـــذكر الرواة أن زيداً كان

---

١ البداية ( ٢/٢٣٨ ) ، ابن هشام ، سيرة ( ١/٢٤٢ ) .

٢ ابن هشام ( ١/٢٤٠ وما بعدها ) ( البابي ) ، بلوغ الارب ( ٢/٢٥١ وما بعدها ) ، ابن سعد ، الطبقات ( ١/١٦٢ ) « طبعة دار صادر » ، مروج الذهب ( ١/٧٠ ) « القاهرة ١٩٥٨ م » ، البدايه ( ٢/٢٣٨ ) .

٣ البداية ( ٢/٢٣٨ ) .

٤ البداية ( ٢/٢٤٣ ) .

نديماً لورقة بن نوفل ، فمات ورقة ، وخرج زيد الى الشأم ، فقتله لخم وجذام[1].

ويذكر أهل الاخبار ان حرصه على الحنيفية وتمسكه الشديد بها ، حمله على السفر إلى بلاد شاسعة بحثاً عنها وعن مبادئها الصحيحة ، مبادىء ابراهيم الاصيلة الخالية من كل درن وشائبة . فذهب إلى الموصل والجزيرة ، ثم طاف في بلاد الشأم حتى انتهى إلى راهب بـ (ميفعة)[2] ( ببيعة )[3] من أرض البلقاء أو (أيلة) ، فسأله عما قدم من أجله ، فأرشده إلى ان ما يبتغيه ويراه لا يجده في النصرانية، فغادره وتركه ، وعاد يريد مكة موطنه . فلما توسط بلاد لخم أو جذام ، عدوا عليه وقتلوه . وقالوا أيضاً انه التقى في اثناء أسفاره هذه بأحبار اليهود وبعلماء من النصارى ، ولكنه لم يجد عندهم ما يطمئن نفسه ، وما يرى فيه التوحيد الخالص ، ومبادىء ابراهيم ، لذلك لم يدخل في ديانة ما من تلك الديانتين ، حتى قتل[4] .

وتذكر رواية من الروايات ، أن ( زيد بن عمرو بن نفيل ) مات بالسمّ في بلاد الشأم ، سمّه بعض ملوك غسان[5] . وتجعل رواية أخرى مقتله بمكان يقال له ( ميفعة ) من أرض البلقاء بالشأم ، وتذكر ان قتلته هم من بني لخم[6] . وتذكر رواية ان ( ورقة بن نوفل ) ، لما سمع بخبر وفاته بكاه في شعر له[7] .

وهناك روايات أخرى تفيد رجوع زيد الى قومه بعد عودته من الشأم،ووفاته وفاة طبيعية لا قتلاً بيد إنسان . « توفي وقريش تبني الكعبة قبل ان ينزل الوحي على رسول الله بخمس سنين » ، ودفن بأصل حراء[8] .

---

١ المحبر (١٧٥) .
٢ ابن هشام ( ١/٢٤٩ ) .
٣ « ببيعة » ، البداية ( ٢/٢٣٨ ) .
٤ ابن هشام ( ١/٢٤٩ وما بعدها ) ، طبقات ابن سعد : الجزء الثالث : القسم الاول ( ص ٢٧٦ وما بعدها ) ، بلوغ الارب ( ٢/٢٥١ وما بعدها ) ، « فلما توسط أرض جذام عدوا عليه فقتلوه » المحبر ( ص ١٧٢ ) ، سير أعلام النبلاء ، للذهبي ( ١/٩٠ وما بعدها ) ، ابن خلدون ( ٢/٧٠٧ وما بعدها ) ، المسعودي ، مروج ( ١/٧٠ ) ، ارشاد الساري ( ٦/١٧٢ وما بعدها ) .
٥ المسعودي ، مروج ( ٢/٥٦ ) .
٦ البداية ( ٢/٢٤١ ) .
٧ ابن هشام ( ١/٢٤٩ وما بعدها ) .
٨ طبقات ابن سعد : الجزء الثالث : القسم الاول ( ص ٢٧٧ ) ، البداية ( ٢/٢٤١ ) .

وفي رواية تظهر عليها سيماء الصنعة ، أن الذي أرشد ( زيد بن عمرو ) الى الحنيفية ، حبر التقى به في بلاد الشأم ، وعالم نصراني ، وذلك أنه كان قد سألهما عن دين صحيح قويم ، فأرشداه الى الحنيفية دين ابراهيم . فدخل فيها وصار يرفع يديه الى الله ويقول : اللهم إني أشهدك اني على دين ابراهيم[1] . ونجد في هذه الرواية أسئلة وجهها ( زيد ) الى الحبر في البحث عن الله وعن دينه الحق، وأجوبة الحبر عليها . كما نجد أسئلة أخرى ذكر أنه وجهها الى العالم النصراني ، ونجد أجوبة ذلك العالم عليها . وكيف أنهما دلاه على الحنيفية[2] .

وذكر ( ابن حبيب ) ان زيداً ( أول من عاب على قريش ما هم عليه من عبادة الأوثان )[3] . وقال عنه ( ابن دريد ) ، وكان قد « ترك دين العرب في الجاهلية وقلاه »[4] . وقصد بـ ( دين العرب ) الوثنية ولا شك . وزعم انه « كان يحيي الموؤودة . يقول للرجل اذا أراد ان يقتل ابنته مهلاً : لا تقتلها أنا أكفيك مؤونتها ، فيأخذها ، فإذا ترعرعت قال لأبيها إن شئت دفعتها اليك ، وإن شئت كفيتك مؤونتها »[5] . وقيل انه كان يقول : « اللهم لو أعلم أي الوجوه أحب اليك سجدت اليه . ولكني لا أعلمه . ثم يسجد على راحته »[6] . وانه كان « يقول : إلهي إلـه ابراهيم ، ودِيني دين ابراهيم . وكان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول : الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماء وأنبت لها من الأرض ، ثم تذبحونها على غير اسم الله تعالى ! انكاراً لذلك واعظاماً له »[7] . أو « يا معشر قريش : أيرسل الله قطر السماء ، وينبت بقل الأرض ، ويخلق السائمة فترعى فيه ، وتذبحوها لغيره ! والله ما أعلم على ظهر الأرض أحداً على دين ابراهيم غيري »[8] . ويستقبل القبلة ثم يقول :

---

١ الطبري ، تفسير ( ٣٠٦/٣ ) ، صحيح البخاري ( ٥٠/٥ ) ، « مطبعة الازهر بمصر »،
٢ الاغاني ( ١٢٦/٣ وما بعدها ) « دار الكتب المصرية » ، البداية ( ٢٣٨/٢ ) .
٣ المحبر ( ص ١٧١ ) .
٤ الاشتقاق ( ص ١٠٣ ) .
٥ طبقات ابن سعد ، الجزء الثالث : القسم الاول ( ص ٢٧٦ وما بعدها ) .
٦ المحبر ( ص ١٧١ ) .
٧ أسد الغابة ( ٢٣٦/٢ ) ، طبقات الشعراء (٦٦) « طبعة ليدن » ، بلوغ الارب ( ٢٤٨/٢ ) ، البداية والنهاية ( ٢٣٧/٢ ) ، ارشاد الساري ( ١٧١/٦ وما بعدها )
٨ الاغاني ( ١١٩/٣ وما بعدها ) .

أنفي لرب البيت عانٍ راغم  مهما يُجشّمني فإني جاشم
عذت بمـا عاذ به ابراهيم  مستقبل القبلة وهو قائم[1]

وروى ان أسماء بنت أبي بكر « قالت : لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسنداً ظهره الى الكعبة يقول : يا معشر قريش والذي نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين ابراهيم غيري . ثم يقول : اللهم اني لو أعلم أحب الوجوه اليك عبدتك به . ولكني لا أعلم . ثم يسجد على راحته »[2] . ثم يصلي الى الكعبة ويقول : إلهي إلَه ابراهيم ، ودِيني دين ابراهيم[3] .

وذكر ( ابن دريد ) أن ( زيد بن عمرو بن نفيل ) ، أدرك أيام الرسول ، ثم قال : « وكان النبي عليه الصلاة والسلام قبل الوحي قد حبب اليه الانفراد ، فكان يخلو في شعاب مكـة ، قال : فرأيت زيد بن عمرو بن نفيـل في بعض المشاعب ، وكان قـد تفرّد أيضاً ، فجلست اليه وقربت اليه طعاماً فيه لحم ، فقال لي يا ابن أخي اني لا آكل من هذه الذبائح »[4] .

وذكر ( ابن دريد ) ، أن زيد بن عمرو قال شعراً في تجنبه الأصنام، هو :

فلا عُزى أدين ولا ابنيتهـا  ولا صنمي بني عمرو أزور
أربّاً واحداً أم ألف ربّ  أدين اذا تقسمت الأمور[5]

ويفهم من هذا الشعر أن (عزى) ، إلهة ، أي انثى ، وان لها ابنتين اثنتين. ولم يشر ( ابن دريد ) الى اسميهما .

وقد صيغت الرواية المتقدمة التي تشير الى التقاء الرسول بزيد في شكل آخر . صيغت بهذه الصورة : « أتى زيد بن عمرو بن نفيل على رسول الله صـلى الله

---

١ كتاب نسب قريش ، للزبيري ( ص ٣٦٤ ) .
٢ البداية ( ٢٣٧/٢ ) ، الذهبي ، تأريخ الاسلام ( ٥٤/١ ) . البغدادي ، خزانـة ( ٩٩/٣ ) .
٣ المصدر نفسه .
٤ الاشتقاق (٨٤) ، ارشاد الساري ( ١٧١/٦ وما بعدها ) .
٥ الاشتقاق (٨٤) ، وورد :

أرباً واحـدا أم ألـف رب  أدين اذا تقسمت الامـور
عزلت اللآت والعزى جميعـا  كذلك يعقل الجلد الصبور
فـلا عـزى أديـن ولا ابنتيهـا  ولا صنمي بني عمـرو أزور

عليـــه وسلّم ، ومعه زيد بن حارثة ، وهما يأكلان من سُفرة لهما ، فدعواه لطعامهما ، فقال زيد بن عمرو: يا ابن أخي : أنا لا آكل مما ذبح على النصب»[1].

وورد خبر التقاء ( زيد ) مع رسول الله في رواية أخرى . يرجع رواتهـــا سندها الى ( زيد بن حارثة ) . يذكرون أنه قال : خرجت مع رسول الله في يوم حار من أيام مكة ، وهو مردفي ، فلقينا زيد بن عمرو بن نفيل ، فحيـــا كل منا صاحبه . فقال النبي : يا زيد مالي أرى قومك قد شنقوك ؟ فأجابـــه زيد ، بأنه لا يهتم بذلك ، وأنه خرج يبتغي دين الله ، حتى قدم على أحبـــار خيبر ، فوجدهم يعبدون الله ويشركون به . ثم سأل أحد الأحبار ، وهو شيخ منهم عن الدين الذي يبتغيه، فقال له : ما نعلم أحد يعبد الله به إلا شيخاً بالحيرة، فخرج اليه . فلما كلمه قال له : إن الذي تطلب قد ظهر ببلادك قد بعث نبيّ، قد طلع نجمه . فعاد الى مكة[2] . ولو صح هذا الخبر لوجب أن يكون زيد قد أدرك مبعث الرسول . ولكن أهـــل الأخبار مجمعون على أنه توفي قبل المبعث . وان الرسول نفسه قـــال عنه : يبعث يوم القيامة أمة واحدة . وعلى الخبر سيماء الصنعة والتزويق .

وروي عنه ان قومه كانوا اذا دعوه الى وليمة ، كان يأبى ان يأكل منها قائلاً : « اني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه »[3] . وهكذا كان يقاطع أكل لحوم الحيوانات التي تذبـــح للأصنام . ويشاركه في الامتناع عن أكل لحوم هذه الذبائح الأحناف الآخرون ، فقد روي ان ورقة بن نوفل كان لا يأكل من لحوم هذه الذبائح أيضاً للسبب المذكور[4] .

ويذكر أهل الأخبار ان ( زيد بن عمرو بن نفيل ) كان اذا خلص الى البيت استقبله ثم قال : لبيك حقاً حقاً ، تعبداً ورقاً ، البر أرجو لا الخال ، وهـــل مهجر لمن قال . ثم يقول :

عذت بما عاذ به ابراهيم  مستقبل الكعبة وهو قائم[5]

---

١ البداية ( ٢/٢٣٨ ، ٢٤٠ ) .
٢ أسد الغابة ( ٢/٢٣١ ) .
٣ البخاري ( ٥/٥٠ ) .
٤ الاغاني ( ٣/١١٩ ) .
٥ الاغاني ( ٣/١١٧ ) .

أو « لبيك حقاً ، تعبداً ورقاً ، عذت بما عاذ به ابراهيم »[1] .

وذكر انه كان يأمر بالتوحيد وبعبادة إلـه واحد . من ذلك قوله :

لا تعبدنّ إلهاً غير خالقكم وإن دعيتم فقولوا دونه حدد[2]

وزُعم انه كان يراقب الشمس ، فإذا زالت استقبل الكعبة ، فصلى وسجد سجدتين ، ثم يقول : هذه قبلة ابراهيم واسماعيل لا أعبد حجراً ولا أصلّي له ولا آكل ما ذبح له ، ولا أستقسم بالأزلام ، وانما أصلّي لهذا البيت حتى أموت . وكان يحج فيقف بعرفة ، وكان يلبي ، فيقول : لبيك لا شريك لك، ولا ندّ لك . ثم يدفع من عرفة ماشياً ، وهو يقول : لبيك متعبداً مرقوقاً[3] .

ويروي أهل الأخبار أقوالاً أخرى لزيد ، كما رووا له أشعاراً زعموا أنه قالها ، وهي في هذه الأمور التي ينسبونها الى الأحناف من ذكر لديانة ابراهيم وللتوحيد ومن ذمّ الى الأصنام ومن اصلاح لحال مجتمع ذلك اليوم[4] . كما رووا له أبياتاً من شعر زعموا أنه نظمه يعاتب فيه زوجته ( صفية بنت الحضرمي ) ، لأنها كانت تمانع في خروجه عن مكة وفي سفره الى الخارج التماساً لهذا الدين[5] .

وتفيد رواية من روايات أهل الأخبار بأن ( زيد بن عمرو بن نفيل ) ، كان في جملة من اشترك في ( حرب الفجار ) ، تقول إنه كان على رأس ( بني عدي) وذلك في يوم شمطة[6] .

وروي أن رسول الله سئل عن ( زيد بن عمرو ) ، فقال : « يبعث أمة وحده يوم القيامة »[7] . بل روي أنه ترحم عليه ، وأنه قال : « رأيته في الجنة يسحب ذيولاً »[8] .

---

١ الاغاني ( ٢/٢٣٨ ) .
٢ تاج العروس ( ٢/٣٣١ ) ، ( حدد ) .
٣ البداية ( ٢/٢٣٩ ) .
٤ الاغاني ( ٣/١١٧ ) .
٥ ابن هشام ، سيرة ( ١/٢٤٧ ) .
٦ البلاذري ، انساب ( ١/١٠٢ ) .
٧ البخاري ( ٥/٥٠ ) ، المعارف (٢٧) ، البغدادي ، خزانة ( ٣/١٠٠ ) .
٨ ابن سعد ، طبقات ( ٣/٢٧٣ ) .

وينسب أهل الأخبار لزيد شعراً، هومن هذا الشعر الذي ينسبونه الى الأحناف، ذي الطابع الديني، من بحث عن توحيد، وحث على عبادة إلّه واحد، واقرار بحساب وكتاب. وأمثال ذلك[1]. وقد نسب بعض منه الى (أمية بن أبي الصلت)، ونسب بعض منه الى شعراء آخرين. كما ان الرواة يروون هذا الشعر بقراءات مختلفة.

ومن ولد زيد رجل كان له سبق وقدم في الاسلام، هو سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل. كان من السابقين الأولين ومن المهاجرين، شهد المشاهد والأحداث المهمة، إلا بدراً، فإنه لم يكن حاضراً بالمدينة إذ ذاك. وهو أحد العشرة المبشرة. ذكر انه أسلم قبل دخول رسول الله دار الأرقم. ولا بد ان يكون لرأي والده في دين قومه وما أبداه من ثورة صريحة جامحة على عقائدهم أثر في نشوء هذا الابن وفي اقدامه مع السابقين على الدخول في الاسلام، بعد ان كان والده قد سبق إسلامه برحيله الى الآخرة بسنين. وأمه ( فاطمة بنت بعجة بن أمية بن خويلد بن خالد بن اليعمر ) من خزاعة. ولسعيد أخت اسمها عاتكة بنت زيد[2].

وذكر ( ابن هشام ) ان زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، اتفقوا في الرأي والعقيدة، وتعاهدوا على نبذ عبادة قومهم وما كانوا عليه من ضلال، وتصادقوا، وكوّنوا عصبة خرجت على عبادة قريش، فلم يشتركوا معهم في أعيادهم، ولم يشاركوهم في عبادتهم، وظلوا حتى ماتوا عن عبادة قومهم صابئين[3].

أما عبيد الله بن جحش بن رئاب بن أسد بن عبد العزى بن قصي، فقد بقي مرتاباً في دين قومه، بعيداً عنهم وعن عبادتهم، حتى اذا ظهر الإسلام دخل فيه، ثم هاجر مع من هاجر الى الحبشة، ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان، وكانت مسلمة كذلك. فلما صار في الحبشة، فارق الإسلام

---

١ البداية ( ٢/٢٤١ وما بعدها ).

٢ كتاب نسب قريش (٣٦٥)، الاستيعاب ( ٤/٣٦٥ )، الاصابة ( ٢/٤٤ )، ( رقم ٣٢٦١ ).

٣ ابن هشام ( ١/٢٤٢ ) « طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد »، المحبر ( ١٧١، ١٧٥، ٢٣٧ )، الروض الانف ( ١/١٤٥ ).

وتنصر ، وهلك هناك[1] .

وأما عثمان بن الحويرث ، فقد بقي مغاضباً قومه في دينهم ، ثم رأى الذهاب الى الروم ، فذهب اليهم ، وتقرب الى قيصر ، وحسنت منزلته عنده ، وتنصر ومنحه لقب ( بطريق ) ، وأراد تنصيبه ملكاً على مكة ، ولكن قومه أبوا عليه ذلك ، فلم يتمّ له مراده ، ومات بالشأم مسموماً ، سمّه عمرو بن جفنة الغساني[2].

وذكر ( الزبيري ) ، أن والدة ( عثمان بن الحويرث ) ، هي ( تماضر بنت عمير بن أهيب بن حذافة بن جمح )[3] . وأنه خرج الى ( قيصر فسأله أن يملّكه على قريش ، وقال : أحملهم على دينك ، فيدخلون في طاعتك ، ففعل . وكتب له عهداً وختمه بالذهب ، فهابت قريش قيصر ، وهمّوا أن يدينوا له ، ثم قام الأسود بن المطلب أبو زمعة ، فصاح ، والناس في الطواف : إن قريشاً لقاح، لا تملك ولا تملك . فاتسعت قريش عـلى كلامه ، ومنعوا عثمان مما جاء له ، فمات عند ابن جفنة ، فاتهمت بنو أسد ابن جفنة بقتله »[3] . وكان ابن جفنـة حبس أبا ذئب عنده ، وأبا أحيحة بسبب عثمان بن الحويرث[4] . ويقصدون بابن جفنة : عمرو بن جفنة الغساني[5] .

وتذكر احدى الروايات ، ان وفاة ( عثمان بن الحويرث ) كانت بالشأم ، وقد مات عند قيصر ، وكانت وفاته قبل المبعث بثلاثين سنة ، أو نحوها . وقد رثاه ( زيد بن عمرو بن نفيل )[6] ، وورقة بن نوفل[7] .

ويعد ( عثمان بن الحويرث ) من أشراف ( بني أسد ) من قريش[8] . وقد كان مع ( خويلد بن أسد ) على رأس ( بني أسد ) في ( حرب الفجار )[9] .

---

١ ابن هشام ( ١/٢٤٣ ) ، المحبر ٧٦ ، ٨٨ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ) ، البداية ( ٢/٢٤٣ ) .
L. Krehl, Das Leben Muhammad, S. 14.

٢ ابن هشام ( ١/٢٤٣ ) ، الاشتقاق ( ص ٥٩ ) ، المحبر ( ١٦٥ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٥ ، ٣٠٧ ) ، الروض الانف ( ١/١٤٦ ) .

٣ كتاب نسب قريش ( ٢٠٩ وما بعدها ) ، وذكر صاحب « المحبر » أن أمه مـن الحبشيات (٣٠٧) .

٤ كتاب نسب قريش (٢١٠) .

٥ جمهرة ابن حزم (١٩٠) .

٦ البداية ( ٢/٢٤٣ ) .

٧ كتاب نسب قريش (٢١٠) .

٨ المحبـر (١٦٥) .

٩ المحبـر (١٧٠) .

وكان ينادمه ( شيبة بن ربيعة بن عبد شمس) . وقد تنصرا جميعاً ، وقتل شيبة يوم بدر كافراً[1] .

وأما ( أمية بن أبي الصلت ) ، فهو أحسن الحنفاء حظاً في بقاء الذكر ، بقي كثيراً من شعره ، وربما وضع كثير منه على لسانه ، وحفظ قسط لا بأس به من أخباره . وسبب ذلك بقاؤه الى ما بعد البعث ، واتصاله بتأريخ النبوة والاسلام اتصالاً مباشراً وملاءمة شعره بوجه عام لروح الاسلام . لم يكن مسلماً ولم يرض أن يدخل في الإسلام ، لأنه كان يأمل أن تكون النبوة فيه ، وأن ينزل الوحي عليه ، فيكون نبي العرب والعالم أجمعين . فلما رأى النبوة في الرسول، حسده ، وأثار المشركين عليه ، ورثى قتلاهم في معركة بدر ، وحرض قريشاً عليه ، حتى مات على حسده وعناده سنة تسع للهجرة بالطائف قبل أن يسلم قومه الثقفيون . لم يمت مسلماً ، ولم يمت على دين الوثنيين من قومه : بل مات كافراً بالديانتين[2] .

وقد جاء في بعض الروايات ، ان وفاة ( أمية ) ، كانت في السنة الثانية من الهجرة[3] . وورد في روايات أخرى أنه توفي سنة تسع للهجرة ، كافراً قبل أن يسلم الثقفيون[4] .

ورثاؤه قتلى معركة بدر ، محفوظ في قصيدة حائية ، مطلعها :

ألا بكيت على الكرا م بني الكرام أولى المادح
كبكا الحمام على فرو ع الأيك في الغصن الصوادح

---

١ المحبر (١٧٥) .

٢ الاغاني ( ٤/١٢٠ وما بعدها ) ، « طبعة دار الكتب المصرية » ، ابن هشام ( ١/١١، ٤٨ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٨ ) ، ( ٢/١٦٠ ، ٣٢١ ، ٤٠١ ، ٤٠٦ ) ، ( ٣/٦٥ ) « طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد » ، شرح السيرة النبوية ، لابي ذر بن محمد بن مسعود الخشني ( ١/٢٣ ، ٢٤ ) ، « تحقيق بولس بروفله » نسب قريش (٩٨) ، جمهرة الانساب (٢٥٧) ، ابن قتيبة ، الشعراء (٤٢٩) ، شعراء النصرانية ( ٢/٢١٩ وما بعدها ) ، الاغاني ( ١٦/٦٩ ) ، الحيوان للجاحظ ( ٢/٣٢٠ ) ، خزانة الادب ( ١/١١٩ ) ، الشعر والسعراء (١٧٦) ، النووي ، تهذيب الاسماء ( ١/١٢٦ ) ، Ency. IV, p. 997.

٣ تاريخ الخميس ( ١/٤١٢ ) ، الاغاني ( ٤/١٢٤ ، ١٢٩ ) ، الشعر والشعراء ( ١/٣٦٩ ) .

٤ الاصابة ( ١/١٣٤ ) ، ( رقم ٥٥٢ ) .

وهي قصيدة يتوجع فيها أمية لسقوط قتلى المشركين ، ودفنهم بالقليب،وفيهم ( عتبة ) و ( شيبة ) ابنا ( ربيعة بن عبد شمس ) ، وهما ابنا خالة أميـــة . وقد ذكر بعض الرواة ان الذي حمله على قول هذا الشعر ، هو انه لما وصل الى القليب موضع مدفن قتلى قريش في بدر ، وكان ذاهباً الى المدينة يريد الدخول في الاسلام ، قال له بعض من كان معه من غلاظ الأكباد من المشركين : هل تدري ما في هذا القليب ؟ قال : لا . قيل : فيه شيبة وربيعة وفلان وفلان . فجدع أنف ناقته ، وشق ثوبه ، وبكى ، وعاد الى الطائف[1] .

وذكر ان أمية نال في بيتين من هذه القصيـــدة من أصحاب رسول الله ، ولذلك أهملها ( ابن هشام ) صاحب السيرة[2] . وذكر أيضاً ان النبي نهى عن روايتها[3] . ولكن الرواة رووها وحفظوها ودوّنوها في الكتب ، فكيف تجرؤوا على حفظها وتدوينها لو صح ان النبي نهى عن روايتها على نحو ما يزعمه أهـل الأخبار .

وأميّة مثل سائر المتألهين الآخرين من طبقة الحنفاء ، سافر الى الشام ، واتصل بأهلها ، وأوى الى الأديرة ورجال الدين يسأل منهم عما يهمه من مشكلات دينية وعما كان يجول في خاطره من عبادة قومه وحقيقة العالم . وكان تاجراً ، يذهب مع التجار في قوافلهم الى تلك الـــديار التي كانت في أيدي الروم . ثم إنه كان على ما يظهر من الروايات الـــتي وردت في ترجمته وسيرته قارئاً كاتباً ، قرأ الكتب ، ووقف عليها ، ومنها ومن اتصاله برجال الدين وبأهل الكتاب تكونت عنده فكرته عن الدين،وشكّه في عبادة قومه وفيما كانوا عليه من عقائد وعبادات. وقد بدا هذا التأثر في الكلمات والمصطلحات الأعجمية والغريبة المستعملة في شعره وفي الأمثلة والقصص المنتزع من الكتابين : للعهد القديم والعهد الجديد ومن موارد

---

١ ابن هشام ( ٢/٤٠١ وما بعدها ) ، راجع القصيدة في ( ص ٢٠ ) من ديوان أمية ، بيروت ١٩٣٤ ، بلوغ الارب ( ٢/٢٥٦ ) ، خزانة الادب ( ١/١١٩ ) ، الحيوان ، للجاحظ ( ٢/٣٢٠ ) ، الشعر والشعراء (١٧٦) ، البيان والتبيين ( ١/٢٩١ ) ، المسعودي ، مروج (١/٧٣) » محمد محيي الدين عبد الحميد « « ١٩٥٨ م » ، الاغاني ( ٣/١١٩ وما بعدها ) ، خزانة الادب ( ٢/٣٩ وما بعدها ) ، الاغاني ( ٤/ ١٢٢ ) ، الاصابة ( ١/١٣٤ ) ، ( رقم ٥٥٢ ) .

٢ ابن هشام ( ٢/٤٠٥ ) .

٣ الاغاني ( ٤/١٢٣ ) « ذكر أمية بن أبي الصلت ونسبه وخبره » ، بروكلمان ، تاريخ الادب العربي ( ١/١١٣ ) .

أخرى عديدة من الموارد الشائعة المستعملة عند أهل الكتاب [1] .

وقد ورد في بعض الأخبار ان امية سافر مرة مع أبي سفيان والد معاوية في تجارة الى بلاد الشأم ، فكـان كلما نزل منزلاً أخذ فيه سفراً له يقرأه على من معه ، كما كان يزور علماء النصارى ويتباحث معهم ، وكان يلبس ثوبين أسودين حينما يقابلهم [2] . ولم تذكر الرواية شيئاً عن السفر أو الأسفار التي كان يقرأ منها أمية ويشرحها لمن معـه من التجار . وتذكر رواية أخرى انه كان قـد بلغ مع ( أبي سفيان ) غزة أو ( ايلياء ) [3] .

ولأمية في هذا اليوم ديوان ضم أكثر ما نسب اليه من شعر . كما ان في بطون كتب الأدب والأخبار أشعاراً أخرى لم يرد لها ذكـر في هذا الديوان . ومعظم شعره هو عن الدين والآخرة وعن الجنة والنار والحساب والكتاب ، وقد تضمن إشارات الى حوادث وقعت في ايامه ، أو في ايام قريبة من ايامه مثل قصة الفيل، كما تضمن بعض قصص الأنبياء ، ولتعرض شعره الى هذه النواحي نعت بشاعر الآخرة [4] .

ومما ذكره الأخباريون ورواة شعر أمية من أمثلة على استعماله للكلم الغريب ، انه استعمل ( الساهور ) للقمر ، وهي كلمـة لا تعرفها العرب ، وانه ذكـر ( السلطيط ) ، اسماً لله تعالى . وانه أطلق كلمـة ( التغرور ) على الله تعالى في موضع آخر من شعره ، وانه سمّى السماء (صاقورة) و ( حاقورة ) وانه استعمل أشياء أخرى من هذا القبيل . ولولعه هذا باستعمال الغريب ، رفض علماء اللغـة الاحتجاج بشعره [5] .

---

١ الاغاني ( ٤/١٢١ وما بعدها ) « طبعة دار الكتب المصرية » ، « وكان يحكي فـي شعره قصص الانبياء ، ويأتي بالفاظ كثيرة لا تعرفها العرب ، يأخذها من الكتب المتقدمة ، أو بأحاديث من أحاديث أهل الكتاب » الشعر والشعراء ( ١/٣٦٩ ) .

٢ البداية والنهاية ، لابن كثير ( ٢/٢٢٠ ) ، الاغاني ( ٤/١٢٣ وما بعدها ) ، ( دار الكتب المصرية ) .

٣ البداية والنهاية ( ٢/٢٢٤ ) .

٤ تاريخ الادب العربي ، لبروكلمن ( ١/١١٣ ) « الترجمة العربية » ، عيون الاخبار ، لابن قتيبة ( ٦/٣٧٤ ) ، الحيوان ( ٧/٣٢١ ) « عبد السلام محمد هارون » ، البيان والتبيين ( ١/٢٩١ ) .

٥ الاغاني ( ٤/١٢١ وما بعدها ) ، شعراء النصرانية ( ٢/٢١٩ ) ، ديوان أميـة فحول الشعراء ، « جمع بشير يموت » « بيروت ١٩٣٤ م » ( ص ٥ وما بعدها ) ، سيرة ابن هشام ( ١/٤٨ ) .

والساهور ، كلمة آرامية الأصل من أصل (سهرو) Sahro ، بمعنى القمر ، أي تماماً بالمعنى الوارد في شعر أمية[1] .

وهذا الشعر المنسوب الى أميـــة وغريبه خاصة مادة مهمة جداً تجب دراستها بعناية ، لمعرفة مبلغ صحة ما جاء في أخبار الرواة عن هذه الكلمات وعن أصولها ومواردها الأولى ، إن صح انها من أشعار تلك الأيام حقـــاً ، إذ ترشدنا أمثال هذه الدراسات الى معرفة المنابع التي استقى منها هذا الشاعر علمه وإلهامه ومدى تأثره وتأثر أمثاله من الجاهليين بالآراء والتيارات الفكرية التي كانت في مكة وفي خارج جزيرة العرب قبيل الاسلام .

وقد روى الأخباريون قصصاً عن التقاء أمية بالرهبان ، وعن توسمهم معـــالم النبوة فيه ، فكانوا يسألونه أسئلة تستخرج من أجوبتها في نظرهم معالم النبوة . فلما كانوا يقفون على الأجوبة ، يقولون له : كادت النبوة تكون فيه ، لولا بعض النقص في علاماتها عنده ، كما رووا قصصاً عن شق طيرين لقلب هذا الشاعر ، لتنظيفه ، وتهيئة النبوة فيه . ولكنهما عندما وقفا عليه لم يجدا أن النبوة خلقت له[2]. وقد حاكى أهل الأخبار في قصصهم هذا ما رواه رجال السير عن علامات النبوة عند الرسول[3] . كذلك رووا أنه كان يتفرس في لغات الحيوانات ، فيعرف مـــا تقوله وما تريده ويقصه على الناس وانه كان يسخر الجنّ ، وكانت تطيعه ، وأنه تنبأ بموته حينما نعب عليه الغراب[4] . فجعلوه بأخبارهم هذه في مرتبة تضاهي سليمان في علمه بمنطق الطير وبقية الحيوانات[5] . وذكر ( ابن دريـد ) : « كان بعض العلماء يقول له لولا النبي صلى الله عليه وسلم ، لادعت ثقيف أن أمية نبي ، لأنه قد دارس النصارى وقرأ معهم ، ودارس اليهود وكلّ الكتب قرأ »[6] .

وتشبه قصة تنظيف الطيرين لقلب أمية ، وهي القصة التي أشرت اليها قبـــل

---

١ غرائب اللغة العربية ( ص ١٨٩ ) .

٢ الاغاني ( ٤/١٢٣ وما بعدها ) ، شعراء النصرانية ، الجزء الثاني ( ص ٢١٩ ) . ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء ( ٢٢٠ وما بعدها ) « دار المعارف » .

٣ Sprenger, Leben, I, S. 119, M. cl. Huart, Le Livre de la Création et de L'histoire, I, pp. 55, 153, 155, 156, 190, 191, 195.

٤ البداية والنهاية ( ٢/٢٢٧ وما بعدها ) .

٥ النمل ، الآية ١٥ وما بعدها .

٦ الاشتقاق ( ص ١٨٤ ) .

قليل ، خبر ( حليمة السعدية ) مرضعة الرسول لصدر النبي . ورواة قصة شق صدر أمية وتنظيف قلبه هم من أهل الطائف ، ويرجعون سند قصتهم الى أخت أمية المسماة ( الفارعة ) ، « وكانت ذات لُبّ وعقل وجمال ، وكـــان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم بها معجباً »[1] ، وقد وفدت عليه ، فلما سألها عن شعر أخيها كما يقول الرواة ، قصت عليه قصة الطيرين ، كما قصت عليه قصة وفاته، فقال رسول الله : « ان مثل أخيك كمثل الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها »[2] .

ويشير القصص الوارد عن التقاء ( أمية ) بالأحبار وبالرهبان وباتصاله بهم ، الى أن امية كان يرجو ان يكون نبياً ، وأنه كان يعتقد بقرب ظهور نبي وتأمله أن يكون هو ذلك النبي المرتجى :

ألا نبيّ منـــا فيخـــبرنا ما بعد غايتنا من رأس مجرانا [3]

وقد كسف وتألم كثيراً وأكل الحسد قلبه ، حين فلت الأمر منـه ، اذ سمع بإعلان الرسول رسالته ، ودعوة الناس الى دين الله ، الذي كان أمية نفسه يدعو اليه . وقد ورد أنه لما سمع بنبوة الرسول قال : « إنما كنت أرجو ان اكونه»[4].

ويروي أهل الأخبار أن امية كان قد مات وهو معتقد بأن الحنيفيـــة حق إذ رووا أنه قال في مرض موته ، « قد دنا أجلي ، وهذه المرضة فيهـا منيتي وأنا أعلم ان الحنيفية حق ، ولكن الشك يداخلني في محمد . وقال : لا برىء فأعتذر ولا قوي فأنتصر » .

وفي جملة ما رووه عنه ، انه عرف مجيء يومه من نعيب غراب ، نعب على مقربة منه . فحدث القوم بما سمعه من الغراب ، وكان يعرف منطقه ، وقال لهم

---

١ البداية والنهاية ( ٢/٢٢٤ وما بعدها ) .

٢ البداية والنهاية ( ٢/٢٢٤ وما بعدها ) ، تهذيب ابن عساكر ( ٣/١٢٧ ) ، مروج ( ١/٥٧ وما بعدها ) ، الطبرسي ، مجمع ( ٧/٦٣ وما بعدها ) ، الطبري ، تفسير ( ٩/١٢١ ) « طبعة البابي » ، تفسير ابن كثير ( ٢/٢٦٤ ) ، شرح الشهاب عـــلى البيضاوي ( ٤/٢٣٦ ) .

٣ البداية والنهاية ( ٢/٢٢٧ ) تهذيب ابن عساكر ( ٣/١٢٧ ) ، تأريخ الخميس ، ( ١/٤١٢ ) .

٤ الاغاني ( ٤/١٢٣ وما بعدها ) .

انه سيموت وذكر علامة ذلك ، فكان ان مات على نحو ما قال للقوم[1] . وذكر أيضاً انه لما كان على فراش الموت محتضراً أفاق عدة مرات ، وكان يتلو في كل مرة : « لبيكما لبيكما ، ها أنذا لديكما » ، ثم يتلو هذا الكلام بكلام آخر فيه توسل وتضرع الى الإلـه ، الى ان أفاق للمرة الأخيرة ، فقال شعراً بيّن فيه ان الموت أمر لا بد منه ، وانه هالك في هذه المرة لا محالة ، ثم هلك ، دون ان يؤمن بالرسول[2] .

وهذا القصص الوارد عن أمية ، هو – بالطبـع – من القصص المصنوع الموضوع ، مثل كثير من أخباره وأخبار غيره ، قص على ذوي القلوب الطيبة من الرواة والأخباريين ، فأخذوه ونقلوه كما نقلوا مـا شاء الله من الاسرائيليات والأساطير ، وروي على انه مما كان يعلمه الأحبار والرهبان والخاصة من أهـل الكتاب .

ولا أستبعد ان يكون هذا القصص قد ظهر في ايام الحجـاج عصبية وتقرباً اليه ، فقد كان الحجاج من ثقيف ، وكان أمية من ثقيف كذلك . وقد أنتج الوضاعون في ايامه شيئاً كثيراً من الأخبـار في قبيلة ثقيف ، كما أنتجوا شيئاً في ذمها وفي ذم رجالها نكاية به .

وقد يكون في قول ( الحجّاج ) حين سئل عن شعر أمية ، شيء من التوجع والتألم أو المبالغة في تقديره حين قال : « ذهب قوم يعرفون شعر أمية ، وكذلك اندراسُ الكلام » . وقد يكون كلام الحجاج غير ذلك ، لو كان أمية من قبيلة أخرى .

ونحن نستطيع ادخال قول من قال عن ( أمية ) « قيل انه كان نبياً »[3] في جملة هذه الدعاوى التي وضعت في هذا العهد ، للرفع من شأن ( ثقيف ) ومن الرد على المتهجمين عليها الطاعنين حتى في نسبها الذين جعلوا ( ثقيفاً ) من بقية ( ثمود ) ، وأيدوا قولهم هـذا بحديث زعموا ان الرسول قاله : « ثقيف من

---

١ البداية والنهاية ( ٢/٢٢٧ ) .
٢ الاغاني ( ٤/١٢٥ وما بعدها ) ، ابن سلام ، طبقات فحول ( ص ٢٢٠ وما بعدها )، الاصابة ( ١/١٣٤ ) ، ( رقم ٥٥٢ ) .
٣ تهذيب ابن عساكر ( ٣/١١٥ ) .

ثمود »[1] ، وجعلوه من عبد لأبي رغال ، وأبو رغال نفسه الذي نسب عبده اليه ، أي جد ثقيف ، هو في نظر العرب وقريش خاصة سبّة[2] .

ويذكرون عنه انه بعد ان صبأ عن قومه وتحنف ، لبس المسوح على زي المترهبين الزاهدين في هذه الدنيا ، ورافق الكتب ونظر فيها ، ليستلهم منها العلم والحكمة والرأي الصحيح ، ثم حرّم الخمر على نفسه مثل بقية المتألهين ، وتجنب الأصنام ، وصام ، والتمس الدين ، وذكر ابراهيم واسماعيل ، وانه كان أول من أشاع بين قريش افتتاح الكتب والمعاهدات والمراسلات بجملة : «باسمك اللهم» ، وهي الجملة التي نسخت في الاسلام بجملة : « بسم الله الرحمن الرحيم »[3] .

ويذكر أهل الأخبار ان امية أخذ جملة : « باسمك اللهم » من شيخ كان منطوياً على نفسه في برية نائية ، وذلك حينما ألح عليه قوم كانوا معه من قريش في عير لهم ، كانت قد نفرت ، بأن يجد طريقة لطرد حيّة كانت تظهر بين ابلهم فتنفرها ، فذهب الى ذلك الشيخ واستشاره في طريقة تبعد عنهم أذى تلك الحيّة ، فأشار عليه باستعمال تلك الجملة ، فهربت الحيّة ونفرت منهم ، وقد كان سبب ظهور تلك الحيّة كما يذكر أهل الأخبار ، هو أن رجلاً من القوم هو : (حرب بن أمية بن عبد شمس ) كان قد قتل حيّة فقررت زميلتها الانتقام من قتلتها ، فقتلته الجن انتقاماً منه بثأر تلك الحيّة . وهربت الجن عند سماعها تلك الجملة . وإليه أشير كما يقول أهل الأخبار بقولهم :

وقبر حرب بمكان قفر  وليس قرب قبر حرب قبر

فحرب هذا المذكور في هذا البيت ، هو حرب بن أمية ، وأما الشيخ فكان رجلاً من الجن[4] .

---

١ الاغاني ( ٣٠٧/٤ ) « دار الكتب » .
٢ الاغاني ( ٣٠٢/٤ ) « دار الكتب » .
٣ المسعودي ، مروج ( ٥٧/١ وما بعدها ) ، ديوان ، أمية « المقدمة » لبشير يموت « بيروت ١٩٣٤ » ، ابن خلدون ( ١٧٧/١ وما بعدها ) ، ( بيروت ١٩٦١ م ) ، التنبيه والاشراف (٣٥٩) ، ( مكتبة الخياط ) .
٤ الحيوان للدميري ( ١٩٥/٢ ) ، الاغاني ( ١٢٢/٤ وما بعدها ) ، ( دار الكتب المصرية ) .

ويُذكر أنه لم يكن يرتضي من الأديان غير دين الحنيفية ديناً . وأنه قال ذلك في شعر له :

كل دين يوم القيامة عند الله ، إلاّ دين الحنيفية ، زور[1]

وأنه كان يعظم الله في شعره ويكبره ويحمده ، ويرى أنه إلـه واحد لا شريك له ، وأن من يشرك به أحداً فقد ظلم نفسه :

الحمـــد لله لا شريك له  من لم يقلها فنفسه ظلما[2]

وهناك من يروي أن ( النابغة الجعدي )، كان يدعي أن هذا البيت وما بعده هو من نظمه . قال ذلك أمام ( الحسن بن علي بن أبي طالب )[3] .

ويروى ان النبي كان يسمع شعر أمية ، وان ( الشريد بن سويد ) ( الشريد ابن عمرو ) الثقفي ، كان ينشد له شيئاً منه ، في اثناء أحد أسفاره . فكان كلما أنشد له شيئاً منه ، طلب منه المزيد ، حتى اذا ما أنشده مئة بيت ، قال النبي له : كاد ليسلم ، أو كاد ليسلم في شعره . وذكر ان الرسول قال في حديث له عنه : آمن شعره وكفر قلبه ، أو آمن لسانه وكفر قلبه[4] . وانه لما سمع شعره في الدين والحنيفية ومطلعه :

الحمد لله ممسانا ومصبحنا  بالخير صبحنا ربي ومسّانا

قال : « إن كاد أمية ليسلم »[5] .

---

١ الاغاني ( ٣/١١٢ ) ، البغدادي ، خزانة الادب ( ٢/٣٩ ) ، شيخو ، شعـــراء النصرانية ، الجزء الثـــاني ( ص ٢١٩ ) ، ابن هشام ، الســـيرة ( ١/٤٠ ) ، ( ٢/٩٨٢ ) ، الاغاني ( ٤/١٢٣ ) « دار الكتب » ، الاصابة ( ١/١٣٠ ) « مطبعـة السعادة » .

٢ المسعودي ، مروج ( ١/٧٠ ) .

٣ طبقات ابن سلام ( ١٠٦ وما بعدها ) ، الاغاني ( ٥/١٠ ) .

٤ صحيح مسلم « كتاب الشعر » ، ( ٧/٤٨ ) « طبعة محمد علي صبيح » ، طبقات ابن سعد : ( ٥/٣٧٦ ) ، « الشريد بن سويد » « الرشيد بن سويد » ، بلـــوغ الارب ( ٢/٢٥٣ وما بعدها ) ، المعارف ، لابن قتيبة (٢٨) ، المزهر ( ٢/٣٠٩ ) ، خزانة الادب ( ١/٢٢٧ ) ، ابن سعد ( ٥/٣٧٦ ) ، الشعر والشعراء ( ١/٣٦٩ ) ، الاصابة ( ١/١٣٤ ) ، ( رقم ٥٥٢ ) .

٥ الاغاني ( ٤/١٣٢ وما بعدها ) « دار الثقافة » ، شرح الشهاب على البيضـــاوي ( ٤/٢٣٦ ) ، تفسير ابن كثير ( ٢/٢٦٤ ) ، ديوان المعاني ، لابي هلال العسكري ( ١/٢٦ ) .

وروي عن ( ابن عباس ) ، ان الرسول لما سمع شعر ( أمية ) :

زحل وثور تحت رجل يمينه والنسر للأخرى وليث مرصد[1]

قال : صدق أمية .

وفي رواية أنه : « كان قد قرأ الكتب القديمة ، وعلم أن الله تعالى مرسل رسولاً ، فرجا أن يكون هو ذلك الرسول ، فاتفق أن خرج الى البحرين ، وتنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقام هناك ثماني سنين . ثم قدم ، فلقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في جماعة من أصحابة ، فدعاه الى الاسلام ، وقرأ عليه سورة يس ، حتى اذا فرغ منها ، وثب أمية يجر رجليه ، فتبعته قريش تقول : ما تقول يا أمية ؟ فقال : أشهد انه على الحق . قالوا : فهل نتبعه ؟ قال : حتى انظر في امره . فخرج الى الشام ، وقدم بعد وقعة بدر يريد أن يسلم ، فلما أخبر بها ، ترك الاسلام . وقال : لو كان نبياً ما قتل ذوي قرابته فذهب الى الطائف ومات »[2] .

وفي هذه الرواية المنسوبة الى الزهري ، عن سماع أمية بن أبي الصلت بنبوة النبي وهو في البحرين ، ثم مجيئه الى مكة والتقائه بالرسول ومحاجته له في ظل الكعبة ، ثم انكسافه وتراجعه وذهابه الى الشام ، ثم عودته منها [3] ، تكلف ظاهر ، وفي تفاصيلها ما يناقض بعضه بعضاً .

وورد في رواية أخرى ، ان أمية بن أبي الصلت قدم المدينة فقال للنبي : ما هذا الذي جئت به ؟ فقال الرسول : الحنيفية دين ابراهيم . قال : فأنا عليها . فقال عليه الصلاة والسلام لست عليها ولكنك أدخلت فيها ما ليس منها . فقال : أمات الله تعالى الكاذب منا طريداً وحيداً ، ثم خرج الى الشأم ، وأرسل الى المنافقين أن استعدوا للسلاح . ثم أتى قيصر ، وطلب منه جنداً ، ليخرج النبي

---

١ الاصابة ( ١/١٢٩ ) ، الاصابة ( ١/١٣٤ ) ، ( رقم ٥٥٢ ) . ( القاهرة ١٩٣٩ م ) .

٢ روح المعاني ( ٩/١١٢ وما بعدها ) ، تاريخ الخميس ، للدياربكري ( ١/٤١٢ ) ، مجمع البيان في تفسير القرآن ، للطبرسي ( ٧/٦٣ وما بعدها ) ، ( بيروت ١٩٥٧ م ) .

٣ راجع البداية والنهاية ( ٢/٢٢٠ ) .

من المدينة ، فمات بالشأم طريداً وحيداً . وهي قصة ينسب وقوعها الى ( أبي عامر ) الراهب ، كما سبق أن تحدثت عن ذلك[1] .

وتخالف هذه الرواية الروايات المألوفة الواردة الينا عن وفاة (أمية) بالطائف . وتزعم احدى الروايات ، ان أمية كان قد أخذ ابنتيه وهرب بهما الى أقصى اليمن ، وذلك حين بعث النبي . ثم عاد الى الطائف ، فبينما هو يشرب مع اخوان له في قصر بالطائف ، إذ سقط غراب على شرفة في القصر فنعب، وأدرك أمية انه ميت ، لأنه عرف منطق الغراب ، وحدّث القوم بذلك في قصة مفصلة تجدها في الكتب ثم مات[2] . وقصة الشرب هذه تناقض ما يذكر عنه أهل الأخبار من انه كان لا يقترب من الخمر ، ومن انه كان قد حرمها على نفسه، شأنه في ذلك شأن بقية الأحناف . كذلك يناقض خبر تحريمه الخمر على نفسه،خبر آخر ، خلاصته انه كان يشرب يوماً مع عبدالله بن جدعان ، فأخذ الشراب برأس ( ابن جدعان ) ، وأصاب عين أمية ، فلما كان اليوم الثاني وجلس أيضاً للشرب معه ، سأل ( عبدالله ) أمية عن سبب الألم البادي على عينه ، فلما أخبره بأنه كان هو سببه ، ترك ( ابن جدعان ) الخمر استحياء مما فعله وقال شعراً في سبب تركه الخمر . ويقول أهل الأخبار : « ما مات أحد من كبراء قريش في الجاهلية ، إلا ترك الخمر استحياء مما فيه من الدنس »[3] .

وتؤيد قصة ذهاب ( أمية ) الى اليمن وسكنه أمداً هناك قصة ينتهي سندها بـ ( أبي سفيان ) ، خلاصتها انه كان قد ذهب في ركب من قريش الى اليمن في تجارة ، فمرّ بأمية ، وقال له كالمستهزىء به : يا أمية قد خرج النبي الذي كنت تنعته ؟ فأجابه أمية : اما انه حق فاتبعه . وقال له قولاً يتنبأ فيه بمصير أبي سفيان وكيف سيؤتى به الى الرسول ، فيحكم فيه كما يريد[4] . ففي هذه القصة توكيد بخروج أمية الى اليمن حين بعث الرسول وبمكوثه زماناً هناك .

وذكر أنه الشخص الذي نزلت في حقه الآية : « واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه

---

١ روح المعاني ( ١١١/٩ ) ، تفسير الطبرسي ( ٥٠٠/٣ ) ، ( طبعة طهران ) .
٢ الاغاني ( ١٣٠/٤ وما بعدها ) ، الاصابة ( ١٢٩/١ ) .
٣ الاغاني ( ٣٣٢/٨ ) .
٤ البداية والنهاية ( ٢٢٤/٢ ) .

آياتنا ، فانسلخ منها »[1] . وهي آية قيل أيضاً إنها نزلت في ( بلعام بن باعور ) ( بلعم بن ابر ) ، ( بلعام بن باعرا ) ، أو في زوج البسوس ، أو في ( النعمان ابن صيفي الراهب )[2] .

وأمية كأكثر الشعراء له شعر في المدح وله تعريض . وأكثر مدحه في ( ابن جدعان ) من أجواد العرب المعروفين المشهورين في الجاهلية[3] . وهو في المدح او في الرثاء او في كل مناسبة اخرى ، مستعمل لكلمات ذات صلة بالدين وبالأفكار الدينية ولمصطلحات لا ترد إلا نادراً في الأشعار المنسوبة الى الشعراء الجاهليين ، مما يدل على غلبة التفكير الديني عليه ، وتأثير ما قرأه او أخذه من غير العرب فيه. سئل الأصمعي عن شعر أمية ، فقال : « ذهب أمية في شعره بعامة ذكر الآخرة وذهب عنترة بعامة ذكر الحرب،وذهب عمر بن أبي ربيعة بعامة ذكر الشباب »[4].

ووالد ( أمية ) ، هو ( عبدالله بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي ) او ( ربيعة ابن وهب بن علاج بن أبي سلمة ) الثقفي على رواية ( الزبيري )[5] . أما امه فهي ( رقيّة بنت عبد شمس بن عبد مناف ) . وقد كان والده شاعراً . ذكر انه مدح ( سيف بن ذي يزن )[6] .

ومن الرواة من ينسب القصيدة التي تنسب الى والد أمية ، والتي هي في مدح ( سيف بن ذي يزن ) ، الى امية نفسه . وفي هذه القصيدة إشارة الى ذهاب ( سيف بن ذي يزن ) الى هرقل ، فلما لم يجد منه أية مساعدة أو اهتمام ، عافه ، وذهب الى كسرى ، حيث وجد منه مساعدة ، فجاءت اليه بعد سنين

---

١ الاعراف ، الآية ١٧٥ ، الاغاني ( ٤/١٢٥ وما بعدها ) « بيروت » ، تفسير الطبري ( ٩/٨٢ وما بعدها ) .

٢ روح المعاني ( ٩/١١١ ) ، تفسير الطبرسي ( ٣/٤٩٩ وما بعدها ) .

٣ المحبر ( ص ١٣٨ ) ، ديوان أمية بن أبي الصلت : تحقيق « فريدرش شولتس » (Friedrich Schulthetz) ، المطبوع بمدينة « لايبزك » سنة ١٩١١ ، وكذلك ديوانه المطبوع ببيروت سنة ١٩٣٤ م . جمع بشير يموت ، التبريزي ، شرح ديوان الحماسة ( ٤/١٤٥ ) ، الاغاني ( ٨/٣٢٧ ) ، تهذيب ابن عساكر ( ٣/١٢٣ ) ، ابن هشام ، ( ٣/١٤١ ) .

٤ الاصابة ( ١/١٢٩ ) ، الاغاني ( ٤/١٣٠ وما بعدها ) .

٥ نسب قريش (٩٨) .

٦ الاغاني ( ٤/١٢٠ وما بعدها ) ، الشعر والشعراء ( ١/٣٦٩ ) ، ( بيروت ) ، تهذيب ابن عساكر ( ٣/١١٥ ) ، اليعقوبي ( ١/٢٢ ) ، الاغاني ( ٤/١٢٠ وما بعدها ) ، الازرقي ، تأريخ مكة ( ١/٩٣ ) ، جمهرة الانساب (٢٥٧) .

من تعب ومواظبة [1] .

وينسب الى أمية شعر ، ذكر انه افتخر فيه بـ ( نزار ) وبـ ( معـــد ) . وبقبيلة ( إياد ) ، حيث نعتهم بـ ( قومي إياد ) [2] .

ويتلخص ما جاء في شعر هذا الشاعر من عقائد وآراء في الاعتقاد بوجود إلـه واحد ، خلق الكون وسوّاه وعدله ، وأرسى الجبال على الأرض، وأنبت النبات فيها ، وهو الذي يحيي ويميت،ثم يبعث الناس بعد الموت ويحاسبهم على أعمالهم ، وليجازيهم بما كسبت أيديهم ، فريق في الجنة وفريق في النار ، يساق المجرمون عراة الى ذات المقامع والنكال مكبلين بالسلاسل الطويلة وبالأغلال ، ثم يلقى بهم في النار يصلونها يوم الدين ، يبقون فيها معذبين بهـــا ، ليسوا بميتين ، لأن في الموت راحة لهم ، بل قضى الله ان يمكثوا فيها خالدين أبداً [3] .

أما المتقون ، فإنهم بدار صدق ناعمون تحت الظلال ، لهم ما يشتهون ، فيها عسل ولبن وخمر وقمح ورطب وتفاح ورمان وتين وماء بارد عذب سليم ، وفيها كل ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين ، وحور لا يرين الشمس فيها ، نواعم في الأرائك قاصرات ، على سرر ترى متقابلات ، عليهم سندس وجيـــاد رَيْط وديباج ، حلّوا بأساور من لجين ومن ذهب وعسجد كريم ، لا لغـو فيها ولا تأثيم ، ولا غول ولا فيها مُليم ، وكأس لا تصدع شاربيها ، يلذّ بحسن رؤيتها النديم ، تحتهم نمارق من دمقس ، فلا أحد يرى فيهم سئيم .

وللوقوف على آراء ( أمية ) ، وعلى معتقداته الدينية يجب الرجوع بالطبع الى أشعاره وما نسب اليه من كلام . ففي هذا التراث الذي تغلب عليه النزعة الدينية والحكمية ، تتمثل آراء ذلك الشاعر الجاهلي الذي أدرك أوائل المبعث ، وهي آراء قريبة جداً من الاسلام ، وبعضها يكاد يكون قولاً اسلاميـــاً في لفظه وفي معناه مسبوكاً في شعر . وفي هذا الشعر قصص الرسل والأنبيـــاء : آدم ونوح وقصة

---

١ كتاب التيجان ، لوهب ، (٣٠٧) ، الشعراء والشعراء ، لابن قتيبه ( ٣٦٩/١ ) ، بروكلمان ( ١١٤/١ ) ، Schultheso Orient. Studien, I, 73.

٢ الاغاني ( ١٢٠/٤ ) ، ( ٣٢٧/٨ وما بعدها ) ، شعراء النصرانية ( ٢٣٤/٢ ) .

٣ وسيق المجرمون وهم عراة الى ذات المقامع والنكال
ديوان أمية (٤٩) .
جهنم تلك لا تبقى بغيا وعدن لا يطالعها رجيم
ديوان أمية (٥٣) ، ( بشير يموت ) .

طوفانه ، والغراب والحمامة [1] ، وقصة ذي القرنين وبلقيس وحكايـة الهدهد [2] ، وقصة ابراهيم وتقديم ابنه للذبح،وداوود ، وفرعون ، وموسى ، وابن عـاد [3] . وعيسى وأمه مريم وكيفية حملها به ، فوصف ذلك بانياً وصفه على نحو ما جاء في القرآن الكريم عن تكوّن عيسى ، مضيفاً الى ذلك زيادات في حديث مـريم مع الملائكة وجواب الملائكة لها [4] . كما أورد في الشعر قصة (لوط أخي سدوم) [5] . وهي من القصص المذكور في التوراة ، وأشياء أخرى عديدة من هذا القبيل [6] .

وفي أكثر مـا نسب الى هذا الشاعر من آراء ومعتقدات دينية ووصف ليوم القيامة والجنة والنار ، تشابه كبير وتطابق في الرأي جملة وتفصيلاً لما ورد عنها في القرآن الكريم . بل نجـد في شعر أمية استخداماً لألفاظ وتراكيب واردة في كتاب الله وفي الحديث النبوي ، فكيف وقع ذلك ؟ وكيف حدث هذا التشابه؟ هل حدث ذلك على سبيل الاتفاق او ان امية اخذ مادته من القرآن الكريم ، او كان العكس ، اي ان القرآن الكريم هو الذي أخذ من شعر امية فظهرت الأفكار والألفاظ التي استعملها امية في آيات الله وسوره ؟ فكتاب الله اذن هـو صدى وترديد لآراء ذلك الشاعر المتأله ، او ان هذا التشابه مردّه شيء آخر هـو تشابه الدعوتين واتفاقهما في العقيـدة والرأي ، او اعتماد الاثنين على مورد أقدم ، هما الكتابان المقدسان : التوراة والانجيل ، ومـا لهما من شروح وتفاسير ، او كتب او موارد عربية قديمة كانت معروفة ثم بادت وبقي أثرهـا في القرآن الكريم وفي شعر أمية بن ابي الصلت ، او ان كـل شيء من هذا الذي نذكره ونفترضه

---

١ جزى الله الاجـل المـرء نـوحـا جزاء البر ليس له كذاب
ديوان أمية ( ١٨ وما بعدها ، ٥٨ ) ، ( بشير يموت ) الحيوان ، للجاحـظ ( ٢/ ١١٧ ) ، البدء والتاريخ ( ١/٢٤ ) .

٢ قد كان ذو القرنين قبلـي مسلمـا ملكا علا في الارض غير معبد
من قبلـه بلقيس كانـت عمتـي حتى تقضى ملكها بالهدهد
ديوان أمية ( ص ٢٦ ) ، ( بشير يموت ) .

٣ حي داوود وابـن عـاد وموسى وقريع بنيانـه بالثقال
انني زارد الحديـد عـلى النـا س دروعا سوابغ الاذيال
ديوان أمية ( ٥٠ وما بعدها ) ، ( بشير يموت ) .

٤ وفي دينكم من رب مريـم آيـة منبئة بالعبـد عيسى بن مريم
ديوان أمية ( ٥٨ ) ، ( بشير يموت ) .

٥ ثم لـوط أخـو سدوم أتاهـا اذ أتاها برشدها وهداها
ديوان أمية (٦٩) ، ( بشير يموت ) .

٦ راجع التوراة ، ومادة (Lot) في معجمات التوراة .

افتراضاً لم يقع ، وان ما وقع ونشاهده ، سببه ان هذا الشعر وضع على لسان امية في الاسلام ، وان واضعيه حاكوا في ذلك ما جاء في القرآن الكريم فحدث لهذا السبب هذا التشابه .

أما الاحتمال الأول ، وهو فرض أخذ امية من القرآن ، فهو احتمال إن قلنا بجوازه ووقوعه ، وجب حصر هذا الجواز في مدة معينة ، وفي فترة محدودة تبتدىء بمبعث الرسول ، وتنتهي في السنة التاسعة من الهجرة ، وهي سنة وفاة أمية بن أبي الصلت . اما ما قبل المبعث ، فلا يمكن بالطبع ان يكون امية قد اقتبس من القرآن ، لأنه لم يكن منزلاً يومئذ ، وأما ما بعد السنة التاسعة ، فلا يمكن أن يكون قد اقتبس منه أيضاً ، لأنه لم يكن حياً ، فلم يشهد بقية الوحي. ولن يكون هذا الفرض مقبولاً معقولاً في هذه الحالة ،إلا اذا أثبتنا بصورة جازمة ان شعر اميـة الموافق لمبادىء الاسلام ولما جاء في القرآن قد نظم في هذه المدة المذكورة ، اي بين المبعث والسنة التاسعة من الهجرة ، وأن امية كان يتتبع نزول الوحي ، ويجمعه،وانه كان يملك نسخة مما نزل على الرسول ، رجع اليها واقتبس منها ، وإلا سقط العرض . فإذا أثبتنا ذلك وثبتنا تأريخ نظم هذا الشعر، أمكنت المقابلة عندئذ بين شعر أميّة وما جاء في معناه وفي موضوعه من آيات نزلت بين ابتداء نزول الوحي على الرسول وبين السنة التاسعة ، أما الآيات التي نزلت بعد هذه السنة ، فلا تكون شاهداً على أخذ أميّة منها : لأنه كان قد توفي في السنة التاسعة ، فلا يقع هذا الافتراض .

ولكن من في استطاعته تثبيت تواريخ شعر أمية وتعيينه ، وتعيين أوقات نظمه؟ إن في استطاعتنا تعيين بعضه من مثل الشعر الذي قاله في مدح عبدالله بن جُدعان او معركة بدر . ولكننا لا نستطيع أن نفعل ذلك بالغالبية منه ، وهي غالبيـة لم يتطرق الرواة الى ذكر المناسبات التي قيلت فيهـا . ثم إن بعض هذا الكثير مدسوس عليه ، مروي لغيره ، وبعضه إسلامي ، فيه مصطلحات لم تعرف إلاّ في الإسلام ، فليس من الممكن الحكم على آراء أمية الممثلة في شعره هـذا بهذه الطريقة . ثم إن أحداً من الرواة لم يذكر ان امية كان ينتحل معاني القرآن الكريم، وينسبها الى نفسه . ولو كان قد فعل ، لما سكت المسلمون عن ذلك ، ولكان الرسول أول الفاضحين له .

بقي لدينا افتراض آخر . هو أخذ القرآن الكريم من أميـــة . وهو افتراض ليس من الممكن تصوره ، فعلى قائله اثبات أن شعر أمية في هذا الباب هو أقدم عهداً من القرآن الكريم ، وتلك قضية لا يمكن اثباتها أبـداً . ثم إن قريشاً ومن لف لفها ممن عارض الرسول لو كانوا يعلمون ذلك ويعرفونه ، لما سكتوا عنه ، ولقالوا له انك تأخذ من أمية ، كما قالوا له : انك تتعلم من غلام نصراني كان مقيماً بمكة ، واليه اشير في القرآن الكريم بقوله : « ولقد نعلم انهم يقولون : انما يعلمه بشر ، لسانُ الذي يلحدون اليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين »[1]. ولقد أشار المفسرون الى اسم الغلام ، كما سأتحدث عن ذلك في الفصل الخاص بالنصرانية عند العرب قبل الاسلام ، ولم يشيروا الى أمية بن أبـي الصلت[2] . ثم إن أمية نفسه لو كان يعلم ذلك او يظن ان محمداً انما اخذ منه ، لما سكت عنه وهو خصم له ، منافس عنيد ، أراد ان تكون النبوة له ، وإذا بها عند شخص آخر ينزل الوحي عليه ، ثم يتبعه الناس فيؤمنون بدعوته . أما هو فلا يتبعه أحد. هل يعقل سكوت أمية لو كان قد وجد اي ظن وإن كان بعيداً يفيد ان الرسول قد اخذ فكرة منه ، او من المورد الذي اخذ أميـــة نفسه منه ؟ لو كان شَعَر بذلك ، لنادى به حتماً ، ولأعلن للناس انه هو ومحمد أخذا من منبع واحد ، وان محمداً أخذ منه ، فليس له من الدعوة شيء ، ولكانت قريش وثقيف اول القائلين بهذا القول والمنادين به .

نعم ، لقد ورد في الحديث ، كما قلت قبل قليل ، ان الشريد بن سويد كان قد أنشد الرسول شعر أمية ، وانه كان كلما أنشده شيئاً منه طلب منـه المزيد ، حتى إذا ما أنشده مئة بيت ، قال له الرسول : آمن شعره وكفـــر قلبه ، او آمن لسانه وكفر قلبه ، ولكننا هنا بحاجة الى تثبيت تأريخ هذا الإنشاد ، وإثبات صحة الرواية وتدقيق رجال السند ، لاثبات ان ما أنشد لم يكن قد نزل في مثله الوحي .

وممن ذهب الى افتراض أخذ الرسول من أمية من المستشرقين ( كليمان هوار ) و ( بور ) Power . زعم ( بور ) انه حيث يوجد تشابه بين شعر أمية والقرآن

---

١ النحل ، الآية ١٠٣ .
٢ سيرة ابن هشام ( ١/٤٢٠ ) .

الكريم ، فإن ذلك يدل على ان الرسول أخذ من ( أمية ) ، لأن أمية أقدم من الرسول[1] . وهذا الافتراض مقبول كما لو أثبتنا ان هذا النظم شعر أصيل صحيح، وانه نظم قبل نزول مشابهه في القرآن الكريم ، وانه لم يضف اليه في الاسلام . فإن أثبتنا انه له ، جاز لها مثل هذا الادعاء .

وأما الرأي الثالث – وأعني به رأي من يرجع التشابه بين شعر امية وما ورد من مثل معانيه في القرآن الكريم الى أخذ الاثنين من التوراة والانجيل وتفاسيرهما، والى بعض ( الصحف ) و ( المجلات ) التي أشير الى وجودها عند العرب – فهو رأي قديم ، وليس بجديد . رأي قيل عن الوحي كله ، لا عن القرآن وشعر امية او غير امية ، قبل ان يخلق المستشرقون بأكثر من ١٣٠٠ سنة ، فقد زُعم « ان النبي يتعلم من غلام نصراني اسمه جبر !! » . وقد أشير الى هذا الزعم في كتاب الله ، وجاء الرد عليه في قوله تعالى : « ولقد نعلم أنهم يقولون ، إنما يعلمه بشر ، لسان الذي يلحدون اليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين » . فلم يُخْفِ القرآن الكريم ذلك الطعن والمغمز ، ولم يتجاهل المفسرون اسم من قيل إنه كان يعلمه ، فذكروا جبراً هذا ، وكان غلاماً مقيماً بمكة ، وقال بعضهم بل هو رجل رومي اسمه غير ذلك .

ولو كان الرسول وأمية قد أخذا من منهل واحد ، واستقيا من مورد واحد، لما سكتت قريش عن القول به ، ولما سكت أمية نفسه وهو الغاضب الحاقد على الرسول عن الجهر به . وكيف يعقل سكوته عن هذا ، وهو أمر مهم جداً بالنسبة اليه . وسيف يحارب به الإسلام؟ولما سكت مسيلمة ومن كان على شاكلته من المتنبئين من الإشارة اليه في أثناء حروب الردّة ، وقد كانت فرصة سانحة لإظهار هذه المقالة . ولما سكت ( يوحنا الدمشقي ) وأمثاله من التلميح الى ذلك، وقد لمح بأمور كثيرة في طعنه على الإسلام .

ثم إنّ هذ التشابه ، على ما يتبين من نقده وتمحيصه ، ليس من نوع ما يحصل عن أخذ شخصين مستقلين من مورد معين ، إنما هو من قبيل ما يحدث من اعتماد أحد الشخصين على الآخر ، بدليل ورود أمور في القرآن الكريم ،

---

١ ديوان أمية ( ص ٧ ) ، « المقدمة الالمانية » « بحقيق فردرش شولثيس » ، بروكلمن Cl. Huart, JA. X, Vol., IV, 1904, p. 125. • ( ١١٣/١ )

لم ترد في التوراة ولا في الانجيل ، ولكنها وردت في شعر امية ، وبدليل ورود أكثر قصص الأنبياء والآراء والمعتقدات في شعر أمية على شكل إسلامي ، لا على النحو الوارد عنـد أهل الكتاب . واستعمال هـذا الشعر لجمل وألفاظ وتراكيب اسلامية واردة في القرآن الكريم وفي الحديث لا في الكتب السماوية المذكورة . فلو كان مردّ هذا التشابه الأخذ من مورد واحد ، لوجب انحصار هـذا التشابه في الأمور المشتركة التي ترد في الكتب المقدسة : التوراة والانجيـل والقرآن ، وفي شعر أمية حسب ، لا في المسائل التي ترد في شعر أمية وفي القرآن الكريم ، ولا ترد في الكتابين المقدسين أو في الكتب الأخرى .

ثم إن المقابلة بين نصين لمعرفة صلة احدهما بالآخر،وأخذ احدهما من الآخر ، تستوجب التأكد من صحـة نسبة هذا الشعر الى أمية . ففـي هذا الشعر مقدار لا يمكن ان يشك في وضعه وصنعه ، ومقدار نص العلماء نصاً على انه لغيره ، وهم انما ذكروه في شعـر أمية ، لأن بعض اهل الأخبار نسبه اليـه . ولذلك استدركوا هذا الخبر ، بالاشارة الى اسم قائله الصحيح . فلم يبق من هذا الشعر ما يصلح للمقابلة غير القليل منه ، وهو القليل الذي له صلة بعقيدة ودين . وهذا القليل هو ، في الغالب ايضاً ، تبع لما ورد في القـرآن وحده ، لا لما ورد في الكتابين المقدسين . ولما كان القرآن محفوظاً ثابتاً ، فلم يرتق اليه الشك . اما شعر أمية ، فليس كذلك ، وهو غير معروف من حيث تعيين تأريخ النظم . فهـذه المقابلة إن جازت ، فانها تكون حجة على القائلين بالـرأي المذكور ، لا لهم . وقد كان عليهم ان يثبتوا أولاً اثباتاً قاطعاً صحة رأيهم في أصالة هـذا الشعر ، لا ان يفترضوا مقدماً انه شعر أصيل صحيح ، وان يذهبوا رأساً الى انـه هو والقرآن الكريم من وقت واحد ، بل انه على حد قول بعضهم أقدم منه ، فكتاب الله منتزع منه .

وممن قال باحتمال أخذ القرآن وأمية من مورد مشترك واحد، (فردرش شولثيس) Friedrich Schulthetz ناشر ديوان أمية. وقد زعم أيضاً احتمال أخذ أمية من بعض آيات الله التي كانت مُنزلة يومئذ ، ونظمها في شعره . استند في زعمه القائـل باقتباس الرسول من مورد مشترك الى ورود بعض كلمات في القـرآن الكريم وفي الحديث وفي كتب السير ، يفهم منها على زعمه ان الرسول كان قارئاً كاتبـاً ، ولكنه لم يشترط في هذه المؤلفات كونها الإنجيل والتوراة ، بل ذهب الى انهـا

( مجلة ) و ( صحيفة ) ، تتضمن أحاديث وتفاسير وقصصاً دينياً قديماً[1] . أما دليله ، فافتراض واحتمال ، وليس له غير هذين . ولا يقوم علم إلا على دليل ملموس .

أما أنا ، فأرى ان مردّ هذا التشابه والاتفاق الى الصنعة والافتعال . لقد كان أمية شاعراً ، ما في ذلك شك ، لاجماع الرواة على القول به . وقد كان ثائراً على قومه ، ناقماً عليهم ، لتعبدهم للأوثان . وقد كان على شيء من التوحيد والمعرفة باليهودية والنصرانية ، ولكني لا أظن أنه كان واقفاً على كل التفاصيل المذكورة في القرآن وفي الحديث من العرش والكرسي وعن الله وملائكته وعن القيامة والجنة والنار والحساب والثواب والعقاب ونحو ذلك . إن هذا الذي أذكره شيء إسلامي خالص،لم ترد تفاصيله عند اليهود ولا النصارى ، ولا عند الأحناف. فوروده في شعر أمية وبالكلمات والتعابير الاسلامية ، هو عمل جماعة فعلته في عهد الإسلام : وضعته على لسانه ، كما وضعوا أو وضع غيرهم على ألسنة غيره من الشعراء والخطباء ، لاعتقادها أن ذلك مما يفيد الاسلام ، ويثبت أن جماعة من الجاهليين كانوا عليه،وأنه لم يكن لذلك غريباً ، وأن هؤلاء كانوا يعلمون الغيب، يعلمون بقرب ظهور نبيّ عربي ، وأنهم لذلك بشروا به ، وأنهم كانوا يتمنون لو عادوا فولدوا في أيامه ، أو لو طال بهم العمر حتى يدركوه فيسلموا،وأمثال ذلك من قصص راج وانتشر ، كما راج أمثاله في كل دين من الأديان .

ولا بد وأن يكون هذا الوضع قد صنع في القرن الأول للإسلام ، لأن أهل الأخبار القدامى يذكرون بعض هذا الشعر[2] . وقد يكون قد وضع أكثره في عهد الحجاج تقرباً اليه ، لأنه من ثقيف ، وفي ذلك العهد وضع الوضّاع أخباراً كثيرة في الغض من شأن قوم الحجاج ، نكاية بـه فتقدم قوم آخرون اليه بالرفع من شأنها وبإضافة ذلك الشعر الى أمية وغيره ، ليكون رداً على كارهي ومبغضي الحجاج .

وتتبين آية الوضع في شعر أمية في عدم اتساقه وفي اختلاف أسلوبه وروحه .

---

١ Ency., IV, p. 998, Tar Andrae, Die Entstehung des Islams und das Christentums, upsale, 1926, S. 48.

٢ بروكلمان ( ١/١١٣ ) .

فبينما نجد شعره المنسوب اليه في المدح أو في الرثاء أو في الأغراض الأخرى مما ليس لها صلة مباشرة بالدين ، في ديباجة جاهلية على نسق الشعر المنسوب الى شعراء الجاهلية ، نجد القسم الديني منه والحكمي في أسلوب بعيد عن هذا الأسلوب ، بعيد عن الأساليب المعروفة عن الجاهليين ، أسلوب يجعله قريباً من شعر الفقهاء والصوفيين المتزمتين ، ونسّاك النصارى ، فهو بعيد جداً من أسلوب الجاهليين ، حتى أسلوب مثل ( عدي بن زيد ) العبادي والأعشى وبقية من نسب الى النصرانية من شعراء الجاهلية القريبين من الاسلام[1] . يضاف الى ذلك ما ذكره الرواة وأهل الأخبار من نسبة بعض ذلك الشعر إلى غيره من الشعراء .

وقد يقال إن أسلوب (أمية) في نظم الشعر الديني والحكمي ، هو أسلوب صحيح لا يمكن إلا ان يكون على هذا الحال ، هو أسلوب بعيد عن أسلوب الجاهليين في النظم ، لأن الشعر الجاهلي المعروف نظم في أغراض أخرى لا صلة لها بالحكم وبالدين ، وما جاء منه إلينا في الحكم وفي الدين هو على أسلوب آخر أيضاً ، بدليل ان بعض الشعراء منهم حين نظموا في الحكم ، رق شعرهم وبان عن نظمهم المألوف . وبدليل ان نظم ( حسان بن ثابت ) في الاسلام ، هو دون نظمه في الجاهلية من حيث الجزالة والفخامة في النظم ، وان شعر ( لبيد ) في الاسلام ، هو دون ما نظمه في الجاهلية ، بسبب تغير الظروف واختلاف الموضوع . وهو اعتذار صحيح ، ولكن أسلوب أمية في تعبيره عن الجنة والنار والبعث والحساب ، أسلوب آخر ، لا يفصح عن عقلية دينية جاهلية ، وانما عن عقلية إسلامية . ومن هنا جاء شكنا في صحة هذا الشعر وفي أصالته ، وليس من أسلوب النظم .

ولكن من الذي وضع هذا الشعر ، ثم أنكره على نفسه وأسنده إلى أمية ؟ ومن الذي رصع شعر أمية بأبيات من وزنه وقافيته ، ولكنها أبيات إسلامية ؟ ومن كان أول من جمع شعر ذلك الشاعر في ديوان نسبه اليه ؟ هذه أسئلة يجب أن توجد لها أجوبة ، ولكن أجوبتها كتاب يؤلف في حياة هذا الشاعر وفي شعره وديوانه ، عندئذ يكون هناك مجال للتنقيب عن هذه الأمور ، رُوي ان الحجّاج قال ، وهو على المنبر : « ذهب قوم يعرفون شعر أمية »[2] . فهل ذهب العالمون

---

١ Ency., IV, p. 998.

٢ الاغاني ( ٤/١٢٣ ) .

به حقاً قبل ايام الحجاج ؟ وهل كان شعره ضخماً واسعـاً ؟ أو هو قول من أقوال الحجاج ، وهو ثقفي من قوم أمية ، أو هو قول وزعم من زعم الرواة . وما أكثر مزاعم الرواة وحملة الأخبار .

وأثر الوضع على بعض شعر أمية واضح ظاهر لا يحتاج الى دليل ، وهو وضع يثبت أن صاحبه لم يكن يتقن صنعة الوضع جيداً . فالقصيدة التي مطلعها :

لك الحمد والمن ربّ العبا د أنت المليك وأنت الحكمْ

هي قصيدة إسلامية ، لا يمكن أبداً أن تكون من نظم شاعرٍ لم يؤمن بالإسلام إيماناً عميقاً من كل قلبه ولسانه . خذ هذا البيت منها مثلاً :

محمـداً أرسله بالهـدى فعـاش غنيـاً ولم يُهتضم

ثم خذ الأبيات التالية له وفيها :

عطـاء من الله أعطيتـه وخصّ به الله أهـلَ الحرم
وقـد علموا انـه خيرهم وفي بيتهم ذي الندى والكرم
يَعيبون ما قال لما دعـا وقد فرج الله احدى البُهَمْ
به وهو يدعو بصدق الحديـ ـث الى الله من قبل زيغ القدم
أطيعوا الرسول عبـادَ الإلـ ـه تنجون من شرّ يومٍ ألم
تنجون من ظلـمات العذاب ومن حر نارٍ على من ظلم
دعانـا النبيّ به خـاتم فمن لم يُجِبْهُ أسر النـدم
نبي هدىً صـادق طيب رحيم رؤوف بوصل الرحم
بـه ختم الله من قبلـه ومن بعـده من نبي ختم
يموت كما مات من قد مضى يردّ الى الله بـاري النسم
مع الأنبياء في جنان الخلود هُمُ أهلها غير حلّ القسم
وقدس فينـا بحب الصلاة جميعاً وعلّم خط القـلم
كتابـاً من اللهِ نقرأ بـه فمن يعتريه فقدمـاً أثم

اقرأ هذه المنظومة ، ثم احكم على صاحبها ، هل تستطيع ان تقول انه كان

شاعراً مغاضباً للرسول ، وإنه مات كافراً ، وان صاحبها رثى كفار قريش في معركة بدر وأنه قال ما قال في الإسلام وفي الرسول ؟ اللهم ، لا يمكن أن يقال ذلك أبداً فصاحب هذا النظم رجل مؤمن عميق الايمان ، هو واعظ مبشر ، يخاطب قومه فيدعوهم الى الاسلام والى طاعة الله والرسول . إنه مؤمن قلباً ولساناً ، مع أنهم يذكرون أن الرسول قال فيه : آمن شعره وكفر قلبه ، أو آمن لسانه وكفر قلبه ، وإنه مات وهو على كفره وعناده وحسده للرسول ، ثم إن صاحب المنظومة رجل يتحدث عن وفاة الرسول ، مع أن أمية ، كان قد توفي في السنة التاسعة من الهجرة ، فهل يعقل أن يكون إذن هو صاحبها وناظمها ؟

أليست هذه المنظومة وأمثالها إذن دليلاً على وجود أيد لصناع الشعر ومنتجيه في شعر أمية . نحمد الله على أن صنّاعها لم يتقنوا صنعتها ، ففضحوا أنفسهم بها ، ودلّوا على مقاتل النظم .

ثم خذ قصيدة أخرى من القصائد المنسوبة لأمية ، وهي في وصف الجنة والنار استهلت بهذا البيت :

جهنم تلك لا تبقي بغيّاً وعدنٌ لا يطالعها رجيمُ

ثم استمر في قراءتها ، وفي ما جاء فيها من وصف للجنة والنار ، ثم انعم النظر في هذه الأبيات :

فذا عسل وذا لبن وخمرٌ وقمح في منابته صريمُ
ونخل ساقط الأكتاف عد خلالَ أصوله رطب قيمُ
وتفاح ورمان وموز وماء بارد عذب سليم
وفيها لحم ساهرة وبحر وما فاهوا به لهُمُ مقيم
وحورٌ لا يرين الشمس فيها على صور الدمى فيها سهوم
نواعم في الأرائك قاصرات فهنّ عقائل وهُمُ قروم
على سررٍ ترى متقابلات ألا ، ثَمَّ النضارةُ والنعيمُ
عليهم سندس وجياد رَيطٍ وديباج يُرى فيها قتوم
وحُلّوا من أساور من لُجينٍ ومن ذهب . وعسجده كريم
ولا لَغْوٌ ولا تأثيم فيها ولا غولٌ ولا فيها مُليمُ

وكأس لا تصدع شاربيها  يلذّ بحسن رؤيتها النديم
تصفّق في صحافٍ من لجينٍ  ومن ذهب مباركة رذوم[1]

ثم احكم بعد ذلك على صاحب هذه الأبيات. لقد حاول ناظمها ادخال بعض الكلمات الجاهلية فيها ، لإلباسها ثوباً جاهلياً ، ولاظهارها بمظهر الشعر الجاهلي الأصيل ، ولكنه لم يتمكن من ذلك ، بل صيرها في الواقع نظماً لوصف الجنة والنار في الاسلام. وما بي حاجة الى ان أحيلك على الآيات التي أخذ منها صاحب هذا الشعر وصفه من القرآن الكريم .

ومن الغريب ان بعض الأخباريين اتخذ هذا النظم وأمثاله حجة لتبيان عقائد الجاهليين ، فذكر مثلاً ان العرب في جاهليتها كانت تؤمن بالجزاء ، وان منهم من نظر في الكتب وكان مقرّاً بالجنة والنار. وحجته في ذلك هذه المنظومة المنسوبة الى أمية[2] . وقد نسي ان ما قاله على سبيل التعميم او التغليب ، يناقض ما جاء في القرآن الكريم وما أورده الأخباريون عن الجاهليين .

ثم خذ قصيدته في عيسى بن مريم وحمل أمه به[3] ، وسائر قصائده الأخرى ، تجد عليها هذه المسحة الاسلامية بارزة ظاهرة ، ولكن هذا لا يمنع مع ذلك من القول بوجود أبيات قد تكون من نظم أمية حقاً ، في هذا المنظوم الديني ، غير ان هذا الموجود ، هو على كل حال مما لا يتعارض مع عقائد الاسلام . ومن الممكن ادراكه بدراسة ألفاظه وأسلوبه وأفكاره، وبهذه الطريقة نتمكن من استخلاص الأصيل من شعره من الهجين .

ولأمية بن أبي الصلت أخت ، اسمها ( فارعة )[4] . قدمت على النبي بعد فتح الطائف . وكانت ذات لبّ وعفاف وجمال، وكان يعجب بها . وقال لها يوماً: هل تحفظين من شعر أخيك شيئاً ؟ فأخبرته خبره وقصت قصته في شق جوفه

---

١ تجد اختلافا في كلمات هذه القصيدة وأبياتها ، وكذلك في قصائد هذا الشاعر الاخرى ، فارجع في ذلك الى طبعات ديوانه والى كتب الادب لمعرفة مواضع الاختلاف: كتاب البدء والتأريخ ( ٢٠٢/١ وما بعدها ) ، ديوان أمية « طبعة بشير يموت » ، ( ص ٥٣ ) ، ديوان أمية ( ص ٥١ وما بعدها ) ، « طبعة فريدرش شولثيس » .

٢ كتاب البدء والتأريخ ( ٢٠٢/١ ) ، ( طبعة كليمان هوار ) ، « النص العربي » .

٣ ديوان أمية ( ص ٥٨ ) ، « طبعة بشير يموت » .

٤ اللسان ( ٧٩٢/١ ) ، ( وثب ) .

واخراج قلبه وردّه مكانه وهو نائم وأنشدته شعره[1] ، على ما يزعمه أهل الأخبار.

وذكر أهل الأخبار أسماء أربعة بنين لأمية ، هم : القاسم ، ووهب ، وعمرو ( عمر ) ، وربيعة . فأما ( القاسم ) ، فكان شاعراً ، وله مرثية في عثمان بن عفّان[2] . وأسلم ( وهب بن أمية ) كذلك . وذكر أن رجلاً من ثقيف مات في عهد النبي عن غير ولد ، فاختصموا في ميراثه ، فأعطى النبي ميراثه لوهب[3]. وأما ( ربيعة ) ، فأسلم كذلك ، وله شعر[4] . وقد ذكر أهل الأخبار أن (حقة) بنت ( وهب بن أمية بن أبي الصلت ) ، تزوجت (عبدالله بن صفوان الأكبر) ، فولدت له صفوان بن عبدالله بن صفوان[5] . وذكر أن ( ربيعة ) ، قد ولي بعض الوظائف في الإسلام . وأنه صاحب ( ربيعتان ) ، نهر بقرب الابلة . وأن من ولده ( كلدة بن ربيعة ) ، وكان شريفاً شاعراً . وقد ذكر أن بغلاً قتل ( ربيعة ) على باب دار ( عبدالله بن عباس )[6] .

وكل ما يعرف عن سويد بن عامر المصطلقي أنه كان على دين الحنيفية وملة ابراهيم ، وأنه قال شعراً ، وصلت منه بضعة أبيات في ( المنايا ) وفي المقدر على الإنسان ، وان المنايا محتومة لا مفرّ منها ، وأن الخير والشر مكتوبان على النواصي ، وليس لامرىء يدٌ فيما يصيبه من مقدور . فهي في هذه المشكلة المعضلة التي شغلت بال الإنسان ولا تزال تشغله مشكلة : ( الجبر والاختيار ) ، أو ( القدر ) ، المشكلة التي احتلت منزلة الصدارة في ( علم الكلام ) . والتي صارت من أهم موضوعات الجدل في الاسلام . ويقال انها أنشدت للرسول ، فلما سمعها ، قال : « لو أدركته لأسلم »[7] .

وأما ورقة بن نوفل ، فهو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، يلتحم نسبه بنسب الرسول في جد جده . ذكروا انه ساح على شاكلة من شك في

---

١ الاصابة ( ٣٦٣/٤ ) ، ( رقم ٨٢٤ ) .
٢ الاصابة ( ٢١٣/٣ ) ، ( رقم ٧٠٥٢ ) .
٣ الاصابة ( ٦٠٤/٣ ) ، ( رقم ٩١٥٧ ) .
٤ الاصابة ( ٤٩٣/١ ) ، ( رقم ٢٥٩٠ ) .
٥ الاصابة ( ٦٠٤/٣ ) ، ( رقم ٩١٥٧ ) .
٦ كتاب البغال، للجاحظ ( ٢٥٨/٢ ) ، ( من رسائل الجاحظ ) ، الاغاني (١٧٩/٣)، الاشتقاق ( ٣٠٤ وما بعدها ) ، ( ١٢٠/٤ ) ، الشعر والشعراء ( ٣٦٩/١ ) ، الاصابة ( ١٩٧/٢ ) أنساب العرب ( ٢٦٩ ) .
٧ بلوغ الارب ( ٢٥٩/٢ ) .

دين قومه ، وتتبع اليهود والنصارى ، وقرأ الكتب ، وعدّ في جملة المتنصرين في أغلب الروايات ، فقد ذكر انه « تنصر واستحكم في النصرانية ، وقرأ الكتب ومات عليها »[1] . وهذا هو رأي اكثر اهل الأخبار .

ونسب اليه شعر ذكر انه قاله في رثاء زيد بن عمرو بن نفيل ، وفيه إشارة الى النار والى الثواب والعقاب بعد الموت والى فكرة التوحيد والايمان برب ليس رب كمثله والى التنديد بالأوثان[2] .

وله أبيات من الشعر يحث فيها على مساعدة الضعيف ونصر المظلوم ، وعلى فعل الخير للناس[3] .

ولا نعلم عن حياة ورقة في ايام شبابه شيئاً ، ولعله كان يعين اهله او اقربائه في اتجارهم مع بلاد الشأم او اليمن شأن اكثر شبان أسر مكة المعروفة في ذلك الوقت . فتعلم بذلك سلوك الطرق الموصلة الى العراق او بلاد الشأم ، ومن هنا اندفع نحو خارج الجزيرة يلتمس الحكمة والوصول الى رأي يقنعه في الحياة . ويظهر انه لم يكن في شبابه من اولئك الشباب الخاملين الذين كانوا يصرفون وقتهم في فراغ دائم ، دون عمل ولا تفكير ، متوسدين الأرض يقتلون فراغهم في ترهات الكلام ، كما انه لم يكن من اولئك الطائشين النزقين الذين يقضون وقتهم في النزاع والخصومة وشرب الخمر والاعتداء على الناس ، والحصول على المال للانفاق على اللهو بأية طريقة كانت ، بل كان شاباً متأملاً مفكراً منكمشاً على نفسه ، مكنه علمه بالكتابة والقراءة من قراءة الكتب والاطلاع على آراء الماضين والحاضرين ، حتى جاء يوم ، دفعه اجتهاده الذي وصل اليه على الخروج على تقاليد قومه وانتقاد الأوضاع التي كانوا عليها ، مما حمله على ترك مكة طوعاً او قهراً ، والتجول للبحث او فراراً من غضب قومه عليه .

وهو ابن عم خديجة الكبرى زوج الرسول . وقد أشير اليه في خبر « مجيء جبريل الى النبي في حراء » ،وله كلام مع الرسول على ما ورد في بعض الروايات.

---

١ اليعقوبي ( ١/٢٩٨ ) « ٢/٢٢ » « ليدن » ، البداية ، لابن كثير ( ٢/٢٣٨ ) .
٢ المحبر (١٧١) ، ابن هشام ( ١/٢٤٣ ، ٢٥٦ ) ، الاغاني ( ٣/١١٣ وما بعدها ) ، شيخو ، النصرانية ( ١/١١٨ ) ، خزانة الادب ( ٢/٣٩ وما بعدها ) ، مروج ( ١/٧٣ ) ، الذهبي ، تاريخ الاسلام ( ١/٦٨ ) .
٣ خزانة الادب ( ٢/٣٩ وما بعدها ) .

يقال إنه قال للرسول وكان قد ذهب اليه مع زوجته خديجة ليسأله رأيه فيما رآه من الرؤيا : « ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك ! » وان الرسول قال له : أمخرجي هم ؟ قال : نعم ، إنه لم يجيء رجل قط بما جئت بـه إلا عودي ، ولئن أدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً »[1] . وأشير اليه في خبر آخر ، حيث ورد أن (خديجة) ذهبت وحدها الى ابن عمها لتسأله عن الرؤيا التي رآها الرسول وعن هذا ( الناموس الأكبر ) الذي تجلى له . فلما قصت عليه القصة قال : «لئن كنت صادقـة ، إنّ زوجك لنبي ، وليلقين من أمته شدة ، ولئن أدركتـه لأومنَنّ به »[2] .

وذكر في خـبر آخر أن الرسول قد رأى ( ورقة ) في منامه ، وكان لابساً ثياباً بيضاً . وان الرسول ذكـر ذلك لمن سأله عنه ، وبين لهم أنـه لو كان من أهل النار لما ظهر له في منامه وهو بهذه الملابس . لأن أهل النار لا يلبسون ثياباً بيضاً[3] . ويروى أن الرسول قال : « لا تسبّوا ورقة بن نوفل ، فإني رأيتـه في ثياب بيض »[4] . قيل إن شخصاً تساب مع أخ لورقة بن نوفل ، فسب ورقة ليحرق قلب أخيه ، فبلغ ذلك الرسول ، فنهى عن سبّه[5] .

وجاء في خبر ان (ورقة) كان يمر بمكـة فيرى بلالاً وهو يعذّب ، يعذبه المشركون برمضاء مكة ، يلصقون ظهره بالرمضاء ، ويضربونه يريدون منـه ان يشرك بالله ، فلا يشرك به . ويأبى إلا ان يقول : أحد أحد، فيرثي ورقة لحاله ويقول : أحد أحد والله يا بلال . والله لئن قتلتموه فأنتم من الخاسرين[6] . او « والله لئن قتلتموه ، لاتخذن قبره حناناً »[7] .

---

١ الطبري ( ٢/٢٩٩ ) « دار المعارف » ، ابن هشام ( ١/٢٥٤ وما بعدها ) ، المسعودي مروج ( ٢/٥٩ ) ، ( ١/٧٣ ) « محمد محيي الدين عبد الحميد » « ١٩٥٨ م » ، الكامل ، لابن الاثير ( ٢/٣١ ) ، الذهبي ، تاريخ الاسلام ( ١/٧٥ ) ، القسطلاني ، شرح صحيح ( ١/٦٦ ) ، الاصابة ( ٣/٦٣٣ ) .

٢ الطبري ( ٢/٣٠٠ ) « دار المعارف » ، ابن سعد ، الطبقات ( ١/١٩٤ ) « بيروت ١٩٥٧ م » ، شرح صحيح البخاري ، لابن حجر العسقلاني ( ١/٦٦ وما بعدها ) .

٣ الاغاني ( ٣/١١٣ وما بعدها ) « بيروت ١٩٥٥ م » .

٤ كتاب نسب قريش ( ص ٢٠٧ ) ، الترمذي ( ٣/٢٥١ ) ، الاصابة ( ٦/٣١٨ وما بعدها ) ، مجمع الزوائد ( ٩/٤١٦ ) .

٥ الاصابة ( ٣/٦٣٣ ) .

٦ الاغاني ( ٣/١١٣ وما بعدها ) .

٧ النهاية ، لابن الاثير ( ١/٢٢٦ ) ، الاصابة ( ٦/٣١٨ ) ، كتاب نسب قريش (٢٠٨) .

ويظهر من الأخبار المتقدمة ان ( ورقة بن نوفل ) ، كان قد أدرك ايام الرسول وعاش الى يوم نزول الوحي عليه . بل يظهر من خبر رؤيته لبلال وهو في حالة تعذيبه ، انه عاش مدة بعد نزول الوحي . غير ان الأخبار المذكورة لا تنص على اسلامه ، ولم نجد أحداً قد نص على ذلك . أما خبر رؤيا الرسول له في منامه ، فانه يدل على عدم إسلامه ، وعلى انه كان قد توفي قبل نزول الوحي على الرسول . وهو الرأي الراجح. وهذا ما حمل أحد المؤرخين على القول: وقد اختلف فيه ، فمنهم من زعم انه مات نصرانياً ولم يدرك ظهور النبي. ومنهم من رأى انه مات مسلماً وانه مدح النبي[1] . وقد ورد في بعض الأخبار ان الرسول قال لما توفي ورقة : « لقد رأيت القس في الجنة عليه ثياب الحرير ، لأنه آمن بي وصدقني »[2] . وورد مثل ذلك من أحاديث زعم ان الرسول قالها في حق ورقة ، وهي كلها تشير الى وفاة ورقة قبل المبعث ، وعلى دينه ، إذ لم يدرك الاسلام .

وورد في بعض الروايات أنه « كان يكتب الكتاب العربي ، فكتب بالعربية من الانجيل ما شاء أن يكتب »[3] . وورد في رواية أخرى أنه « كان يكتب الكتاب العبراني ، فكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء أن يكتب »[4] . والخبران هما خبر واحد ، كما يظهر من وحدة النص ، غير إن اسم اللغة التي زعم أنه كان يكتب بها قد حرّف ، فقرأه بعضهم العربي ، وقرأه بعض آخر العبراني . ولما كان الانجيل باليونانية وبلغة بني إرم ، فقد أخطأ الرواة بجعل لغة الانجيل هي العبرانية ، وهم يتوهمون كثيراً فيخلطون بين العبرانية والسريانية . والغالب أنهم كانوا يريدون بالعبرانية لغة بني إرم التي كانت لغة العلم والأدب والدين في العراق وفي بلاد الشأم ، بل وبين مثقفي اليهود ورجال دينهم في ذلك الوقت .

وذكر أهل الأخبار أنه لم يعقب[5] . ولم يذكروا سبب ذلك ، هل كان قد

---

١ المسعودي ، مروج ( ٢/٥٩ ) .
٢ القسطلاني ، شرح صحيح ( ١/٦٥ ) ، الذهبي ، تأريخ الاسلام ( ١/٦٨ ) ، الذهبي ، سير النبلاء (٨٠) ، خزانة الادب ( ٢/٤١ ) .
٣ النصرانية ( ١/١١٩ ) .
٤ الاغاني ( ٣/١١٣ ) ، الاشتقاق (١٦٤) .
٥ كتاب نسب قريش ( ص ٢٠٧ ) .

تزوج ، ولكنه كان عقيماً ، فلم يعقب ؟ أو أنه عاش أعزب ولم يتزوّج طول حياته ؟

وكان ( أبو قيس صرمة بن أبي أنس ) ( صرمة بن أنس ) وهو من بني النجار ، قد ترهب ولبس المسوح ، وهجر الأوثان ، ودخل بيتاً واتخذه مسجداً لا تدخله طامث ولا جنب ، وقال : أعبد رب ابراهيم ، فلما قدم النبي المدينة أسلم وهو شيخ كبير ، وحسن إسلامه . وفيه نزلت الآية : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر »[1].ورووا له شعراً[2]. وزعم أنه اغتسل من الجنابة ، وهمّ بالنصرانية ، ثم أمسك عنها . وذكر أن ( ابن عباس ) كان يختلف اليه يأخذ عنه الشعر[3] .

وأما ( وكيع بن سلمة بن زهير الإيادي )،فهو من إياد ، زعم(ابن الكلبي) انه ولي البيت بعد جرهم ، فبنى صرحاً بأسفل مكة ، وجعل فيه أمة يقال لها ( حزورة ) ، وبها سميت ( حزورة مكة ) ، وجعل في الصرح سلّماً ، فكان يرقاه ويزعم انه يناجي الله . وكان ينطق بكثير من الخبر ، ويزعم الناس انه صدّيق من الصدّيقين ، وقالوا كان كاهناً[4] . وذكروا له كلمات مسجعة ، ليس فيها ما يشرح لنا معتقده الديني ويوضحه وضوحاً تاماً[5] .

والصرح كما يقول علماء اللغة ، بيت يبنى منفرداً ضخماً طويلاً في السماء

---

١ البقرة ، الآية ١٨٧ ، مروج ، ( ١/٥٢ وما بعدها ) ، تفسير الطبري ( ٢/٩٧ ) « بولاق » .

٢ بلوغ الارب ( ٢/٢٦٦ ) .

٣ بلوغ الارب ( ٢/٢٦٦ ) ، أسد الغابة ( ٣/١٨ ) ، الاصابة ( ٢/١٧٦ ) ، ( رقم ٤٠٦١ ) ، الاستيعاب ( ٢/١٩٤ ) ، ( حاشية على الاصابة ) .

٤ المحبر (١٣٦) ، بلوغ الارب ( ٢/٢٦٠ ) .

٥ ( وقال الايادي صاحب الصرح ، الذي اتخذ سلما لمناجاة الرب ، وهو القائل : مرصعة وفاطمة ، القطيعة والفجيعة ، وصلة الرحم وحسن-الكلم ، زعم ربكم ليجزين بالخير ثوابا ، وبالشر عقابا. وان من في الارض عبيد لمن في السماء. هلكت جرهم وربلت اياد ، وكذلك الصلاح والفساد . من رشد فاتبعوه ، ومن غوى فارفضوه . كل شاة معلقة برجلها .
واياه عنى الشاعر بقوله :

ونحن اياد عبيد الاله ورهط مناجيه في السلم
ونحن ولاة حجاب العتيق زمان الرعاف على جرهم

البيان والتبيين ( ٢/١٠٩ ) ، الامثال ، للميداني ( ٢/٨١ ) .

وكل بناء عالٍ مرتفع[1] . والحزورة الرابية الصغيرة والتل الصغير[2] . ويظهر انه كان بنى صرحه فوق تل في محل منفرد ، ليختلي هناك على طريقة الرهبان والنساك .

وكل ما عرفه أهل الأخبار عن ( عمير بن جندب ) الجُهني ، انه كان من جهينة ، وانه كان موحداً لم يشرك بربه أحداً ، وانه مات قبيل الاسلام[3] .

وكان عامر بن الظرب العَدواني من الحكماء ، نسبت اليه أقوال في الحكم والدين . منها : « إني ما رأيت شيئاً خلق نفسه ، ولا رأيت موضوعاً إلا مصنوعاً ، ولا جائياً إلا ذاهباً ، ولو كان يميت الناس الداء ، لأحياهم الدواء » . ثم قال : « إني أرى أموراً شتى وحتى . قيل له : وما حتى ؟ قال : حتى يرجع الميت حياً ، ويعود اللاشيء شيئاً ، ولذلك خلقت السماوات والأرض ، فتولوا عنه ذاهبين »[4] .

وقد نسبوا اليه جملة أحكام ، منها حكمه في ( الخنثى ) ، وقد ذكروا أن حكمه هذا قد أقرّه الاسلام . وقالوا إن العرب كانت إذا أشكل عليها أمر في قضاء ، أو حارت في أمر معضل ترى وجوب الحكم فيه برأي صائب وعقل وتدبير ، ذهبت اليه ، فإذا حكم كان حكمه الحكم الفصل ، فلا رادّ له[5] .

ونسبت الى كل من عبد الطابخة بن ثعلب بن وبرة بن قضاعة وعلاف بن شهاب التميمي أبيات ، فيها اقرار بوجود إلٰه واحد خالق لهذا الكون ، وبوجود الحساب والثواب والعقاب[6] .

وأما ( المتلمس بن أمية ) الكناني ، فذكروا انه كان قد اتخذ من فناء الكعبة موضعاً يخطب فيه ، ويعظ قومه عظات دينية ، فكان في جملة ما قاله لهم :

---

١ تاج العروس ( ٢/١٧٨ وما بعدها ) ، ( صرح ) .
٢ تاج العروس ( ٣/١٣٨ ) ، ( حزر ) .
٣ بلوغ الارب ( ٢/٢٦١ وما بعدها ) .
٤ المحبر ( ١٣٥ ، ١٨١ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ) ، بلوغ الارب ( ٢/٢٧٥ وما بعدها ) .
٥ الروض الانف ( ١/٨٦ ) ، ابن هشام ( ١/١٣٤ ) ، ( محمد محيي الدين عبد الحميد ) ، المعمرون ( ٤٤ وما بعدها ) ، عيون الاخبار ( ١/٢٦٦ ) ، البيان والتبيين ( ١/٢٦٤ ، ٣٦٥ ، ٤٠١ ) ، ( ٢/٧٢ ، ١٩٩ ) ، ( ٣/٣٨ ، ٣٩ ، ٢٩٩ ، ٣٦٩ ) .
٦ الاغاني ( ٣/١١٣ ) ، ( طبعة بيروت ) ، مروج ( ٢/٦٠ ) .

« انكم قد تفردتم بآلهة شتى ، واني لأعلم ما الله راضٍ به . وإن الله تعالى رب هذه الآلهة ، وانه ليحب ان يعبد وحده » . فنفرت كلماته هذه وأمثالها القوم منه وتجنبته ، وقالوا عنه انه على دين بني تميم[1] .

وفي أبيات منسوبة الى زهير بن أبي سُلمى الشاعر المعروف إقرار بوجود إلٰه عالم بكل ما في النفوس ، هو (الله) ، لا تخفى عليه خافيـــة ، فلا يجوز كتمان شيء عنه ، وبوجود يوم حساب يحاسب فيه الناس على ما قاموا به من أعمال ، وقد ينتقم الله من الظالم في الدنيا قبل الآخرة ، فلا مخلص له[2] .

ونسب الايمان بالله واليوم الآخر الى أشخاص آخرين ، منهم : عبدالله القضاعي والشاعر عَبيد بن الأبرص الأسدي ، وكعب بن لؤي بن غالب ، والأول منهم هو ابن تغلب بن وبرة بن قضاعة ، كان من الحكماء الخطباء ، يتبع الحنيفية ، وينهج على نهجها مثل الحنفاء[3] .

وأما الثاني ، وهو عَبيد بن الأبرص ، فشاعر جاهلي شهير ،له في قتله قصة ، هي من ذيول قصة ( الغريَين) للمنذر بن ماء السماء . نجد في الشعر المنسوب اليه اسم ( الله ) يتردد في كثير من المواضع ، ونراه من المتشائمين المؤمنـــين بالمنايا وبالمحتم المكتوب ، ونراه في القصيدة البائية يتوكـل على الله ، ويدعو الناس الى الاعتماد عليه فيقول :

من يسأل الناس يحرموه وسائـــل الله لا يخيب
بالله يدرك كل خير والقول في بعضه تلغيب
والله ليس لـــه شريك علاّمُ ما أخفت القلوب[4]

---

١ بلوغ الارب ( ٢/٢٧٧ ) .

٢ فلا تكتمن الله ما في صدوركـــم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيودع في كتـــاب فيدخـر ليوم الحساب أو يعجل فينقم
شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، للامام ثعلب ( ص ١٢ ) ، ( طبعة دار الكتـــب المصرية ) ، شعراء النصرانية ، ( القسم الرابع ص ٥١٨ ) ، بلوغ الارب ( ٢/٢٧٧ وما بعدها ) .

٣ بلوغ الارب ( ٢/٢٨٠ ) .

٤ البيان والتبيين ( ١/٢٢٦ ) ، شعراء النصرانية ( القسم الرابع ص ٦٠٧ ومـــا بعدها ) ، أسماء المغتالين (٢١١) ، ( نوادر المخطوطات ) .

ونراه يقول في المنايا :

فأبلـــغ بنيّ وأعمامهم بأن المنايا هـــي الوارده
لها مدة فنفوس العبـــاد اليها وإن كرهت قاصده
فلا تجزعوا الحمام دنا فللموت ما تلد الوالده[1]

وفي كثير من مواضع شعره يذكر المنايا ويتذكر الموت ، ثم هو يتجلد ويتصبر في ملاقاة الشدائد والأهوال ، وينصح النـــاس بالسير على هذا المنوال . والذي يقرأ شعره ، يشعر أنه أمام رجل حضري رقيق عاطفي المزاج ، ذي نفس ميالة الى التقشف والتصوّف ، مؤمن بالعدل ، كاره للظلم ، فهل كان عبيد على هذه الشاكلة ؟ وهل هذا الشعر وخاصة ما جاء منه في البائية هو نظم من منظومه ؟ أو هو من نظم من عاش بعده في الاسلام ؟

وأما ( كعب بن لؤي بن غالب ) . فهو من أجداد النبي . وقد كان على الحنيفية ،واليه كانت تجتمع قريش في كل جمعة،فكان يعظهم ويوجههم ويرشدهم يأمرهم بالطاعة والتفكر في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار وتقلب الأحوال والاعتبار بما جرى على الأولين والآخرين ، ويحثهم على صلة الأرحام وإفشاء السلام وحفظ العهد ومراعاة حق القربة والتصدق على الفقراء والأيتام[2] .

هذه خلاصة موجزة لسير من حشرهم أهل الأخبار في زمرة الحنفاء ، تريك آراء الجماعة تكاد تكون واحدة : كفر بالأصنام وبالشرك كله ، وإعراض عن عادات قومهم ، وثورة على عقائدهم ، وترقب لحدوث تطور واصلاح يقضي على الجهالة ، وقد مهدوا له بدعوتهم تلك التي أشاعوها بين بني قومهم فجلبت عليهم السخط والغضب الشديد ، مما حمل أكثرهم ، وهم في الغالب من مكـــة وأطرافها ، على الفرار من بلدتهم الى أطرافها المنعزلة الآمنة وغيرها من الأماكن الخالية ، ليكونوا في أمان من ايذاء قومهم لهم ، وفي وسط يفكرون فيـــه في خلق السماوات والأرض تفكيراً هادئاً ، فلا يزعجهم مزعج ، ولا ينغص حياتهم هناك منغص .

---

١ شعراء النصرانية ( القسم الرابع ص ٦٠٤ وما بعدها ) .
٢ ابن سعد ، الطبقات ( الجزء الاول ، القسم الاول ص ٣٩ ) ، بلـــوغ الارب ( ٢/ ٢٨٢ ) .

لقد جعل أهل الأخبار معظم من تحدثنا عنهم إن لم نقـــل كلهم من القارئين الكاتبين ، ونسبوا الى بعضهم قراءة الكتب والصحف والزبور ومجلة لقمان . يريدون بذلك الكتب المقدسة . ويفهم من كلامهم في بعض الأحيـــان ان منهم من كان يحسن فهم العبرانية أو لغة بني إرم . ولكن الأخباريين عفا الله عنهم لم يتبسطوا لنا في الحديث عن ماهيـــة تلك الصحف وعن محتويات مجلـــة لقمان وعن الكتب المُنزلة ، ولم يأتوا بنماذج مفصلة طويلة أو قطع ترشد إلى المظانّ التي نقلت منها. فأضاعوا علينا ، باهمالهم الاشارة الى هذه الأمور ، أشياء كثيرة مهمة ، بنا حاجة ماسة إلى معرفتها ، للوقوف على الحالة الدينية في جزيرة العرب قبيل الاسلام وابان ظهوره .

ويؤكد أهل الأخبار ان بعض أولئك الحنفـاء كانوا يسيرون على سنّة ابراهيم وشريعته ، وان بعضاً آخر منهم كان يلتمس كلماته ويسأل عنها ، وانهم في سبيل ذلك تحملوا المشاق والأسفار والصعاب . وقد جعلوا وجهة أكثرهم أعالي الحجاز وبلاد الشأم وأعالي العراق . أي المواضع التي كانت غالبية أهلهـــا على النصرانية يومئذ ، وجعلوا أكثر كلامهم وسؤالهم مع الرهبان . وقد أضافوا اليهم الأحبار أحياناً ، وذكروا ان الرهبان والأحبار أشاروا عليهم بوجوب البحث والتأمـــل ، فليس عندهم ما يأملونه ويرجونه من دين ابراهيم واسماعيل ، ولذلك لم يدخلوا في يهودية ولا نصرانية ، بل ظلوا ينتظرون الوعد الحـــق ، ومنهم من مات وهو على هذه العقيدة . مات معتقداً بدين ابراهيم حنيفاً ، غير مشركٍ بربه أحداً .

أما كيف كانت شريعة ابراهيم ، وعلى أي نهج سار الحنفاء ، وهل كان لهم كتـــاب أو كتب أو نحو ذلك ؟ فأسئلة لم يجب عنها أهل الأخبار إجابة صريحة واضحة . لذلك صرنا في جهـــل بأمر تلك الشريعة : شريعة ابراهيم ، شريعة التوحيد الحق .

ويذكر أهل الأخبار أنه كان لأتباع ابراهيم من العرب علامات وعادات ميزوا أنفسهم بها عن غيرهم ، منها : الختان ، وحلق العانة ، وقص الشارب . وهي علامـــات جعلها بعض المفسرين مـــن ( كلمات ابراهيم ) التي ذكرت في القرآن الكريم ، في الآية : « وإذ ابتلى ابراهيم ربّه بكلمات فأتمهن »[1] . ذهب القائلون

---

١ البقرة ، الآية ١٢٤ .

بهذا الرأي الى أن تلك الكلمات هي عشر : « خمس في الرأس ، وخمس في الجسد. فأما التي في الرأس ، فالمضمضة والاستنشاق وقصّ الشارب وفرق الرأس والسواك. وأما التي في الجسد ، فالاستنجاء وتقليم الأظافر ونتف الإبط وحلق العانة والختان»[1].

ومن سنن شريعة ابراهيم الاختتان. وهو من العادات القديمة الشائعة بين العرب الجاهليين الوثنيين. أما العرب النصارى ، فلم يكونوا يختتنون. فالحنفاء في هذه العادة والوثنيون سواء. وفي أخبار معركة ( حنين ) أن الأنصار حينما أجهزوا على قتلى ثقيف ممن سقط في هذه المعركة مع هوازن وجدوا عبداً ، عندما كشف ليستلب ما عليه وجد أغرل. فلما تبين ذلك للأنصار ، نادى أحدهم بأعلى صوته: يعلم الله أن ثقيفاً غُرْل ما تختتن. فقام اليه المغيرة بن شعبة ، وهو من ثقيف ، فأخذ بيده ، وخشي أن يذهب ذلك عن قومه في العرب ، فقال له : لا تقل ذلك فداك أبي وأمي ، إنما هو غلام لنا نصراني ، ثم جعل يكشف له قتلى قومه ويقول له : ألا تراهم مختتنين[2] ؟

ويتبين من هذا الخبر أن العرب كانوا يعدون الغرل شيئاً معيباً ، ومنقصة تكون حديث الناس. وهناك خبر آخر يفيد أن العرب جميعاً كانوا يختتنون ، وأن الاختتان كان من السمات التي تميزهم عن غيرهم ، وأنهم في ذلك كاليهود[3]. وقد ورد في الموارد اليهودية ما يفيد اختتان العرب. ولعل التوراة التي ذكرت قصة اختتان اسماعيل ، أخذت خبرها هذا من تقاليد العرب الشماليين التي كانت شائعة بينهم في ذلك العهد[4].

## الاعتكاف :

وقد نسب الاعتكاف في الكهوف وفي البراري وفي الجبال الى عدد من هؤلاء الحنفاء. فقد ذكر أهل الأخبار أنهم كانوا قد اعتكفوا في المواضع الخالية البعيدة

---

١ تفسير الطبري ( ١/٤١٤ وما بعدها ) ، روح المعاني ( ١/٣٧٤ ) ، بلوغ الارب ( ٢/٢٨٧ ) ، المحبر (٣٢٩) .

٢ الطبري ( ٣/١٣٠ ) ، « ذكر الخبر عن غزوة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، هوازن بحنين » .

٣ الاغاني ( ٦/٩١ ) ، « ذكر أبي سفيان وأخباره ونسبه » .

٤ Reste, S. 175.

عن الناس ، وحبسوا أنفسهم فيها ، فلا يخرجون منها إلا لحاجة شديدة وضرورة ماسة[1] . يتحنثون فيها ويتأملون في الكون ، يلتمسون الصدق والحق . والتحنث التعبد . فكانوا يتعبدون في تلك المواضع الهادئة الساكنة ، مثل غار ( حراء ) . وقد ذكر أن الرسول كان يتحنث فيه الليالي ، يقضيها في ذلك الغار[2] .

ويعبر عن التعبد ليلاً بـ ( التهجد ) أيضاً . وذكر ان التهجد الصلاة ليلاً . وقد كان الرسول يتهجد[3] . والتهجد التيقظ والسهر بعد نومة من الليل . والهجود النوم عند العرب . ويظهر ان تفسير التهجد بالتعبد ليلاً ، انما ورد من تفسيرهم لما ورد في القرآن الكريم : « ومن الليل فتهجد به نافلة ، عسى ان يبعثك ربك مقاماً محموداً »[4] . فخص العلماء التهجد بالتعبد ليلاً .

ويعبر عن التعبد بالنسك ، والنسك : العبادة والطاعة وكل ما يتقرب به الى الآلهة . والنسّاك : المتعبدون . وقد كان الحنفاء من النساك أي المتعبدين. وعدّوا الذبائح من النسك . وجعلوا النسيكة : الذبيحة[5] . والذبائح ، أي النسائك ، هي من أهم مظاهر التعبد والزهد عند الجاهليين .

وممن نسب الى النسك والرهبنة من الجاهليين ( أبو عامر عبد عمرو بن صيفي ابن مالك بن النعمان ) ، أحد ( بني ضبيعة بن زيد ) . وكان في الجاهلية يسمى ( الراهب) ، لأنه كان مترهباً ، وقد كان من المقدمين بيثرب ، إذ كان رأس الأوس فيها ، فلما جاء رسول الله الى المدينة ، خاصمه ، ثم خرج الى مكة مباعداً له ، ومعه خمسون غلاماً من الأوس ، واشترك مع قريش يوم أحد[6] .

---

١ تاج العروس ( ٦/٢٠٣ ) ، ( عكف ) .
٢ تاج العروس ( ١/٦١٦ ) ، ( حنث ) .
٣ تاج العروس ( ٢/٥٤٣ ) ، ( هجد ) .
٤ الاسراء ، الآية ٧٩ ، تفسير الطبري ( ١٥/٩٥ ) ، روح المعاني ( ١٥/١٢٧ ) .
٥ اللسان ( ١٠/٤٩٨ وما بعدها ) ، ( نسك ) .
٦ نهاية الارب ( ١٧/٨٩ ) ، ( ذكر غزوة أحد ) ، امتـــاع الاسماع ( ١/١١٥ ) ، « غزوة أحد » .